المقتطف

الجزء الاول من المجلد الثاني والتسعين

١ يناير سنة ١٩٣٨ — ٢٩ شوال سنة ١٣٥٦

العلم والمال

ليس هذا البحث مقابلة بين قيمة العلم وقيمة المال على نحو ما قال الشاعر العربي « لنا علمٌ وللجهال مالُ » ولكنهُ تحقيقٌ في النزعة الحديثة البادية بين طوائف من العلماء وارباب الجامعات الكبيرة ، ولاسيما في الولايات المتحدة الاميركية ، الى التوسل بالمكتشفات والمخترعات العلمية الى جني الربح منها بتسجيلها واستغلالها ، وهل فائدة هذه النزعة تربي على ضررها ، او ضررها يربي على فائدتها . فثمة فريق من الكتاب يرى ان الاكتشاف العلمي على يدي باحث في جامعة اشبه ما يكون بمؤلف بليغ يؤلفهُ استاذ الادب وينشرهُ ويحتفظ بحقوق طبعه وبجني منهُ قليلاً او كثيراً . فهل هناك ما يحظر على الباحث العلمي ، اذا هو سجل مكتشفاً او مخترعاً جديداً لهُ وجنى منهُ ما يستطيع ؟ هذا هو السؤال !

كان الرأي بين العلماء في القرون الماضية ولا يزال سائداً بعض دوائرهم حتى الآن ان العلم يطلب لذاته ، لا للثروة التي قد يجنى اليها . وقد اثر عن بعضهم اقوال في هذا الموضوع جديرة بالترداد . فالعالم الوليدي الاميركي ، لويس اجاسيز ، اجاب صديقاً بيّن لهُ سبيلاً من سبل النفع المشروع بأنهُ « لا يجد متسعاً من الوقت لجمع المال » . ولما اقترح على باستور ان يسجل مكتشفاته في علم الجراثيم ويخرج بها شهادات تحصر استعمالها فيه او ان يسعى الى جني الربح منها بيعها اجاب : « ان رجال العلم يحسبون ذلك حطة من شأنهم » . ثم كان يحدث لابدي

كافندش فقال : « لا يسعني ان اعمل في سبيل المال ولكنني استطيع ان اعمل دائماً في سبيل العلم »

ذلك ان العلماء يرون ان الوقت ثمين ، وان المال في المقام الثاني بين مطالب الانسان ، وان المثابرة في سبيل الكشف عن اسرار الطبيعة أجدى على النفس غبطةً ولذةً من السعي وراء الثروة . ثم انهم يقولون ان السعي للكسب المادي لا يتفق والامانة العلمية

الا ان المشاهد ان العمل في سبيل العلم يفضي بحكم الطبع والتقدم الى العمل في سبيل المال . ومهما يكن البحث العلمي مجرّداً ، فانهُ على الغالب ينتهي يوماً ما الى التطبيق العملي . ان جميع الفنون الاسلكية ترتدُّ الى معادلات مكسول الرياضية وتحقيق هرتز لصحتها بالتجربة . وجميع الاساليب المستعملة في شركات النفط للتكرير والتحطيم ترجع الى المعادلات الرياضية التي استنبطها نابغة جامعة يايل العلامة ولرد جيبس Willard Gibbs . ولو كانت الشركات الصناعية تتأثر بعرفان الجميل لوجب ان تقيم لهذين الفيلسوفين الرياضيين أنصاباً من الذهب الابريز

يضاف الى هذا ان العلم وتقدمهُ رهن التأييد الذي يناله الباحثون من رجال المال في سبيل البحث لان المختبرات الحديثة والاجهزة العلمية التي لا بدَّ منها ، تقتضي نفقة كبيرة . والباحث العلميُّ في حاجة الى الاطمئنان والاستقرار على اسباب معيشته ومعيشة من يلوذ به ، لكي يفرغ للتأمل والبحث . فاذا كان العلم يخلق الثروة ، أفلا يجوز للعالم ان يجني مما يكشف ويستنبط لكي يتفق ما يجني في سبيل البحث العلمي ؟ وإذا كان من المتاح للمهندسين وأصحاب الاموال أن يتناولوا مباحث فراداي ومكسول وجبس الاساسية ، ويبنوا على اساسها الشركات الصناعية الكبيرة التي تدرُّ بدرات الاموال ، أفلا يصحُّ للمكتشفين انفسهم أن يفعلوا بنات افكارهم وثمار جهدهم ما يفعلهُ بها غيرهم ؟ إن الجواب عن هذه الاسئلة ، بالنفي حتماً من الناحية الشرعية ، اذ ليس ثمة قانون يمنعهم ان يفعلوا ما يشاءون بمكتشفاتهم ومستنبطاتهم ، ولكن هناك موانع عملية أساسها تعذُّر العناية بالبحث وبالاستقلال المالي والصناعي في آنٍ واحد ، وأخرى نظرية وعمرانية مستمدَّة من طبيعة البحث العلمي والحرية الفكرية واخوّة العلماء

***

في سنة ١٩٠٥ كان مدرّس كيمياوي شاب في جامعة كاليفورنيا ، يبحث عن عمل اضافي يزيد به دخلهُ الضيق ذات يده ولقلة مرتبه الشهري . ولو كان هذا الشاب ، مدرّساً في قسم الادب ، لألف كتاباً او أنشأ رسائل يجزيه عليها الناشرون أو اصحاب الصحف جزاء لا بأس به . ولو كان مدرساً في قسم القانون ، لاتصل بمكتب أحد المحامين ، واتفق معهُ على إعداد بعض المذكرات القانونية . ولكن كوتريل F. Cottrell كان كيمياويًّا فاذا يفعل ؟

اتصل ببعض الشركات الصناعية لعلَّهُ يجد فيها مديراً يعهد اليه في الاشراف على بعض

الاعمال الكيمياوية فيها ، فاتفق لهُ أن عرف في أثناء بحثه مدير معمل يصنع الحامض الكبريتيك وكان هذا المدير يشكو ضياع بعض الحامض ، لان ابخرتهُ تصعد من المدخنة في أثناء التكرير . فخطرت لكوتريل طريقة تمكنهُ من ترسيب ابخرة الحامض قبل ضياعها . فصنع شبكة من القضبان المعدنية ووضعها في المدخنة ، ثم وصلها بسلك كهربائي ، فوجد انهُ اذا شرعت الابخرة تصعد في المدخنة ، وكانت الكهربائية تجري في قضبان الشبكة ، اخذت ابخرة الحامض تتقاص على القضبان فتتكون قطيرات من الحامض لا تلبث حتى تعود الى الرجل . ثم ثبت ان هذا الاسلوب الصناعي الجديد يصلح للاستعمال في صناعات مختلفة

وقضى كوتريل هو وزميلان لهُ في استغلال هذا الاستنباط ، خمس سنوات متوالية ، أصابوا في نهايتها النجاح المطلوب بعد انفاق اربعة آلاف جنيه . ولكن هذا النجاح حيَّرهم . لأن الشبان الثلاثة علماء وطنوا النفس على البحث العلمي لا على الاستغلال المالي فماذا يفعلون ؟

كانوا قد تعاهدوا عندما اقدموا على هذا السبل ، أن يخصُّوا الجامعة التي يدرّسون فيها ، بنصيب من اسهم الشركة التي انشأوها وما تدرُّهُ من الربح ، اعترافاً منهم بجميلها عليهم ، ولأنها سمحت لهم ان يجروا المباحث اللازمة في معاملها . فعرضوا ذلك على مجلس الجامعة فشكر وأبى عرضهم لان المصاعب التي تحول دون اشتراك معهد علمي في عمل تجاري ، كانت في رأي مديريها ، مما يتعذّر التغلُّب عليه . فضاق الثلاثة ذرعاً ، بما يفعلون ، فعرضوا على الجمعية الكيمياوية الاميركية ان تتولى الاشراف على استغلال هذه المستنبطات المدرّة ، فأبت ، وكذلك فعلت غير واحدة من جمعيات المهندسين . وأخيراً ذهب كوتريل الى وشنطن بدعوة من مدير مصلحة المناجم لاستشارته في موضوع علمي . وهناك اتصل بمدير المعهد السمثسوني المشهور ، فاستقر الرأي اخيراً على انشاء شركة كبيرة مستقلة تضم نفراً من كبار رجال الاعمال وطائفة من العلماء ، لتشرف على استغلال هذه المستنبطات ، وغيرها مما يمنحها المستنبطون حق استغلاله ، على ان لا توزع هذه الشركة ربحاً ما على حملة اسهمها ، بل يوزع المال الذي تجنيه على معاهد العلم وطوائف البحث تشجيعاً للبحث العلمي ، اي ان تصبح الشركة معهداً كبيراً قائماً على اساس التعاون ، بدلاً من الاكتفاء بالجود الخاص من اموال أثرياء افراد كروكفلر وكارنيجي ولورد تيلد

وقد بلغ ما وزعتهُ هذه الشركة من المال ، على معاهد العلم والبحث ١٥٠ الفاً من الجنيهات حتى بداية سنة ١٩٣٦ ومن اشهر البحوث العلمية الحديثة المدينة لها بحوث لورنس الاميركي في تهشيم الذرة بجامعة كاليفورنيا ، وكذلك بحوث دي جراف في معهد ماستشوستس الصناعي ، وهيزنبرج في جامعة ليبتسج ، وبحوث المعهد السمثسوني في ما للاشعاع من التأثير في الحياة وغيرها

وقد اتسع عمل هذه الشركة ، اتساعاً عظيماً فنظمت فرعاً مستقلاً عهدت في ادارته الى

كوتريل نفسه ، ومهمتهُ البحث العلمي في علوم الطبيعة والاحياء والاجتماع والاقتصاد

وقد عنيت جامعات كثيرة في اميركا بهذه الناحية من البحث فأنشأت اما شركات مستقلة منحت حق استغلال المكتشفات والمستنبطات التي تكتشف وتستنبط في الجامعة ، وغيرها مما يمكن الفوز به ، واما نقّب رجالها في نصوص قوانينها الاساسية لعلهم يجدون فيها ما يسمح للجامعة باستخراج امتيازات التسجيل والاستغلال باسمها الخاص ثم تنشأ لجنة خاصة من رجالها للاشراف على استغلال هذه الامتيازات استغلالاً ماليًّا

ففي بدء سنة ١٩٣٦ كان في الولايات المتحدة عشر جامعات لها شركات خاصة أُنشئت لعمل وفقاً للنهج الاول . حالة ان النهج الثاني اتبع في جامعة تورنتو عند ما اكتشف الدكتور بانتنغ الانسولين فعهد في الاشراف على استغلاله لمصلحة الجامعة الى لجنة من رجالها . وحذت جامعة مانت لويس ومعهد الامراض المعدية بشيكاغو حذو جامعة تورنتو

وقد يقال أن تسجيل الاساليب الخاصة بالعقاقير الطبية وخلاصات الغدد وما اليها والاشراف على صنعها عمل واجب لان فيه وقاية للجمهور من بعض الشركات التي لا تتوخى الدقة كل الدقة في صنعها بحسب الاحوال العلمية فيتعرض مستعملها لخطر أليم على نحو ما حدث من عهد قريب في مادة « السلفانيلاميد » [1] . وهذا القول وجيه ولكن تسجيل اكتشاف او اختراع لوقاية الجمهور من مضار التطبيق الناقص ، شيء والتسجيل رغبة في الربح والاستغلال شيء آخر مع ان الغرض الواحد قد يفضي الى الآخر على الراجح

مع ذلك ، ومع ان الازمة الاقتصادية قد حالت دون امداد معاهد العلم والبحث بأموال هي في أشد الحاجة اليها ، ومع ان حق العلماء في استغلال ثمار بحثهم لا نزاع فيه من الناحية القانونية ، ومع ان مرتبات الباحثين لا تقابل بمرتبات الكتّاب في الصحف وكلام الاعلانات وكواكب الصور المتحركة على الرغم من ان « كلّ مبلغ مهما يعظم يعد ضئيلاً ازاء عمل هؤلاء الرجال الذين يملكون قوة الابداع والتفاني على ترقية الفكر العلمي خطوة خطوة حتى يصلوا به الى البيوت فينشروا فيها اسباب الصحة والراحة والرفاهة . . . » [2] — مع كل ذلك لا يزال بين العلماء فريق كبير يعارض في الاستغلال التجاري لثمار البحث في معاهد العلم العالي

ولسنا في حاجة الى اقامة الدليل المفصّل على اختلاف الرأي في هذا الموضوع . وحسبنا ان نشير الى ان مجمع تقدم العلوم الاميركي عني به في سنة ١٩٣٣ فعين لجنة من اكبر العلماء لدراسته فوضعت اللجنة تقريرها في أربعين صفحة كبيرة ملخصة فيه ما يقال تأييداً للاستغلال

(١) راجع المقتطف دسمبر ١٩٣٧ صفحة ٦٦١ (٢) للسر هوفر رئيس الولايات المتحدة السابق

المالي » لتيار البحث في معاهد العلم العالي » واعتراضاً عليه . ولكن المسألة لم تقف عند هذا الحدّ ، وما زالت الصحف العلمية تنشر الفينة بعد الفينة مقالاً لعالم كبير ، او لمدير معهد علمي في تأييد هذا الرأي او نفيه

***

والغالب ان تكون الناحية الادبية في الموضوع في مقدمة ما يستند اليه المعارضون . فهم يذهبون الى ان الجامعة تعتمد على تأييد الشعب لها . فاذا كانت جامعة حكومية كان هذا الاعتماد غير مباشر ، لان الانفاق عليها من خزينة الحكومة يعود في آخر الامر الى المال الذي يجمع من الشعب وتسمح الهيئة التشريعية باتفاقه عليها . اما اذا كانت جامعة خاصة فاعتمادها على ما يجود به الاسخياء من ناحية وعلى اعضائها من ضرائب معينة تبلغ الوف الجنيهات من ناحية اخرى . وطالما دافعت الجامعات الخاصة عن وجوب اعفائها من الضرائب على ممتلكاتها الواسعة من ارض وبناء ، بقولها انها معاهد عامة لا تبغي الربح ، وان اعمالها وقف على الخير العام . فاذا شاءت الجامعات ان تنزل الى حلبة الاعمال المالية ، وتجني الربح من مكتشفات رجالها ومخترعاتهم ، أيًّا كان سبيل الجني ، فهي تناقض ذلك المبدأ الادبي العالي الذي تعتمد عليه في استمداد المعونة من الجمهور والحكومة

ثم ان الجامعات مرتبطة بعهد غير مكتوب مع الاسخياء الذين جادوا عليها بالمال لتشييد المباني وتجهيزها بمعدات البحث وتوفير المال لمرتبات رجالها . هل كان قصد هؤلاء المحسنين سواء أأفراداً كانوا ام جماعات ، أن يهيئوا للجامعات السبيل للتنافس التجاري ؟ بل هناك عهد آخر لا يسع الجامعات ان تخرج عليه بعملها المالي من دون ان يوصم جبينها بوصمة ادبية . ذلك هو العهد الضمني بين رجال البحث في هذا العصر ، او في اي عصر ، والرّواد الذين سبقوهم ، الى تمهيد الطريق وانجلاء الغامض . فليس في العالم اكتشاف جديد او استنباط حديث لا يمكن ان ترتد به خطوة خطوة الى مباحث عشرات من العلماء الذين جهدوا وشقوا في اكتشاف الحقائق واحدة اثر اخرى . . فكيف يجوز لباحث حديث ان يسجّل طريقةً ويحصر استعمالها لجني الربح منها مع ان صاحب الركن الاساسي لم يفعل ، ولو فعل لما اتيحت لهُ الاركان التي تقوم عليها طريقتهُ . قد تقبل هذا من صاحب شركة تجارية ، ولكنه من عالم او باحث في جامعة ، بحسب تقضاً لذلك العهد الادبي المتفق عليه بين العلماء على ان العلم مشاع

خذ مثلاً على ذلك اكتشاف الطريقة الحديثة في معالجة الانيميا الخبيثة بخلاصة الكبد . فقد توصّل مينو Minot ومرفي Murphy الاميركيان الى اكتشافها باعتمادهما في ما اعتمدا عليه ، على مباحث هويبل Whipple في معاهد مختلفة . وهويبل اعتمد على سلسلة متعددة الحلقات

من المباحث في الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية . فلو شاء بيتو ومرفي ان يسجّلا طريقتهما ويمنعا استعمالها الاّ عمّن يوفي الثمن الذي يطلبانه او تطلبهُ الجامعة التي يشتغلان فيها ، لكان لهما وللجامعة ذلك من الناحية الشرعية ولساء عملهما عملاً من الناحية الادبية . ومن بواعث فخرهما أن الطريقة ابيحت للعالم بغير قيد ولا شرط . ولذلك ترى ان المعهد الذي عليهِ توزيع جوائز نوبل الطبية اشرك هويل معهما في الجائزة من بضع سنوات

هذا من الناحية الادبية . ولكن للمسألة ناحيتها العملية ايضاً . ومن حق الباحث في شؤون العلم والتربية والاجتماع ان يؤكد من دون أن يخشى لوماً ان مصلحة التربية مرتبطة اوثق ارتباط بمصلحة البحث العلمي ، وكل ما يفضي الى تعزيز الجامعة وعمل البحث يفضي حتماً وعلى المدى الطويل الى ارتقاء الانسان والحضارة . واذن فمستقبل معاهد العلم ونجاحها في تأدية مهمتها أمر يهمّ الناس . ومع اننا نسلّم بأن مسألة الخلاف على الناحية الادبية في موضوع العلم والمال ، قد تكون خاصة بالعلماء انفسهم ووجهة نظرهم الى الامور ، لا يسعنا أن نغفل العناية بنواحي كفاية المعاهد في ابداع الجديد وما يمكن أن يكون لهذا الجديد من ثبوت وفائدة . فهذه المسائل الاخيرة ، وان كانت في صميمها من شأن فلسفة العلم ، الاّ انها من ناحية التطبيق امور عملية كاخص الامور العملية

لا ريب في ان تجهيز معامل البحث بكل ما يلزم لها من الادوات اللازمة للبحث من أهم وسائل الارتقاء العلمي في هذا العصر . وكثيراً ما يكون استنباط جهاز جديد للبحث وسيلة عظيمة الشأن للكشف عن حقائق خفيت عن انظار الباحثين لقصور وسائلهم . ولسنا لا نخطىء اذا ضربنا على ذلك مثلاً بالسيكلوترون في مباحث الذرّة [1] فمعامل البحث الطبيعي في الجامعات والمعاهد المختلفة تعجز عن المضي في بحث ناحية من قلب الذرّة اذا خلت من هذا الجهاز ، وقد انكر لورد رذرفورد العظيم ضرورتهُ قبلاً في معمل كافنديش بجامعة كمبردج ، ثم غيّر فكرهُ

ولا يخفى ان تجهيز معامل البحث ، بهذه الادوات الحديثة اللازمة للكشف العلمي ، يقتضي نفقة غير يسيرة . ولو لم يتبرّع للورنس الاميركي ، من يتفضّل بتمطيس كهربائي كبير بلا مقابل ، وبمال من جماعة كوتريل (الذي تقدم ذكرهُ في هذا المقال) لتنفقهُ على سائر ما يحتاج اليهِ في اتقان هذا الجهاز ، لما أتيح لهُ ان يصل بحاسته الى مرتبة مكنتهُ من مجاراة الطبيعة بعض المجاراة ، وذلك بتوليد المواد المشعة على نمط الراديوم من مواد غير مشعة

ومن الحقائق التي يجهر بها العلماء وحكماء الحكام كالرئيس هوفر والرئيس روزفلت ان ما تجود بهِ الامم على دور البحث ، لا يبلغ عشر معشار ما تنفقهُ على البوارج والغواصات

(١) راجع مقتطف دسمبر ١٩٣٧ مقال « تهشيم الذرة » ص ٦٢٣ .

والطيارات والمدفع والغازات ، بل لا يبلغ معشار ما ينفق على المعجونات المطرية كل سنة

وقد قال عالم يدعى شنيدر وهو مدير معهد البحث في جامعة ستانفورد الاميركي ، ما ملخصهُ: وماذا في وسعنا ان نفعل اذا كان عندنا برنامج واف لبحث جدير بالعناية ، فتعجز عن المضي فيه اقلة المال ، انبذه ام نفعل كما فعل كولمبيكوس ، فنهارس التنجيم ، ام نحتذي حذو باستور فنشتغل لحساب الخمّارين . لقد بذلت الجهد في سبيل الفوز بالمال اللازم من الافراد والمؤسسات ومن ميزانية الحاسة نفسها ، فاخفقت . ولا اعلم ما تفعل الحاسات الاخرى ، ولكنني اعلم ان استدناء الاكفّ عمل شاق ، وعند ما أُردُّ احس اني اودُّ الارض أن تنشقّ وتبلعني

هذا بعض ما يقوله شنيدر . ولذلك عمد الى تسجيل بعض المكتشفات التي اكتشفها سبرتي Sperti ، لكي يجنى منها المال اللازم لمتابعة برنامج البحث الذي وضعهُ . ولو اتيح لهُ المال الذي يحتاج اليه ، لكان في ذلك غنى للانسانية ، ذلك ان سبرتي اجرى بحثاً دقيقاً في الطاقة على اساس من نظرية المقدار « الكوتم » فتوصّل الى اسلوب مكّنهُ من تخمير انواع معينة من الاشعة تولد فيتامين (د) في الطعام الحالي منهُ عند تعريضه لها . ولو لم يكن شنيدر وسبرتي في حاجة الى المال لمتابعة البحث ، لما سجّلا هذه الطريقة ، فكان في تسجيلها وبيعها لشركة معيّنة خسارة عامة

وليس بالعسير ان نعدد الامثلة . فالموقف الذي تقفه عامة الشعب من معامل البحث ومعاهد العلم العالي ، مشوب بروح من التعالي مردها الى هذا السؤال — وما الفائدة من كل هذا . بل ان هذه الروح لا تقتصر على عامة الناس ، وتتعداها الى فريق كبير من الخاصة فلا تحدثهم في الموضوع الا وترتسم على شفاههم بسمة ازدراء وتنطلق منها هذه الكلمات او ما هو شبيهٌ بها : ما الفائدة العملية ؟ وهم لو كانوا على المام يسير بتاريخ العلم لما كشفوا عن جهلهم بهذا السؤال ، ولا لكانوا وجدوا في جميع العجائب اللاسلكية فائدة عملية من معادلات مكسويل ؟ ولتذكروا قول فراداي عند ما ردّ على سيدة سألتهُ ما الفائدة بقوله : وما الفائدة من الوليد

ما الغرض من معاهد العلم العالي ومعامل البحث وما الصفة التي تربطها بالعالم . ان البحث عن الحقيقة بصرف النظر عن فائدتها العملية ، هو سرُّ وجودها وبقائها وصلتها بالاجتماع . ثم إن البحث العلمي يندمج في الفن او أن الروح التي تحرك الباحث العلمي والرجل الفني روح واحدة . فالعالم يقيس ، والفنان يبدع . ولكن كلاًّ منهما يعمل لا ليشبع رغبة الحيازة ، بل لكي يعمل ويتقن . كلٌّ منهما يحاول ان يعمل ما لم يعمل قبلاً ، وفي هذا ضرب من النزعة الفردية المتطرفة. وفي معاهد العلم العالي ، ومعامل البحث ، تربى هذه الطريقة من طرق التفكير والنظر الى الوجود والحياة . ولكن البحث العلمي لا يميل بصاحبه الى التطرف في النزعة الفردية فقط ، بل يفرض عليه قيداً من التضافر العالمي . ذلك ان العلم ليس مجموعة من الحقائق

المتحة والموهبة لخصب، بل هو اخوة دولية باخص معاني الاخوة ، فنتائج البحث في جميع ميادين العلم تجمع وتنشر بلا قيد ولا شرط ليأخذ منها ويستفيد بها من يستطيع . فالملك العام هو روح العلم او قل ان العلم هو الشيوعية الكبرى

واذن فيل الجامعات والمعاهد الى تسجيل المكتشفات الجديدة وتقييدها بقيود المكية الخاصة يخمد تلك الروح . ثم انهُ يفضي الى التكتم في النشر بدلاً من الصراحة ، وتصبح المعاهد العلمية ورجالها ، في حلبة يتنافسون فيها الى الكتمان بدلاً من ان يتنافسوا الى السبق في النشر واذاعة النور . وهنالك من الحوادث ما يؤيد هذا القول . فقد روي عن عالم بحاثة انهُ زار جامعة غير جامعته واطلع على بحث باحث شاب في موضوع من اختصاصه . فلو كانت تلك الجامعة من المعاهد الحرة ، لاطلع الاستاذ ذلك الشابَّ على ما يعلم في الموضوع ولافضى الاشتراك في الرأي الى خير كبير . ولكن تلك الجامعة كانت من المعاهد التي تسعى الى الكسب المالي من كل كشف يكشف فيها ، فامتنع الاستاذ عن الافضاء ، وكان العلم هو الخاسر

ويضاف الى هذا الخطر الموجه الى التعاون العلمي ، خطر آخر وهو ان العلم بأن مجلس الجامعة يجزي الباحث الذي يكتشف او يستنبط شيئاً منهُ فائدة مادية معجلة ، يؤثر في ذهنية فريق من الباحثين على الاقل ، فيصرفهم عن تناول المباحث الاصلية الاساسية ، الى الاهتمام بما يعلق به أملٌ في الربح المباشر . ولسنا في حاجة الى ترديد القول ، بأن البحث في الاصول هو ركن التقدم العلمي ، دون غيره . فالباحث في أسرار الكون والطبيعة والحياة ، يجب ان يكون حرًّا مطلقاً ، ان يسير في الطريق الذي يرى ، حرًّا في الاعتماد على مباحث غيره لانهُ يعلم ان في هذا الاعتماد لا يمكن ان يوصم برغبة الكسب الخاص . والاجتماع الانساني يمنح الجامعة ورجال البحث فيها هذه الحرية بلا حدّ ولا شرط ، وينتظر مقابل ذلك ، ان يهبَ الباحث نفسهُ لهذا المعنى العالي الذي أصبح ملازماً لمعنى الجامعة ، بلا حد ولا شرط كذلك

ان قرّاء سيرة بيير وكوري وزوجته مدري يعلمون ان موضوع الكسب المالي من مكتشفاتهما في ميدان الاشعاع والراديوم عرضت لهما تأبياً ، وقد اشارت مدام كوري في سيرة حياتها الى هذا الموضوع فقالت ما ملخصهُ ... « وكذلك ضحّينا بثروة كبيرة لاستغنائنا عن استغلال مكتشفاتنا . وقد زعم اصدقاؤنا اننا لو فعلنا ، لما خلفنا لأبنتينا مالاً نعتمدان عليه فقط ، بل لتمكنا من انشاء معهد للراديوم فلا أعاني في يحتي قلة ما في يديَّ منهُ . ومع ذلك أظن اننا كنا على صواب . أن الانسانية تحتاج ولا ريب الى الرجال والنساء العمليين . . . ولكنها في حاجة كذلك الى اصحاب الرؤى والاحلام ، الذين يسيّرون بقاسر خفيّ وراء رؤاهم واحلامهم فيبذلون الغالي لمصلحتهم الخاصة ... » ومن يشكُّ في ان مدام كوري كانت على حق !

١ — الحاجة الى زيادة المعرفة بالانسان

الانسان المجهول

د. اسماعيل مظهر

تمهيد

في سنة ١٩٣٥ ظهر للعلامة « الكسيس كارل » كتاب عنوانهُ « الانسان المجهول » احدث في دوائر الثقافة العالمية أثراً ، لسنا لا نخطىء إذا قلنا إنهُ لا يقل عن الأثر الذي خلفتهُ مؤلفات قلائل ظهرت في خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

ولعل ذلك الأثر العميق راجع الى ان الكتاب شامل الاغراض ، غير مقتصر على ناحية بعينها من نواحي العلم بالانسان . فهو ان قام في اساسه على فكرة اجتماعية ورمى الى اصلاح اجتماعي ، فان بحوثه قد قامت على دعامة من علم الاحياء — Biology — والى تأملات فلسفية استخلصت من العلم بطبيعة الانسان ، علماً اقل ما نصفه به انهُ عميق كل العمق ، واضح كل الوضوح . والجمع بين العمق والوضوح ، صفة قلما يمتاز بها كاتب تشبعاً عالماً وربي عالماً والف والنزعة العلمية تكتنفهُ والاسلوب الاستقرائي يقوم من وراء كل ما حصل من علم بالانسان الذي قصر ذلك الكتاب على بحث النواحي المجهولة من حياته ، تلك النواحي التي يعتقد ذلك العلامة الفاره انَّ العِلْمَ بها ينبغي ان يتخذ اساساً لاصلاح حالات الاجتماع . وكأنهُ يريد بذلك ان يقول ان الجهل بالانسان قد اقام النظامات والمعاهد الحاضرة على اساس بعيد عن ان يكون الاساس الامثل ، وسلك بالاصلاح الاجتماعي نهجاً بعيداً عن ان يكون النهج الواضح السوي

أضف الى ما تقدم ان الكتاب في مجموعه نتيجة لظاهرة ثقافية نذر ان تقع عليها في كتاب آخر من الكتب التي عالجت الانسان وحالاته . فقد لابس الكتاب روح فلسفية عالية ، ولكنها روح فلسفية قامت على العلم ، بقدر ما بعدت عن التأمل والفرض . بهذا تحررت من المذهبية ووجهت كل قوتها الى تحرير الفكر وتنوير الذهن ، ولاحت عليها سمات الهدوء الذي يكمن من ورائه كل ما في الثورة من قوة الشك ، ورمت في اول ما رمت اليه الى القضاء على كل ما اناخت به الفلسفية وعمل له الفلاسفيون من المبادىء التي افسدت الاجتماع الانساني

فلا عجب اذا فكر الاستاذ محرر المقتطف في ان يُلخِّص الكتاب في مقالات تظهر متتالية على صفحات المقتطف ، ولا عجب إذا لبث دعوته ، راجياً القراء ان يتمهلوا بالصبر على تفهم مبادىء ومشاكل ، هي في الواقع اقرب اليهم من حبل الوريد . مبادىء ومشاكل موضوعها الانسان ، وكفى بذلك دليلاً على جلالة الموضوع واثره البالغ

١ —

تقدم علم الاحياء ابطأ من تقدم
علم المادة الجامدة ؛ جهلنا بانفسنا

ان بين علوم المادة الجامدة، وعلوم الأحياء ، لتفاوتاً كبيراً يحملنا على العجب والتأمل . فعلم الفلك وعلم الآليات وعلم الطبيعة ، قامت جميعها على تصورات يمكن التعبير عنها تعبيراً دقيقاً قويًّا بلغة مستمدة من علم الرياضيات . ولقد اقامت هذه العلوم كوناً فيه من الألفة والتجانس ما نأنس في الآثار الجميلة التي خلَّفها إغريقية القديمة ، ونسجت من حول ذلك الكون شبكة باهرة من التقديرات والفروض ، كما عمدت الى البحث عن الحقيقة في عالم يقع من وراء ذلك العالم الذي نحوم فيه الفكرات العادية ، فدلفت إلى مجرّدات قوامها معادلات مكونة من رموز . أما علوم الاحياء ، فالحال فيها على خلاف ذلك . فان الذين يعالجون البحث في ظاهرات الحياة ، يحسُّون كأنهم في تيه غامض مبهم ، او كأنهم في حرجة سحرية مغلقة المسالك ، لا تستقر أشجارها في مكان ، فهي دائمة التنقل ، ولا تبقى على صورة واحدة ، فهي دائمة التغيُّر . يحسون ان كواهلهم تكاد تنوء بأثقال من الحقائق . حقائق يستطيعون ان يعدوها ، ولكنهم عاجزون عن تحديدها وتصريفها ، بافراغها في معادلات جبرية

من الاشياء التي نصادفها في عالم المادة ، كالذرات او النجوم او الصخور او السحاب او الصلب او الماء ، أمكن استخلاص بضعة صفات عامة تشملها جميعاً ، كالحجم والامتداد في الفراغ . وهذه المجردات ، لا الحقائق الجامدة ، هي موضوع التفكير العلمي . فان مشاهدة أشياء الطبيعة ، والاقتصار على المشاهدة وحدها ، انما يكوِّن صورة من العلم دنيئة بذاتها وطبيعتها ، تلك هي الصورة الوصفية من العلم . فالعلم الوصفي يصنِّف الظاهرات . أما العلاقات الثابتة الدائمة بين الكميات المتغيرة ، وبالحري السنن الطبيعية ، فلا تلوح في أفق العلم ، الاَّ عند ما تزداد صفة التجريد فيه . ومن أجل ان علوم الطبيعة والكيمياء علوم مجردة ، وهي فوق ذلك كميَّة ، اي تتعلق بالكميات ، أصابها النجاح السريع الباهر . وبالرغم من ان هذه العلوم لا تدَّعي القدرة على الكشف عن غائيات الاشياء ، اي عن الطبيعة النهائية للاشياء ، فانها تزوِّدنا بما نستطيع به ادراك حوادث مستقبلة ، وان نعين باختيارنا في الغالب أوجه حدوثها . وبدرس سر المادة وتكوينها وخصيصاتها ، أمكننا ان نسيطر على كل ما هو موجود في كرة الارض، اللهمَّ الاَّ شيئاً واحداً : هو أنفسنا . إن علم الاحياء، على الجملة، وبخاصة ما تعلق منهُ بالفرد من بني الانسان ، لم يتقدم بمثل

تلك الخطى الكبيرة . انهُ ما يزال في الطور الوصفي من درجات العلم . والانسان كلٌّ بالغ التعقيد لا يمكن تجزئته . ولا يستطاع ان يمثل لهُ بشيء بسيط التكوين . وليس لدينا من أسلوب يمكننا من ادراكه دفعة واحدة في مجموعه وفي اجزائه وفي علاقاته بالعالم الخارج عن حيِّزه . ومن اجل ان نحلِّل اقسامًا ، ينبغي لنا ان نلجأ الى وسائل علمية شتى ، وان نستخدم ، ، بناء على هذا ، علومًا متفرقة . وطبيعي ان تلك العلوم تختلف من حيث التصورات المتباينة التي تكوِّنها في درس الموضوع العام الذي تكفف على درسه . فهي لا تستخلص من الانسان الاَّ ما في مقدورها ان تستخلص منهُ بأساليبها الخاصة . وما تستخلص تلك العلوم ، وبلغة الفلسفة ما تجرد ، من الانسان ، يظل حتى بعد ان يضم بعضهُ الى بعض ويفرغ في قالب كامل ، أقلَّ غناء من الحقيقة الجامدة . فلا شكَّ في انها تختلف من وسائلها حثَّالة او بقية ، هي بطبعها اعظم من ان تهمل . فالتشريح والكيمياء وعلم الوظائف وعلم النفس والتربية والتاريخ والاجتماع والاقتصاد السياسي ، جميعها لا تستغني موضوعها درساً . فالانسان كما يعرفه الاخصائي ، بعيد عن ان يكون بذاته الانسان الحقيقي . انهُ ليس اكثر من صورة تتألف من صور أخرى تقيمها الوسائل العلمية الخاصة بكل علم على حدته . فهو عند المشرح تلك الجيفة التي يقطعها اربًا ، وهو الوعي والشعور عند العالم النفسي والقائلين بالحياة الروحانية ، او هو الشخصية التي يظهرها الاستبطان لكل انسان ، قارَّة في صميم ذاته . وهو عند الكيميائي تلك الجواهر الكيميائية التي تؤلف الانسجة واخلاط البدن . وهو عند الوظائفيّ (العالم بالوظائف) تلك المآثر الباهرة من الخلايا والدوائل المغذية التي يعكف على درس قواعدها وأسسها . وهو عند رجال الصحة والمربين ، إما تلك الانسجة المركبة ، واما تلك القوة الشاعرة الواعية ، التي يحاول هؤلاء بجهدهم ان يرفعوها الى السمت الاعلى من التطوُّر والنشوء على مرِّ الازمان . وهو عند أهل الاقتصاد ذلك « الانسان الاقتصادي » Homo economicus : الذي ينبغي لهُ ان يستهلك ، على التوالي وبغير انقطاع ، تلك المصنوعات التي يؤدي استهلاكها الى بقاء الآلات التي استعبدتهُ وردته رقيقاً ، تعمل الليل بعد النهار . لم يبق الانسان في اعتبارنا ذلك الكائن البالغ التعقيد الذي تحلله الوسائل العلمية لا غير ، بل هو فوق ذلك الشاعر والبطل والقديس . هو تلك الميول والخواطر والآمال التي تسوق الانسانية . لقد امتزجت تصوراتنا عن الانسان بالغيب وما بعد الطبيعة . لقد قامت هذه الاشياء عامة على أسس يعوزها الضبط والتحديد ، حتى لقد أصبح الاغراء في اختبار أيها يَلَذُّ لنا ، عظيماً قويًّا . لهذا نرى أن فكرتنا في الانسان تختلف بمقتضى مشاعرنا ومعتقداتنا . فالماديّ والروحاني كلاهما يقبل التعريف العلمي الذي يحدد بلمحة من كلوريد الصوديوم ويؤمن به . ولكنهما يختلفان أزاء الانسان . والفنان الذي يؤمن بالمبدإ الآليّ ، لا ينظر الى الكائن الحي نفس النظرة التي يراها الفنان المؤمن بالمبدأ الحيوي (أي الروحاني) .

فالكائن الحي الذي يراه « جاك لوب » يختلف جُهدَ الاختلاف عن ذاك الذي يراه « هنز دريش » . ولا شبهة في ان الانسان قد بذل جهداً جباراً لكي يعرف ذاته . وعلى الرغم من أننا نملك كنوز المشاهدة التي استجمعها العلماء والفلاسفة والشعراء والمُتأمِّلون على مدى الاحقاب والدهور ، فاننا لم نفقه الا بعض نواحي خاصة من أنفسنا ، ولم ندرك الانسان في مجموعه . عرفناه شيئاً مكوَّناً من أجزاء مستقلة . وحتى تلك الاجزاء قد خلقناها بأساليبنا . فكلٌّ منا انما هو بمثابة جمهرة من الخيالات والاشباح ، تستقر في جوفها حقيقة مجهولة .

والواقع ان جهلنا عميق . فان اكثر المشكلات التي تقوم أمام اولئك العاكفين على درس الانسان تظل بغير حلٍّ مرضٍ . فان آفاقاً واسعة من عالمنا الداخلي لا تزال مجهولة . فكيف تتحد جزيئات الجواهر الكيميائية لتؤلف أعضاء الخلية المعقدة؟ كيف أن المورِّثات (Genes) التي تكون في نواة البُيَيْضَة الملقحة تعين خصائص الفرد الناشيء من تلك البيضة ؟ كيف تنظم الخلايا انفسها بجهدها الذاتي في جماعات فتكون انساجاً أو اعضاء؟ ومثل الخلايا في ذلك كمثل النمل والنحل ، لكل منها سرعة تامة بالدور الذي ينبغي لها أن تمثله في حياة الجماعة . في حين أن قدرتها الآلية الخفية عليا تمكنها من ان تبني كائناً عضويًّا ، إذ هو معقد، تراه بسيطاً . وما هي طبيعة بقائنا ، أي حقيقة أعمارنا ، من حيث الزمن النفسي والزمن الوظائفي ؟ نحن انما نعلم اننا تركيب من الانسجة والاعضاء والسوائل والوعي . غير أن العلاقة بين المخ والوعي ، لا تزال سرًّا ، واننا لعلى جهل كامل بوظائف الخلايا العصبية . والى أي حد في مستطاع قوة الارادة أن تكيف من حالات الكائن الحي؟ وكيف يتأثر العقل بالحالة التي تكون عليها الاعضاء؟ وعلى أية صورة تتغير الخصائص العضوية والعقلية متأثرة بأسلوب الحياة وبالجواهر الكيميائية التي يتضمنها الغذاء ، وبطبيعة الاقليم وبالنظامات الوظائفية والادوية ؟

بعيد علينا أن نعرف ما هي العلاقات القائمة بين الهيكل والخلايا والاعضاء ، وبين اوجه النشاط العقلي والروحي . نحن على جهل بتلك العوامل التي تستحدث التوازن العصبي ومقاومة التعب والاجهاد ومقاومة الامراض . نحن على جهل بالطريقة التي تسَّير بها في انفسنا صفات الحس الادبي ودقة الحكم والشجاعة . وما هي القيمة النسبية القائمة بين النشاط الادبي والعقلي والميول التأهبية ؟ وما هي قيمة الحس بالجمال والحس بالدين ؟ وما هو نوع تلك الطاقة التي تحدث الاتصال الفكري وتنقل الافكار بين الافراد ؟ ومما لا شك فيه أن هنالك عوامل وظائفية واخرى نفسية تقدر السعادة أو الشقاء ، النجاح أو الفشل . ولكننا لا نعلم ما هي . اننا لا نستطيع أن نهيء فرداً من الافراد بالقدرة على بلوغ السعادة ، كما اننا لا نعرف اية بيئة هي السبب البيئات ليبلغ الانسان في ظلها الحد الاعلى من التطور والنشوء باعتباره كائناً مدنيًّا . أفي مقدورنا ان نكفَّ الصراع والجهد والألم عن أن تعمل في كيانا الوظائفي والنفسي ؟ كيف نستطيع ان نحول بين

الانسان وبين الفساد في المدنية الحديثة؟ اننا نستطيع ان نضع كثيراً من الاسئلة الجوهرية في مسائل من أخص ما يتعلق بمصالحنا ؛ ولكنها ستظل بغير جواب . وظاهر جلي أن كل مستحدثات العلوم التي اتخذت من الانسان موضوع درس وتحقيق ، قد ظلت غير كافية ، وان علمنا بانفسنا لا يزال من البدائيات

٢ — جهلنا انما يرجع الى اسلوب الحياة التي عاشها أسلافنا ، وإلى تعقد تركيب الانسان ، وإلى تكوين عقولنا

قد يعزى جهلنا ، مع ما تقدم الى اسلوب الحياة التي عاشها اسلافنا ، والى تعقد طبيعتنا ، والى تكوين عقولنا . كتب على الانسان ان يبتدئ اول شيء . والحاجة الى العيش تطلبت غزو العالم الخارجي ، اي العالم المحيط بنا . كان لزاماً ان نحصل على القوت والحماية . وان نقاتل الوحوش ، كما نقاتل غيرنا من الناس . ولقد ظل اسلافنا عصوراً متطاولة لم تتح لهم الفرصة ، ولا عرض لهم الميل لدرس أنفسهم . ذلك بأنهم قد صرفوا ذكاءهم في نواحي اخرى ، كصناعة الاسلحة والادوات واستكشاف النار وتدجين البهائم ، والحيل منها خاصة ، واختراع الدولاب (العجلة) ، وزراعة الحبوب الى غير ذلك . وقبل ان يحس اسلافنا ميلاً الى البحث في تكوين جسومهم وعقولهم بأزمان طويلة ، انصرفوا الى التأمل في الشمس والقمر والنجوم والمدّ وتغير الفصول . ولقد تقدم علم الفلك تقدماً كبيراً في ازمان كان علم الوظائف فيها من الاشياء المجهولة كل الجهل . آية ذلك ان « غليليو » قد رد الارض من مركز للكون ، سياراً صغيراً حقيراً تابعاً للشمس ، في حين ان معاصريه لم يدركوا اوليات العلم بشيء من تركيب الدماغ وخصائصه او الكبد او الغدة الدرقية . وكما ان تركيب الانسان العضوي يستمر هائلا بغير ان يصيبهُ اضطراب ما ظلت حالات الحياة ملائمة لهُ ، كذلك العلم ، فانهُ سار في الناحية التي لاءمت ناحية التطلع في الانسان ، اي الى العالم الخارجي

بيد فترة واخرى ، ومن بين البلايين العديدة التي تناسب وجودها على الارض من بني الانسان ، برز أفراد قلائل خصوا بقوة نادرة ، وهيئوا بقدرة غير عادية ، وخصوا بالهام يستظهر المجهولات ، وتصور يخلق العوالم الجديدة ، وكفاية تمكنهم من كشف العلاقات القائمة بين ظاهرات معينة . وكان من نصيب هؤلاء ان يستكشفوا الكون المادي . والكون المادي بسيط التركيب . لهذا تراه قد خضع وشيكاً لهجمات العلماء وأفضى اليهم ببعض من النواميس . ولقد مكنتنا المعرفة بتلك النواميس ، من ان نستخدم عالم المادة في قضاء مصالحنا . وتطبيق المستكشفات العلمية تطبيقاً عملياً شيء مربح لاولئك الذين يمارسونهُ . فانهم يسهلون البقاء للجميع ، ويرضون الجماهير بأن يزيدوا من راحتهم وهناءتهم . ومما من شك في ان كل فرد قد اصبح بحكم طبيعته اكثر تطلباً الى المخترعات التي تنقص مقدار الجهد الانساني وتقلل من اعباء العمل على

العامل ، وتزيد من سرعة الاتصال والتنقل ، وتلطف من خشونة الحياة ، سبلٌ الى المستكشفات التي قد تلقي بعض الضوء على المشاكل المعقدة التي تتعلق بتكوين جسومنا او حقيقة الوعي فينا . هذا نرى ان غزو العالم المادي ، ذلك الغزو الذي استفد كل انتباه الناس واستحوذ على ارادتهم ، قد ادى الى ان يظل العالمان العضوي والروحاني مهملين كل الاهمال ، مستخفين كل استخفاء . وفي الحق ان علمنا بما يحيط بنا من الاشياء كان ضروريًّا ، ولكن علمنا بطبيعتنا قد ظهر لنا اقل استجابة لمصالحنا المباشرة وفوائدنا المنحة . ومع هذا كله فان المرض والالم والموت ، وفوق ذلك الآمال الغامضة التي عقدناها في قوة خفية تتسلى على كل ما في الكون المتطور وتهيمن عليه ، عامة اذا وجّه انتباه الانسان بقدر ما ، الى العالم الداخلي القار في جسومنا وفي عقولنا . ففي اول الامر حصر الطب همه في مسألة عملية ترمي الى شفاء المريض بوسائل تجريبية . ولقد حقق الطب ، ولكن حديثاً ، ان اشل الطرق في منع الامراض او علاجها هو ان يعرف الانسان ، معرفة تحقيق ، طبيعة الجسم في حالتي الصحة والمرض ، فاضطر الى تكوين تلك العلوم التي تسمى التشريح والكيمياء الحيوية والوظائف والامراض . ومع هذا فان سر وجودنا ، والآلام الادية ، وشهوتنا الى استجلاء المجهول ، والظاهرات النبيهة ، كل هذا قد ظهر لنا اعظم شأناً من الآلام الجسمية والامراض . ودرس الحياة الروحانية والفلسفة قد اجتذبت لناحيتها عدداً من الباحثين اعظم مما اجتذب الطب . ومبادىء التأله وطرائقه قد عرفت قبل ان يعرف علم الوظائف . غير ان مثل هذه المبادىء لم تر النور الاّ بعد ان نشأ في الانسان ميل كافٍ وجّه انتباهه الى اشياء اخرى غير غزوة العالم المادي

هنالك مؤثر آخر قد يعزى اليه السبب في بطء التقدم الذي نال معرفتنا بانفسنا . فان عقلنا قد ركّبت بحيث يهيم بالتأمل من الحقائق الثانية . وانا لنشعر بنفور من ان نهاجم مشكلات معقدة كتكوين الكائنات الحية او الانسان . فالقوة العاقلة ، كما قال « برجسون » قد اختصت بضعف طبيعي ينشأ من ادراك سر الحياة . وعلى العكس من ذلك ، نرى اننا نحب ان نكشف من الكون عن تلك الصورة الرياضية الهندسية التي تستقر في اعماق وعينا . فان ما في آثارنا القديمة والحديثة من اثر الضبط وطابع الاتقان ، وما في آلاتنا من مجالي الدقة ، كلها اشياء تعبّر اصدق تعبير عن حقيقة عقلنا . ان الهندسة لا وجود لها في طبيعتنا الارضي . لقد خلقت في ذهننا . وأساليب الطبيعة لن تبلغ من الدقة مبلغ الاساليب البشرية . فاننا لا نجد في الطبيعة ما يشبه ذلك الضبط وذاك البهاء ، الذي نأنسه في افكارنا . لهذا نحاول ان نجرّد من تعقيد الظاهرات قليلاً من النظامات البسيطة التي بين بعض اجزائها المؤتلفة ، وبعض علاقات تخضع للتبيان عنها بطريقة آلية . والى قوة التجريد في العقل الانساني ، يرجع ذلك التقدم الباهر في علمي الطبيعة والكيمياء . ولقد كان لهذا النجاح مثيل في درس الكائنات الحية درساً قائماً على اساس طبيعي كيميائي . ونواميس

الكيمياء والطبيعة واحدة سواء اني الاشياء الحية ظهر أم في الاشياء غير الحية ، على ما قال « كلود برنار » من قبل . ونقدتين تا هذه الحقيقة لم تكشف علم الوظائف الحديث مثلاً عن ان استمرار تلوية الدم وماء البحر ، انما ترجع في كلتا الحالتين إلى نواميس واحدة. وان الطاقة التي تبذلها العضلة المنقبضة يحدها تحتز السكر في الجسم ، الى غير ذلك . ان في بحث المظاهر الطبيعية الكيميائية في الانسان من السهولة والبساطة ما في بحث الاشياء الاخرى التي يتضمنها عالمنا الارضي . وتلك هي المهمة التي يحسن علم الوظائف العام في الاضطلاع بها

ان بحث الظاهرات الوظائفية الصحيحة — اي تلك التي تنشأ من نظام المادة الحية — تواجههُ عقبات أعظم من العقبات التي تواجه غيره من البحوث . فان الاشياء موضوع البحث والتحليل في هذا العلم اذ هي صغيرة جهد الصغر ، يتعذر علينا ان نتخذ الادوات العلمية في الطبيعة والكيمياء ذريعة لبحثها . فأية أداة من أدوات العلم وأجهزته في مستطاعها ان تظهرنا على التكوين الكيميائي لنواة الخلية التناسلية او صبغياتها — Chromosomes والمورثات التي منها تتكون تلك الصبغيات ؟ ومع هذا فان هذه الكتل الدقيقة المكونة من جواهر كيميائية لذات خطر عظيم . ذلك بأن فيها يكمن فرد الغد ، وسلالة المستقبل . وكذلك حشائش أنسجة معينة ، كمادة الانسجة العصبية ، فإنهُ يتعذر عليك ان تدرسها في حالة الحياة . وليس لدينا من وسائط علمية تخترق صميم المخ فتصل الى أسراره ، والى تآلف خلاياه ونسجها . ان عقلنا ، ذلك العقل الذي يحب الجمال الساذج الذي يأنس في المعادلات الرياضية ، ليحار ويبهر اذا ما مضى يتأمل تلك الكتل العظيمة المكونة من خلايا وأخلاط ووعي ، تلك التي يتألف منها الفرد الحي. لهذا نجهد انفسنا في ان نطبق على هذه الاشياء المركبة ، تلك التصورات التي اتضح انها مفيدة في الكشف عن غوامض الطبيعة والكيمياء والآلة ، والمذاهب الفلسفية والدينية . غير أن مثل هذه المحاولة لم تنجح نجاحاً كبيراً ، لاننا لا يمكن أن نرتد الى مجرد نظام طبيعي كيميائي ، ولا إلى شخصية روحانية لا غير . وطبيعي ان علم الانسان عليه أن ينتفع بكل التصورات التي كونتها العلوم الاخرى . ولكنهُ بجانب هذا ينبغي له أن ينشئ من تصوراته الخاصة . لأن ذلك العلم جوهري كعلم الذرات والجزئات والكهيربات

وعلى الجملة فإن بطء التقدم في المعرفة بالانسان ، قياساً بالارتقاء الباهر في علوم الطبيعة ، والفلك والكيمياء والآلة انما يرجع الى نقصان الميل في اتجاهنا الى بحثه ، والى تعقد الموضوع ذاته ، والى تركيب عقولنا . وهذه ولا شك عقبات كبار ، فوق أنها جوهرية . ولا أمل لنا في التخلص منها . انها عقبات ينبغي لنا ان نستقوى عليها بالجهد المتواصل . وعلينا بأنفسنا لن يبلغ حد السهولة المحببة والجمال والتجريد الذي نجده في علم الطبيعة . والعوامل التي سيبت تأخره ، سوف تبقى ولا تزول . وعلينا ان نفقه ان علم الانسان هو اصعب العلوم جميعاً

حكم انكليزية ويابانية

يهزل الحسود اذا سمن جاره
كلمة الصادق حجة
قد تخرب ساعة ما عمر في جيل
درهم من الحكمة خير من رطل من الذكاء
يبدأ الكذوب بخداع غيره وينتهي بخداع نفسه
الجمال بلا طهارة كمر في حق من ذهب
الحصاة والجوهرة سيان في نظر الاعمى
لا تثق بصديق يعاديك ثم يصالحك
خير للانسان ان يحسد من ان يُرثى له
من كان ضميره مطمئنا نام والرعود تقصف
في الجدال الطويل يضيع الحق
الاعتدال هو السلك الذي يضم سلسلة الفضائل
كثيرون يقبلون اليد التي يريدون قطعها
ليس الجود الطاء بسخاء بل بحكمة
الفوز للفئة الصغرى اذا كانت على حق
اذا عرفت نفسك لم يجهلك أحد

***

اشتم جارك واحفر قبرين
تبديد الضباب بالمروحة محال
بناء جسر يصل الى السحب محال
غرف البحر بالصدفة محال
الكلب جسور عند باب صاحبه
الشاعر يرى العالم اجمع وهو في بيته
عرش الآلهة على جبين الصديق

مصنع المثل الاعلى

للعين الريحاني

ان للحياة ، على تنوع اسبابها واغراضها ، وعلى اختلاف درجاتها في المدنية ، مثلاً اعلى ، كبيراً او صغيراً ، هو الضامن لسلامتها ورقيها ، وهو الضامن لدوامها . وان لهذا المثل الاعلى عوامل شتى تبدأ بفكر المصلح والمخترع ، وتتدرج في هذا الزمان الى افكار ارباب العمل والمال

أما الفكر فلا كيان له يذكر بدون الالف باء والصناعة التي تخلّد الالف باء . فهو يتجسد في الاولى ، ويتخذ من الثانية اجنحةً للطيران . وبكلمة اخرى اقول ان الفكر البشري ، في نشوئه وتطوره ، وفي ارتقائه وانتشاره ، هو ابن الطباعة ، وهو كذلك سيدها

فقد بدأت الطباعة بالحرف الخشبي والمطبعة الصغيرة اليدوية في منتصف القرن الخامس عشر ونمت بعد ذلك على سنة النشوء والارتقاء ، فاصبحت المطبعة في تعدد اقسامها وادواتها ، وفي عملها الآلي الذاتي ، كالانسان ، لا ينقصها غير الفكر المولّد المخترع . بل هي في عملها العجيب ، وان كان محدوداً ، ترى ولا عين لها ما لا يراه الانسان ، وتعمل ولا يدّ لها ما لا يستطيع عمله ، وتضبط فوق ذلك عملها ، ولا فكر لها ، ضبطاً تامًّا تعجز دونه اليد البشرية

هو الفكر — اعود الى اوليتي — فكر الانسان المخترع . فقد جاءنا ، بعد اربعمئة سنة من الاختراع الاوّل ، بأعظم آلة للطباعة واعجبها حتى اليوم . هي منضدة اللّينوتيب . ومعنى اللينوتيب سطرٌ من الاحرف line of type فمن الحرف المفرد الذي كان الاساس في التضيد تدرجنا الى السطر المفرد ، ومن صندوق الحروف انتقلنا الى بودقة الرصاص لسكب الحروف . هو ذا الاوج الذي ادركتهُ الطباعة في هذا الزمان

لست بميكانيكي ، ولا علم لي بالميكانيكيات . ولكني اقف دهشاً مسحوراً امام آلة عجيبة كما اقف امام صورة زيتية لشهير من المصورين . ولقد سحرتني منضدة اللينوتيب التي تكاد تكون عاقلةً رشيدةً كالانسان العاقل الرشيد ، هي آلة كبيرة كثيرة العوامل والاسباب ، ولكنها للعامل بها بسيطة في عملها بساطة الالف باء . وفيها مع ذلك اسرارٌ تنشرها وتطويها ، وآيات ينطق بها

الجديد . ان لها في الحديد مئة يد ، ومئة عين ، تعمل جميعها ، بنظام يفوق التصور ، عمل العجيب

ومن اعجب ما فيها المثلي والقراء غير الميكانيكيين الطريقة التي تلي بها المنضّد الناثر على مفاتيح الالف باء البادية امامه . فهي ترسل الاحرف من مستودعها وتصفها صفًّا متساوياً متراصًّا متقناً كل الاتقان . وهذا السطر من الاحرف ، بكلماته وفواصلها ، يمشي بعد ان يتم الى قالب يقف به امام الباب او المنفذ الذي يتصل ببودقة الرصاص المصهور ، فيجري سائل الرصاص منها وينصبّ في الامهات المجوفة احرفاً بارزة . ثم يخرج السطر قطعةً واحدةً جامدةً نظيفة مصقولة ويسقط مكانه من عمود الجريدة او صفحة الكتاب . السطر الفرد بدل الحرف الفرد هو اليوم اساس التضيد . واعجب مما ذكرت الطريقة التي تعاد بها الامهات الى المستودع ، وتوزّع آليًّا بعمل ذاتي كما يوزع المنضد الحروف في الصناديق . على انها في عملها اسرع جدًّا منهُ واكثر تدقيقاً . فهي ترسل كل حرف الى بيته وقلما تخطىء . آلة عاقلة رشيدة ، اختراع مدهش عجيب !

هذي هي منضدة الدّيتو تيب التي يجلس اليها العامل كما يجلس الى آلة الكتابة ، فيلقنها الالف باء — الالف باء التي يتكون منها الفكر لخدمة الانسان ، بل لنشر المثل الاعلى في حياة الانسان وحياة الامم

المخترعان الايطاليان

منذ اربعمئة سنة ، بعد ان اخترع غوتنبورغ مطبعته اليدوية وحروفه الخشبية ، كان الرهبان وطائفة صغيرة من العلماء خارج الاديرة يشتغلون وحدهم بغير ذلك الاختراع . اما اليوم فالمنضدة العظيمة هي شبيهة بالآلة ينثر خيره في الناس جميعاً وفي اقطار العالم المتمدن جمعاء . والفضل في الاختراع الثاني ، مثله في الاختراع الاول هو لرجل الماني . ان قصة الاول لمن صفحات التاريخ المعلومة . سأقص اذن قصة الاختراع الثاني ، وهي تبدأ في المجلس النيابي الاميركي بواشنطون

ولا عجب . فالكلام حياة المجالس النيابية في العالم . والنواب ، اميركيين كانوا او شرقيين لا يشتهرون الاّ اذا اكثروا الكلام ، واحسنوا منهُ ما يدعى بالمركب المفيد . الاّ ان الكلام النواب ، مركباً كان او غير مركب ، مفيداً او غير مفيد ، حق الخلود في سجلات الحكومة . اجل ، يجب ان يسجّل . ومن يستطيع من كتّاب المجلس ان يتبع الناثب الفصيح اذا ما طفق يتدفق بالكلام ! عوناً نوابغ العلم والاختراع . عونكم ، او تضيع درر الفصاحة والبيان والحكمة

جاء المخترعون بلغة الاختزال ، فاستطاع المختزل ان يعدو والخطيب — هذا ينثر وذاك يلتقط — دون ان تُفقد غالية من غوالي الخطبة . على ان التسجيل في جريدة الحكومة الرسمية من اللزوميات ، فوجب على الكاتب ان يعيد كتابتهُ المختزلة بلغة يفهمها منضد الحروف ، وقد كانت الخطب تضّد يومئذٍ بالطريقة القديمة — حرف من هذا البيت ، وحرف من ذاك ، والصندوق

كثير البيوت والمحن . يالها من طريقة بطيئة مزعجة شاقة . أفنستطيع والحالة هذه ان نصدر الجريدة الرسمية كل يوم . الجريدة الغراء التي يترقبها النواب ترقب الصائم هلال العيد ، أيمكننا أن نباريهم في سرعة العمل وهم دوماً يخطبون ؟ ويغضبون اذا نقص من الخطبة كلمة واحدة . بل كان النائب الخطيب ، وهو يراجع مسودة خطبته ، يضيف اليها ما فات الكاتب منها ، ولاسيما تينك الكلمتين بين الهلالين (تصفيق حاد) في مواقفه الرنانة الفخمة ، اكراماً لمتخيليه في الاقل فيقرؤنها في جرائدهم المحلية ويهتفون : هذا نائب ! ويعيدون انتخابه للمجلس

على ان كتّاب الخطب مشوا عملهم المزدوج المزعج ، وكان مدير الجريدة الرسمية يتضجر من تراكم المواد في ادارته ، والنواب الخطباء يتسخطون على الجريدة لتأجيل نشر خطبهم الغراء . ولاختصارها في بعض الاحايين . ما العمل وما التدبير ؟ فكّر الكتّاب كتّاب المجلس ، بطريقة تريحهم من المحنة او تخففها . أليس من الممكن ان نطبع موادنا المخزلة مباشرة على آلة منضدة ؟ عونكم ، توابغ الاختراع . جال بعض كتّاب المجلس جولة في ميدان الاختراع وعادوا مخفقين

وفي تلك الايام ، اي منذ خمس وخمسين سنة ، كان في واشنطون شاب يدعى أطمر مُرغنثالر ، جاء من ورتمبرج بالمانيا ، يدفعهُ الطموح ، وتستفويه الشهرة والثروة . وكان لهُ ابن عم « ساعاتي » تقدمهُ الى البلاد الاميركية ، فاستخدمهُ في دكانهِ . ان في الساعات وأدواتها الدقيقة غذاء لعقل المخترع فبين كان « أطمر » يشتغل في الدكان كان فكره يجول في عالم الاختراع . وقد كانت المادة في عقل هذا الشاب شبيهة بتلك التي أثارت عقل ابن بلاده الذي تقدمهُ باربعة سنة ، اي المخترع الاول للطباعة جوهان غوتنبورج

سمع كتّاب المجلس النيابي بهذا الشاب ، وانهُ يخترع اختراعاً للطباعة جديداً . فجاءوا بهِ الى المجلس مستطلعين حقيقة الخبر ، فسروا بما علموا ، وساعدوا الشاب ادبيًّا ، ثم توفقوا الى من ساعدهُ ماليًّا . فأنتجت تجربانه في سنة ١٨٨٦ الاختراع الاول لمنضدة اللينوتيب

هو الحادث الثاني العظيم في تاريخ الطباعة

انما المبكر لايرضى بما كورة عمله ، ولا يقف المخترع عند حدٍّ في اختراعهِ . ان لكل اختراع قصةً في النشوء والارتقاء ، تبدأ بالفكر المولّد ، ولا تنتهي ما زال ذلك الفكر حيًّا متنبهاً مولّداً

اخترع مُرغنثالر منضدتهُ ، فتولت شركة صنعها وبيعها ، وظل الفكر المتنبه المولّد يحسّن فيها حتى أصبحت منضدة اليوم اذا قيست بالمنضدة الاولى كالطبعة الاسطوانية اذا قيست بالمطبعة البدوية . انما المخترع هو هو ، والمنضدة تحمل اسمه الذي اصبح خالداً مثل اسم مواطنه غوتنبرج . بيد ان الفرق بين الاثنين هو ان مرغنثالر أحرز في اختراعهِ فوق الشهرة مليون دولار

المانيان هما كوكبان في عالم الالفاظ المطبوعة ، وفي سماء الفكر المنشور . وان بين الكوكبين

مسافة لا تعد بين الكواكب طويلة . على انها في حياة المثل الاعلى — وبدون مجاز أقول : في تشرم وتسيمو — لا عجوبة من اعاجيب الزمان

فماذا عسى ان يكون من أمر الطباعة بعد اربعمائة سنة من عهدنا هذا، عهد اللاسلكي والطيران ؟

التحسين والتوافل

دع عنك الماضي والتكهن بما عسى ان يكون في المستقبل . ان للمثل الاعلى اليوم مصنعاً كبيراً في البلاد الاميركية . قد أسسهُ مصنع المثل الاعلى لا لما تقدم بيانه فقط — لا لانهُ من العوامل الكبرى في نشر المعارف ، وتعميم الثقافة — بل لانهُ مؤسس على مبدإ المثل الاعلى في الارتقاء الدائم الذي يشمل العامل والآلة والانتاج معاً

كان العمل في الماضي مؤسساً على قاعدة واحدة اولية هي قاعدة الارباح . وكان العامل في سبيل الارباح ، لاصحاب العمل وحاملي أسهمه ، كالآلة الصماء ، بل كالرقيق المكدود المكدود ، يعمل اثنتي عشرة ساعة في النهار براتب ضئيل ، ويعيش وعائلته في بيئة تعج من القذارة والفقر والجهل ، وما يصحبها من المآثم والامراض . فثار المصلحون الاجتماعيون على هذه الحال ، ولبث الحكومة تدريجاً مطالبهم او بعضها ، فشرعت الشرائع لتحسين العامل ، وتحسين أحوال العمال فيها . وقد أصبحت هذه الاصلاحات من الامور العادية المرعية في المعامل الاميركية . بيد أن هناك من التحسين ما لا تفرضهُ الحكومة ، وما قلما يخطر في بال المصلحين . هي توافل التحسين التي يقوم بها اصحاب المعامل من تلقاء انفسهم

ربَّ قائل قال : ليس الدافع لهذه التوافل مجرد الحب الانساني . هو قول معقول . فقد يكون الدافع لها حب التفوق الصناعي ، اي التنافس بين أرباب الصناعة الواحدة . وقد يكون الدافع لها رغبة الزيادة في الارباح . على انهُ في كلا الحالين لا يخلو من الحب الانساني الذي يوجبهُ المثل الاعلى في العمل، فيدخل على قلب ارباب المال العقيدة الاجتماعية الاقتصادية انهم والعمال اخوان وشركاء. هذي هي توافل التحسين التي لا تفرضها الحكومة ولا تحصر تأثيرها في الارباح المادية

وانك لتجد في المصنع الذي أحدثك الآن عنهُ شيئاً كثيراً منها . تعال نزره معي، فتشاطرني ولا شك السرور والاعجاب — اما في طريقنا الى القسم الاداري منه، وهذه الصور الزيتية على الجدران تمثل تاريخ الكتابة والصباغة ، منذ نقش الآشوريون سير ملوكهم وآلهتهم في الحجارة الى يوم كُتبت الكتب خطًّا على البردي ثم على الرق ، ومن عهد غوتنبورغ الخشبي الى عهدنا هذا الكهربائي

وها بوقك في الطابق الذي يحتوي على القسم الاداري هندسته الاورية القديمة . فالرواق فيه شبيه بأروقة الاديرة في القرون الوسطى . هو العلم والذكريات الجميلة لمهد العلم في اوربا

وهل للنجاح في الصناعة والتجارة غير العلم سبيلاً ؟ هاك الى جانبي رواق العلم شتى المكاتب

التي تقوم بشؤون العمل الادارية والتجارية . وفي احد هذه المكاتب يرحب الرئيس بنا ، ويصحبنا بدليل للطواف بالمصنع الكبير الكثير الدوائر والاقسام ، الذي يعمل فيه اثنا عشرة مائة من العمال رجالاً ونساء

ان دليلنا مدير الصناعات العام لفيلدوف حكيم . يحدثنا ، وهو يطوف بنا بيت عجائب الحديد والنحاس ، عن عجائب العقل البشري ، وأسرار الضعف والقوة في الانسان العامل ، والانسان المفكر . اني اذكر قوله : « المرء يميل طبعاً الى السهل من الامور . ونحن نسعى دائماً الى تسهيل العمل على الآلات ، ولازالة اخطارها » . وأذكر كذلك هذه الكلمات : « غايتنا الاولى هي ان نحوّل العمل من العضلات الى العقل » . سترى اذن كيف ان الاعمال اليدوية الشاقة اصبحت اعمالاً عقلية دقيقة مستحبة

سيرة الحرف الهجري

في كل ما اخترعهُ العقل البشري ، وصنعتهُ اليد البشرية ، لا اظنك تجد شيئاً صغيراً حقيراً كالحرف الواحد من احرف « الالفباء » ذا سيرة عجيبة كسيرته . فان في صنعه ، منذ يُرسم على الورق الى ان يصلب في الوجاق الكهربائي ، يفحص بالناظور المكبر ، ويعطى الشهادة انهُ صالح لتوليد مليوناً مثله من الحروف ، ان في صنعه آية من آيات التقسيم والتنظيم والتوحيد في الصناعة . اجل ، ان هذا الحرف الواحد يمر في تكوينه على اثنين وخمسين عاملاً ، يعمل كلٌّ فيه عمله مهما يكن صغيراً ، وبدونه لا يتم

ها نحن في دائرة الرسامين وأكثرهم من الجنس اللطيف . هو الفصل الاول من السيرة المدهشة . فالحرف يرسم على الورق رسماً ضخماً هو اربعمئة مرة اكبر من الحجم العملي . وهذه الرسوم تُرسل الى دائرة الفن والتصوير للنظر والنقد ، فلا يخرج رسم منها وفيه نقص او خلل بالتناسب الفني

ثم تُرسل الرسوم هذه الى دائرة الحفر في النحاس ، وفيها آلات صغيرة صقيلة ، تديرها أيد نسوية نحيفة ، فيحفر الحرف على قطعة من النحاس ربع حجم الرسم حجمها . ان سر الضبط في هذه الآلات لعجيب . فليس على الفتاة ان تجهد غير عينيها بين ان يدها تحرك ابرة على الرسم كأنها تعيد رسمه . وهذه الابرة تتصل بأدوات محجوبة مركبة تركيباً دقيقاً بحسب الآلة الهندسية والرياضية ، فتحرك ابرة من الفولاذ على قطعة النحاس ، فينحفر الحرف مصغّراً ليكون حجمه ربع الحرف المرسوم وأربعين مرة اكبر من الحرف المطلوب . ثم يحفر ويجلى كل ما حوله فيبقى الحرف وحده نافراً على النحاس

بعد ذلك يرسل هذا الحرف النحاسي الى دائرة الامهات ، وهناك صف من الحسان ،

في اثواب من الحرير ، جالسات امام آلات صغيرة الحجم كبيرة السمن ، شبيهة اصلاً بالآلات التي تصنع الحروف النحاسية . وكل فتاة تحرك ابرةً امامها على حرف النحاس ، فتتحرك الآلة وتحفر في جوف اسرارها الحرف الصغير المطلوب الذي يدعى الطابع

ومن هذا الطابع البارز تصنع الامهات المجوفة . اي انهُ يستخدم لطبع الحرف في القطعة التي تدعى «الام» ، والتي تباع للطابعين . ولكن هذا العمل لا يتم بغير الضغط الشديد . لذلك يشوى الطابع في وجاق كهربائي حرارته الف وأربعمئة درجة (فارنهت) ثم يُغمس في الماء فيكتسب الصلابة وقد المناعة اللازمة لفعله ، فلا يتمدد في الكبس عليه ، ولا ينكسر تحت اثقال الادوات

أما «الام» التي تصنع من الطابع فهي كما اسلفت القول محفورة تجويفاً في قطعة من النحاس ذات اسنان وتجاويف اخرى لتمكن القطعة من القبض عليها واستخدامها في التثبيت ، وفي سكب الرصاص والتوزيع . وهذه الام ، قبل ان تصبح صالحة لطبع الجرائد والمجلات والكتب تمر كما قلت على اثنين وخمسين عاملاً كل يعمل فيها عملهُ الميكانيكي او الكيماوي او الفني . ان في هذه الدائرة خمسمئة عامل وعاملة ينجزون في الاسبوع الواحد مليوناً واحداً من الامهات

بقي ان اقول ان آخر الاعمال يقوم به الفاحصون او بالحري الفاحصات الجالسات وراء الناظور المكبر في خيم صغيرة ، فترى الفتاة الحرف الذي ينعكس على الزجاج واضحاً امامها ومن اغرب طرق الفحص وأسهلها ما تراه الى يمين الفاحصة والى يسارها . هناك زندان يتصلان بالآلة التي تدفع الامهات في احد طرفي الناظور فتنعكس في الطرف الآخر مكبرة امام الفاحصة فاذا كان الحرف سالماً من الشوائب حركت زند اليمين ، واذا كان فيه خلل حركت زند اليسار . فالحركة الاولى ترسله الى صندوق الانتاج الصالح للبيع ، والحركة الثانية تسقطهُ في صندوق آخر للاصلاح

قال المدير دليلي العالم بأخلاق الناس عمله بأسرار الآلات : لو «كان الفحص على غير هذه الطريقة ، او بالحري يدويًّا بالمكرسكوب ، لاستغرق الوقت الطويل ، ولكنَّا مضطرين مع ذلك ان نقيم الفاحصين على الفاحصات ، فلا يهملن او يتكاسلن في عملهن . اما وقد جعلنا طريقة الفحص مقيدة بهذين الزندين ، وحركة الواحد سهلة كحركة الآخر . فلا سبيل للتفضيل أو للتهاون . تستطيع الفتاة ان تحرك كليهما على السواء ، والباقي موكل بنظرها »

قلت : « ويضيرها » فقال : « اذا سهلت العمل استقام الضمير »

آلات تصنع آلات

لو حاولت ان اصور للقارئ صورة من الحيرة والانزعاج في عمل واحد ، بل من الافعال في العمل ومن العمل ، وأجمل الوحدة المتحدة محور الصورة كما ينبغي ، فتبدو الصلات في الاعمال

كانها الشرايين في الجسم البشري ، لكان العجز او الاجتهاد أظهر ما في الصورة . لذلك اكتفي بالاشارة الى النمل والى الافيال لأدل على ما في هذا المصنع من الاشياء الدقيقة والاشياء الضخمة . وس الدقة الصناعية والهندسية في كل عمل يتعلق بها ، كبيراً كان او صغيراً

لقد شاهدنا في معمل الامهات الحرف الذي هو كالنملة الصغيرة محفوراً في النحاس . فهب أن رجلاً من ارجل النملة كان مجروحاً فهل يُرى الجرح بالعين المجردة ؟ على ان الخلل في الحرف الصغير لا يقاس حتى بالجرح في رجل النملة . فهي بالرغم منهُ تمشي . اما الحرف المشوب بأصغر الشوائب فهو لا يمشي . وهو فوق ذلك يشوه سطراً في صفحة من الحروف ، وقد يقضي بتوقيف المطبعة . فاذا كان عالياً مثلاً فهو يخرق الصفحة ، او يبدو بين أقرانه وقد أُثقل حبراً كالسد الاسود بين ضفتين من البياض . واذا كان واطياً فلا تدركهُ المطبعة فيختفي . وكم ينبغي ان يكون مقدار الزيادة او النقص ليحسب خللاً ؟ ان الحرف الواحد ، كما تعلم اذا كنت منضداً او طابعاً ، هو جزء صغير من السطر الذي ينبغي ان يضبط «على الشعرة» كما يقال . وليس في القول مبالغة . فاذا كان الحرف عالياً او واطئاً او زائداً او ناقصاً في سمكه وعرضه وطوله ، جزئين من عشرة آلاف جزء من البوصة ، فهو غير صالح في نظر ارباب الصناعة ، فينبذ أو يصلح

وهل يمكنك ان تتصور مثل هذه الدقة في الصناعة ؟ اقسم البوصة الواحدة الى عشرة آلاف جزء ، ومثل لنفسك ان استطعت جزئين منها . فهذان الجزءان اذا زادا او نقصا في جسم الحرف يشوهانه صناعيًّا او فنيًّا ، فهو اذ ذاك لا يصلح للعمل

وهذه الدقة العجيبة ترعى في كل جزء من اجزاء المنضدة كبيراً كان او صغيراً . فضلاً عن ذلك ان الخلل الذي لا يدرك بغير النواظير المكبرة يؤثر في الآلة اجمالاً . فالضبط في عمل النملة اذن هو ألزم من الضبط في عمل الفيل . بل ان في هذا الضبط تستقيم الوحدة التي اشرت اليها ، والتي تجعل وظيفة الفيل بوظيفة النملة

بعد هذا البيان تنقل من بيت النمل الى بيت الافيال — من دوائر الحروف والامهات الى دوائر الآلات الضخمة الجبارة . ها هنا الحديد يفل الحديد ، والفولاذ يقطع الفولاذ ، والآلات المخوفة تصنع الآلات العجيبة . ها هنا تثم وتركب أجزاء المنضدة ، فتمر قطعة من الحديد صماء في آلة ضخمة يستطيع الولد أن يحركها بأن يضغط زرًّا أو يدير لولباً . ثم تخرج من الآلة وفيها الثقوب أو الاسنان ، أو الصقل أو التجويف أو الاضلع اللازمة لكيانها كجزء حي سويّ من أجزاء المنضدة . ولكل عمل في أحد الاجزاء آلة مخصوصة ، فينقل من الواحدة الى الاخرى ليدرك درجة الكمال . ثم تنقل الاجزاء الكاملة كلها الى بيت التركيب ، حيث تركب المنضدة تركيباً تامًّا ، يؤهلها للعمل الذي أسلفت بيانه

السكة المعلقة

قلت ان اجزاء المنضدة تنقل اثناء صنعها من آلة حائلة الى اخرى . وقد تنقل عشرين مرة في الطابق الواحد الذي يبلغ طوله اربعمئة قدم . على ان نقل هذه الاجزاء بالبد . ومنها ما هو ضخم ثقيل يختلف وزنهُ من القنطارين الى الاربعة القناطير ، يشغل عدداً كبيراً من اليدان ، ولا يخلو من خطر ، فضلاً عن البطء فيه والمشقة . فهي لذلك تنقل على العجلات ، وقد أُعدت لها سكة من حديد . هي الطريقة المتبعة المألوفة في المصانع الاميركية

اما العجيب في سكة هذا المصنع فهو انها معلقة في السقف ! فلو مدّت على الارض ضيّقت على الآلات ، وسببت الازدحام والتلبك . الازدحام — في الآلات او في عمالها — انما هو عدو النظام ، والنظام صفة ملازمة للاتقان ، وفي الاتقان الطريق المستقيم الى النجاح والارباح. اذن ، منمنع الازدحام ، وسنعلق السكة في سقف البيت

هي ذي آية اخرى من آيات العلم والاختراع — سكة في السقف من حديد ، وقد ابتدأت هناك بكلاليب الحديد . هي خطوط ذات أدوات رافعة تتصل بها ، وبخالب كاللاقط تتدلى منها لكل حبلان يدنو طرفاهما من الارض، فيشد العامل احدهما فتنزل الآلة الرافعة . وتقبض بمخالبها على قطعة الحديد التي يراد نقلها، ثم يشد الطرف الآخر فتصعد وقد حملت حملها ، وتسير به مدفوعة بقوة الكهرباء ، فتجري على العجلات فوق رؤوس العمال وفوق الآلات

هذا ما ارادهُ المدير دليلي بقوله ان الغاية القصوى في المصنع هي ان تتاض الاعمال العقلية السهلة عن الاعمال اليدوية الشاقة . وقد شاهدت في الطابق الثالث مثلاً آخر باهراً من هذه الامثلة. هنالك تُجمع وتركّب اجزاء المنضدة ، تنصف صفًّا من طرف المكان الى الطرف الآخر، الجزء يتلو الجزء ، كما يقتضي التركيب . فيبدأ العامل بفرش أرض المطبخة على مائدة ذات عجلات، ثم يشرع يدفعها امامه ، فيقف بها عند كل جزء يضيفهُ اليها حتى تتم المرحلة وتكمل المنضدة

وفي تركيب الاجزاء تُرعى الدقة الذي تقدم بيانها في الكلام على فحص الامهات . فالجزء يرتبط بالجزء بطريقة محكمة مضبوطة « على الشعرة » ولا مبالغة . بل ما دققت في التعبير . فهي تضبط حقيقةً على ورقة «السكارة» . هو ذا العامل والورقة الرقيقة بيده ، يضعها بين طرفي جزئين ويستلها، وهو يحكم ارتباطهما . وقد يقضي ساعة او ساعتين في هذا العمل حتى يتسنى استلال الورقة من بين الجزئين المتصلين مستحيلاً . ان هذه الطريقة في الضبط تقاس بقسمة اجزاء من عشرة آلاف جزء من البوصة

— « غايتنا القصوى ان نستغني ما استطعنا عن الاعمال اليدوية الشاقة »

واليك ، قبل ان تنقل من الدوائر الميكانيكية ، مثل آخر من هذه الامثلة الصناعية الباهرة ،

في الطابق الاسفل تولد القوى البخارية الواجبة للعمل وللدفء. هناك صفٌّ من الخزانات الكبيرة، ولكل خزان وجاق حياته النحم ، فكان يطعم في الماضي باليد او بالجري بالرفش، فيقف الوقاد امام النار المتأججة يرفش الفحم، وهو أحمر العينين ، أسود الوجه ، وقد لصقت قميصه بجسمه من العرق . ساعة واحدة من هذا العمل تمثل للعامل الموت والجحيم

بدأ للهلكات . هناك خارج المعمل مستودع الفحم وقد رفع عالياً ، فتمتد منهُ حبال الحديد تجري عليها الزنابيل الملأى بالفحم فتقذف به الى الوجاق . عملية ميكانيكية يقوم بها رجل واحد، وهو بعيد عن النار وشررها ، فلا تمرض عيناه ، ولا تحترق يداه ، ولا يعرق ويشقى

قد يظن القارئ ان الاخطار تحوق بالعمال في هذا المصنع الكثير الآلات والادوات ، وهي تدار بالقوى البخارية والكهربائية . ليس لديَّ ما ينفي هذا الظن . الاَّ اني علمت ان الشركة أحرزت جائزة السلامة من دائرة الحكومة لفحص المصانع ، لان حوادث الخطر في السنة الواحدة لم تتجاوز الاثنين في المئة . وقد زرت المستشفى فيه المعدّ للاسعافات الاولى في مثل هذه الحوادث، فرأيت المعرضة تطالع كتاباً ، وما رأيت شخصاً في سرير

وسع السعر: الصحة والرضى

اني مسهب في وصف هذا المصنع وسائر دوائره اكراماً لاخواني الشرقيين الذين يبتغون لاوطانهم ما يتمتع به الغرب من ثمار العلم والصناعة . فهاكم المثل الاعلى في الاتقين . لا ثروة بلا علم، ولا علم بلا عمل ، ولا عمل يفلح بدون النظام والتضامن . لقد شاهدنا في ما تقدم مظاهر باهرة من مظاهر العلم والعمل والنظام

اما التضامن فالعروة الوثقى فيه إنما هي العدل ، وقل هي اشتراك العمال واصحاب المال في ثمار الانتاج اشتراكاً عادلاً . من الاقوال المبتذلة : أحسن معاملة العامل يحسن عمله . وفي احسان المعاملة الارباح لك وله . فاذا عُمل بالقول المبتذل صار قولاً ذهبيًّا . لقد اسلفت الذكر لما كان من اصلاح المعامل بواسطة الحكومة ، وأشرت الى نوافل التحسين التي يقوم بها اصحاب المصنع من تلقاء أنفسهم مهما كان الحافز بهم الى تلك الاعمال . وأي مصنع هو أجدر بالتحسين الدائم من هذا الذي يصنع الادوات لنشر المعارف ، وتعميم الثقافة الحديثة في العالم . ان خبره ليصدق خبره . نقول نحن العرب : النظافة من الايمان . ويقول الفريون قولاً شبيهاً به يقرن النظافة بالالوهية . انما يشفعون القول بالعمل ، والعمل بأمثلة من النظافة وهي تفاخر بينها الثلاث : الصحة والاقبال والسعادة

لست معجباً بشيء من تلك الآلات العجيبة ، ذات الاسرار المحجوبة ، اعجابي بالنظافة فيها، وحولها وتحتها، وفوقها — ارض من الخشب المصقول كانها كُنست وغسلت ساعة دخلنا المصنع —

صناديق الكناسة في كل مئة ذراع من المكان ، بأغطية تفتح بدفعة يد ، وتقفل بمثلها ذاتي — خزانات من حديد لاثواب النهار — مغاسل كبيرة ، بأنابيب مرتفعة ، ترش مياه رشًّا أفقيًّا ، يغسل فيها النهار بالمياه الجارية ، لا كما كانوا يفسلون في الماضي بالاحجار الخاصة للادران والجراثيم — حنفيات تقذف الى العلاء بالماء المبرَّد ، فيشرب المرء دون ان تمس شفاه الحنفية (هي طريقة معكوسة للابريق الذي نشرب به في لبنان) اما الآلات نفسها فحالها لا يزول ، وحسنها لا يحول ، تجلس اليها الحسان في أثواب من حرير ، وبعد يوم من العمل يعدن الى بيوتهن كما غدون منها ، كأنهن عائدات من دور السينما . ناهيك بالفسحات بين الآلات وعمالها ، وبالجدران التي تكاد تكون كلها نوافذ وشبابيك فتغمر المكان بفيض من الشمس ، وبدورة مستمرة من الهواء التي . أضف الى ذلك النعمة الكبرى : لا روائح ، ولا ضجيج ، ولا ازدحام

ان العلم والاختراع والنظافة آيات في كل مكان . فهاك الآلات الصافلة لبعض أجزاء من المعدة . ان عملها ينشر دقيقاً من المعادن لو ظل هناك لعلق بالهواء وأفسده ، فاخترع لهُ اختراعاً هو المصاصات . وما أدراك ما هي . أنابيب كبيرة تمتد من أمام الآلة الصافلة الى الخارج ، فتمتص دقيق المعادن وتسفع به الى زنابيل على السطح تفرغ كل يوم

اما وقد انتهينا من أهم فروع العمل الميكانيكية ، وحان وقت الغداء ، فدعوة انرثيس للاكل لا تُرَدّ . ما خرجنا من المصنع لهذا الغرض الشريف ، بل يمتنا المطعم فيه ، وهو كبير بطوله وعرضه ، موائده لا تعد ، يجلس الى بعضها ستة والى غيرها عشرة من العمال او المديرين ، رجالاً ونساء . وهم جميعاً — الف ومئتان عدًّا — يؤمون المطعم في ساعة معينة ، فيتناولون الطعام في وقت واحد . لا حاجة الى وصف النظافة ها هنا . انما اقف بالقارىء عند المطبخ المنفصل بالزجاج فقط ، فيرى بحذافيره ، ويوقظ القابلية في السقيم . كأن تلك الوجاقات الكهربائية ، والنواعين ، وأدوات المائدة ، معروضة كلها للبيع ، لا معدّة للعمل . وما كل معروض للبيع في المخازن بأطيب منها

عفواً ، أيها القارىء العزيز ، اني معتب بما أراه من الكمال في الغرب المادي ، لعلنا في هذا الشرق نقتبس شيئاً منهُ ، ندعم به استقلالنا ، ونحسن به بعض أحوالنا . . . النظافة ، تقول ، من الايمان . وما قولك اذا كان ايماننا نفسه يحتاج الى التنظيف والتجديد ؟ — ان علومنا الروحية لفي حاجة الى العلوم الاجتماعية والاخلاقية والنفسية والعقلية ، فتحييها ، وتشعل نور الزمان الحاضر فيها . النظافة في كل مكان — في السوق وفي المعمل كما في المخزن والبيت . في الكبير من أمرها ، وفي الصغير على السواء . وهاك من الصغير المثل الاعلى في المصنع الذي طوفتك به . ان فيه الدليل على اجتهاد مديري المصنع في درس الاخلاق البشرية والعمل بما تقتضيه . ان الاشارة لخيرٌ من الامر . بل ان الاشارة لخيرٌ من القول المعروف — لا تبصق على

الارض . انها من باب النهي عن المنكر . وفي النهي شيء من التفوق والتحكم — في البصاق العدوى ، فحافظ على صحة أخيك . انها من الكلمات المحقّرة للناس ، المذكرة عرض فيهم او جهل . فبدل الامر والقول المعروف ، حتى والمعقول منهُ ، تحيّهم بالاشارة ، وهي أفصح من الكلام وأبلغ

ان جدران الادراج في المصنع مدهونة بالدهان الازرق والزوايا منها بالدهان الابيض . فما معنى هذا التمييز ؟ من عادات العمال القبيحة انهم يبصقون في الزوايا فلا تُرى فعلتهم . فجاءت الاشارة في الزوايا البيض ، كأنها تقول للعامل : ان انت بصقت هنا ، او رميت بشيء يوسخ المكان ، فالتوبيخ جزاك . ومن التوبيخ ؟ لا من المدير ، ولا من احد اخوانك العمال انما هو من نفس عملك البادي امام ناظريك . هو نقطة سوداء في صحيفتك البيضاء . فتنبه . هي ذي الاشارة التي تفوق بلاغتها بلاغة الآيات والامثال . فالادراج نظيفة على الدوام ، وبالاخص زواياها البيض

مبدأ أبوي في المعاملة

من المبادىء التي يعد للصالحين في الشرق العمل بها المبدأ الذي يحمل صاحب العمل على معاملة عماله كبنيه . فيرحمهم في العمل وخارج العمل بنظره ، ويغار على آدابهم غيرته على مصلحتهم ، ويحسن في بعض الاحايين اليهم احساناً ابويًّا صافياً . لك ان تعترض على النعت الاخير . أما المدير الاميركي فهو يعترض على المبدإ الابوي باصوله وفروعه . لا . ليس لهذا المبدإ حرمة ، وليس له انصار في المعامل الاميركية

تناولت الغداء وبعض المديرين في المطعم العام . وكنت قد ظننت ان الطعام يقدم مجاناً لهم وللعمال ، فأخطأت الظن . وقد دهشت لما رأيت الرئيس يدفع ثمن غدائه وغدائي . فنظرت في لائحة الطعام فاذا بها مسعّرة ، واذا بالاسعار اقل من نصف ما يتقاضاه مطعم من مطاعم المدينة . حدثت الرئيس في الامر فذكرت الضيافة قائلاً : « اذا الشرقي انشأ مطعماً لعماله فهو يكلفهُ بالضيافة فيجعله مجاناً » . فابتسم وقال : « لا ترى الحكمة في المبدإ الابوي . فاذا انت اعطيت المرء شيئاً مجاناً فهو يظن ان لك في ذلك غرضاً خفيًّا ، فيحذرك ، وقد يسيء بعد ذلك اليك »

هي حكمة اميركية . وقد تكون خيراً من الحكمة الشرقية . بيد اننا في الشرق نشعر بالجميل شعوراً بالكرم وأشد . فهل نستعيض الحكمة الاميركية عن حكمتنا يا ترى ؟ هي الحكمة المألوفة في البيع والشراء . لا شيء بلا شيء . على ان المطعم مؤسس على غير قاعدة الارباح . فهو للعمال والمديرين بما يكلف الطعام والخدمة لا زيادة ولا نقصان

أضف الى ذلك ان المكان يستعمل كرقص مرتين في الشهر . فتقام فيه الليالي الراقصة ،

يحضرها الشبان والشابات من العمال ، وهم يدفعون من مالهم اجرة الموسيقيين. هي القاعدة الاميركية بالضبط . كأن الشركة تقول لعمالها : قاعة الرقص مني ، والموسيقيون منكم ولا تفاضل ولا منّة

سألت الرئيس : « هل تخص الشركة العمال بشيء من الارباح السنوية »

فاجاب قائلاً : « كلاَّ . ان في ذلك شيئاً من المبدإ الابوي »

قلت : وهل تساعدون من يمرض او يصاب في حادث اثناء العمل ؟ »

قال : مساعدة بسيطة في مستشفى المصنع فقط . بعد ذلك يُنقل المريض او الجريح الى بيته او الى احد المستشفيات في المدينة ، فيُعالج ويمرَّض هناك على نفقته ، او على نفقة الجمعية »

قلت : « اية جمعية ؟ » قال : جمعية التعاون المؤسسة من العمال ولهم . اما اذا نقد المال من صندوق الجمعية فهم يستعينوننا فنعينهم »

— وهل من منافع مادية تخصونهم بها ، وهم في اخلاصهم واجتهادهم يزيدون إنتاج المصنع وثروته ؟ »

— « لكل عامل من العمال الحق ان يشتري بما يدخره من راتبه اسهماً في الشركة ، فيشارك اذ ذاك في الارباح . هو حق الجميع رجالاً ونساءً »

— « وما هو عدد المشتركين ؟ »

— « لربع العمال بالتقريب اسهم في الشركة »

وهي فوق ذلك تضمن حياة العمال ، كل عامل وعاملة ، بألف وخمسمئة دولار ، فتدفع الى شركة الضمان القسط السنوي عنهم جميعاً . ولا تحسبه من رواتبهم

قد تُعدّ هذه الطريقة المتبعة في اكثر المعامل الاميركية ، من الابويات . ولكنها في الحقيقة من باب التعاون والتضامن . أن لصاحب العمل حقه ، وللعامل حقه ، وان تسعة كليهما موكلة بثلاثة هي احسان العمل ، واحسان الجزاء ، والاقتصاد . فالعامل المجتهد في عمله ، المقتصد في نفقاته ، يصبح من الشركاء في المصنع . اما اذا كان من غير المجتهدين المقتصدين فحقه ينحصر في راتبه ، وفي صك الضمان المخصص به اكراماً لعائلته ، فاذا مات فقيراً ساعدت الشركة عائلته بما ضمنت حياة فقيدها ، اي بألف وخمسمئة دولار

قال الرئيس : « على الشركة واجبات ادبية ثلاثة ، هي ان ترضي عملاءها ، وزبائنها ، وحاملي اسهمها »

اما العمال فقد شاهدت ما تقوم به الشركة من اعمال التحسين لخيرهم وخيرها . فهي لا تسألهم خير ما عندهم من علم ومقدرة واجتهاد ، بل تمد الاسباب ، وتمهد السبل المشجعة على ذلك ، فيسلكها العامل لسهولتها مسروراً بعمله ، راضياً بثمرته

وفي هذه الحال تتمكن الشركة من القيام بالواجبين الآخرين . فان في اتقان العمل رضى الباري ومصلحته ، وفي الاقبال والارباح رضى الشركاء حاملي الاسهم . فلا تهاون ، ولا اهمال ولا تقصير في التحسين مهما اقتضاه من العلم والتجربات ، ومن النفقات

ومن التعاون في الاختراع

ان الشركة تمنح جائزة مالية لكل عامل يجيء بفكرة جديدة ، او اقتراح مفيد ، للتحسين الميكانيكي او الفني او الاداري في المصنع . قرأت الاعلان المنشور على الجدران التي بهذه الجائزة . وتحت العنوان صندوق وأوراق الكتابة ، فيكتب العامل اقتراحه ، ويضعه في الصندوق . هذه الاقتراحات تجمع مرة في الشهر ، وتعرض على لجنة من المديرين تنظر فيها ، فتجيز صاحب الاقتراح المقبول بما يستحقه ، بعد ان تقدر ما قد يكون من الفائدة في العمل بذلك الاقتراح

سألت المدير : وكم هي قيمة اكبر جائزة منحتموها ؟ » فأجاب : « ٥ الف دولار »

تعودت من لبنانه

أعود ، وقد دنوت من نهاية هذه الرسالة ، الى المنضدة التي أوحتها الي . فقد طفنا ، ايها القارىء بعضها الكبير ، الكثير المحاسن الميكانيكية والفنية والادارية . ومن أهم ما عاينا ان من اركان النجاح في الصناعات ركنين اصليين هما صحة العامل ، وصحة الآلة التي يديرها . ولنا ان نقول ان الركن الاول والاكبر هو العلم بالاخلاق البشرية ، وبالاسرار الميكانيكية ، علماً مقروناً بالعمل والانصاف . علمنا ذلك وتحققناه في ما شاهدنا

بقي ان أعلمك ان منضدة الليتوتيب اصبحت تنطق بخمسين لغة من لغات العالم ومنها لغة الضاد ، وان في جامعة برنستون بأميركا ثلاث منضدات عربيات لطبع ما تختاره من المخطوطات القديمة في مكتبتها العربية النادرة ، باشراف قيمها العالم الفاضل مواطننا الاستاذ فيليب حتي

ولمن الفضل في اختراع منضدة الليتوتيب العربية ؟ قد علمت ان مخترع المنضدة الانكليزية هو المغاي هاجر في صباه الى اميركا . أجل . ان أطهر مُرغتار لمن المهاجرين فخر للمهاجرين وأبنائهم في تلك البلاد العظيمة ان يفتخروا ويفاخروا به ، ويجب ان اخبرك ان مخترع المنضدة العربية هو ايضاً من المهاجرين . هو لبناني من افريكا ، هو ابن قريتي الاستاذ سلوم مكرزل . فحق لابناء العرب اللبنانيين ، المهاجرين والمتخلفين ان يفتخروا به

اما ثالث الثلاثة فهو ، ولا فخر ، كاتب هذه الرسالة . لبناني مخترع المنضدة الناطقة بالضاد ولبناني يشرف على مطبوعاتها النفيسة في اشهر جامعة اميركية ، ولبناني يقص قصتها على ابناء هذه اللغة الشريفة . هذا واجب . هذا حق . فان في لبنان الخالد — بغير سياساته ورؤسائه — دوحة للعلم والادب اصولها عربية ، وفروعها شرقية غربية اه

النبات والمعدن

شعور ناعش

سيرة العلامة الهندي بوز
وطرف من مباحثه العجيبة

في اواخر العقد الثامن من القرن الماضي وضع احد العلماء الفرنسيين كتاباً بيّن فيه ان بين حياة النبات وحياة الحيوان وجوه شبه متعددة . فالنبات الاخضر الورق يطلق ثاني اكسيد الكربون في الليل ويأخذ الاكسجين ، اي انهُ يفعل ما يفعلهُ الانسان عند ما يتنفس . ثم ان في النبات خلايا هاضمة تحوّل الغشاء الى سكّر ، ولهُ مفرزات كذلك ولكنهُ لا يفرزها الى الخارج بل يعود فيستعملها في شؤونهِ الحيوية . واذا قيل ان النبات ليس فيهِ عضل قيل لهم ولكن النبات متصف بالقدرة على الحركة . فالازهار تتجه احياناً الى الشمس وتحني اعناقها عند ما يهطل المطر وورقهُ اغصانها في حركة دائمة . بل ان بعض النبات يقوم بضروب عجيبة من الحركة ، كأن لهُ عقلاً يأمر وعضلات تنفذ الامر كالسنط الحسّاس و«مذبنة زهرة» وغيرها

لم ينهض بين علماء الاحياء عالم يتوفر على هذه الناحية من حياة النبات توفر أعلمهم الأخير في مستهلّ هذا القرن . وهذا العالم هو الاستاذ السير جاغاديس شندرا بوز الهندي الذي نقلت الينا الانباء البرقية خبر وفاتهِ من عهدٍ قريب

بدأ بوز حياته العلمية استاذاً رقيق الحال في جامعة بالهند ، فاستوقفت مباحثهُ نظر عالمين انكليزيين كبيرين هما السر جيمس ديوار واللورد راليه ، فاستقدماه الى بريطانيا وافسحا له مجال العلم والبحث في معمل فراداي بالمعهد الملكي في لندن . وفي اثناء اقامتهِ في انكلترا طار صيتهُ واسترعت مباحثهُ انظار الصحف فجعلت تنشر انباءها لما رآه فيها اصحابها من غرابة وعجب . ثم عاد الى الهند وقضى عشرين سنة في بحث متواصل ودأب مستمرّ . ولما عقد مجمع تقدم العلوم البريطانية اجتماعهُ المئوي برآسة البرنس اوف ويلز في جامعة اكسفورد سنة ١٩٢٦ دعي السر جاغاديس بوز اليهِ فألقى فيهِ محاضرة على اكبر علماء العصر وكان اينشتين نفسه في طليعتهم . فلما انتهت المحاضرة صرّح اينشتين بانهُ يجب ان يقام لبوز تمثال ينصب في عاصمة جامعة الامم . وقد وصفهُ احد العلماء وهو يحاضر بقوله : ان روح الجمال الحق ينبثق منهُ وهو يتكلم

ولماذا تأثر ايشتين بمحاضرة بوز؟ بل لماذا ذاع اسم بوز في جميع أنحاء العالم، فلم يقتصر على دوائر العلماء المختصين شأن فريق من العلماء؟ ذلك ان بوز أثبت وحدة الحياة. انهُ دلَّ بالتجربة على ان الصلب وغيره من الفلزات ذات شعور، وان للنبات انفعالات، وان كل ما خلق يحيا ويموت، ولو كان جماداً. وبوز لم يقتصر في مباحثه على مراقبة النبات بالعدسة المكبرة. ولكنهُ استنبط طائفة من الاجهزة الدقيقة لقياس الافعال العصبية المكبرة في النبات. لقد وصف بأنهُ صوفي، ولكنهُ اذا صحَّ هذا الوصف عليهِ، كان صوفيًّا يقيس جزءًا من مليون جزء من البوصة! قد يكون خيالهُ مستمدًّا من اصله الشرقي، ولكنهُ أضاف اليهِ الدقة العجيبة التي يتصف بها العالم الغربي — بل كل عالم على الاطلاق

ومع ذلك فان في مكتشفاته من العجب العجاب، ما يحمل كثيرين على الشك فيها والاحجام عن التسليم بها. فانها أقرب الى بنات الخيال منها الى أصول الحقائق العلمية. واليك ما يقولهُ في فصل لهُ: لقد كنا حتى الآن نحسب النباتات والاشجار بعيدة الصلة بنا اذ لا صوت لها، تسر به، ولكنني سأثبت لكم انها مخلوقات تحسُّ، وانها تستطيع ان ترد على الاسئلة التي نوجهها اليها. فورقة السنط الحساس عند ما تحسُّ بصدمة تستجيب لها بالانقباض والانحناء على اغانها، وقد استنبطنا جهازاً يمكننا من تحويل هذا الجواب الى خط يرى . . . . ثم وصف الجهاز والتجربة

والواقع أن الاجهزة التي استنبطها بوز لقياس أحساس النبات دقيقة كلَّ الدقة. ولا يخفى ان حركات النبات، بطيئة على الغالب، فالبرقة البطيئة أسرع في حركتها من نموّ النبات ستة آلاف ضعف. اذ لا يزيد متوسط نمو النبات على جزء من مليون جزء من البوصة في الثانية. ولكن من النبات، كالخيزران، ما هو أسرع جدًّا في نموّه من معظم النبات. وليس بالنادر ان نرى غصناً من أغصان الخيزران ينمو من تسع بوصات الى اثنتي عشرة بوصة في اربع وعشرين ساعة. ومع ذلك استنبط بوز جهازاً لقياس نمو النبات قوامهُ عقلة مغنطيسية دائرة لا تأثر مغنطيسية الارض وبقعة من الضوء تنعكس على ستارة من مرآة صغيرة ومجهر. وللدلالة على قوة هذا الجهاز نقول انهُ اذا طبق على حركة البرّاقة ظهرت وكأن سرعتها مئتي مليون قدم في الساعة

قال بوز: للنباتات قلوب. وقبل ان استنبط الكريسوجراف (اي مقياس نموّ النبات) كنت واثقاً بان عصير النبات يجري في عروقها بجهاز يشبهُ في اصوله جهاز الدورة الدموية في الجسم البشري اي ان ضغط العصير في حركته لم يكن على نمط واحد بل كان كأن وراءهُ مضخة تنبض نبضاً منظماً. وقد ايّدت آلة الكريسوجراف ظنّي هذا

وقد عانى بوز في سبيل اتقان اجهزته عرق القربة. ولكن شغفهُ بالبحث سهل عليهِ كلَّ مشقة. وعلى مقربة من مدينة كلكتا انشيء معهد بوز. هناك يهو متسع للمحاضرة ومعمل للبحث تحيط بهِ حديقة غنّاء. ويحف بالحديقة ساكن الطلاَّب من عنود وغربيين. وكلّ ما

يستعمل في بناء الاجهزة يصنع في المعهد نفسه . ومع انهُ لم يمضِ كثيراً بتسجيل مكتشفاته اتيح لهُ جمع ثروة غير يسيرة فوقف مئة الف جنيه منها على هذا المعهد

من التجارب العجيبة التي جربها ، دانهُ صلة بتأثير السمّ في النبات وذلك بغمس جذعها في مركب البروموز ثم يصل اوراقها بأجهزته الدقيقة . فتبدو فيها خطوط متعرجة اذا قوبلت بخطوط النبتة وهي سليمة سوية ، تبينت فيها ما يدل على اضطراب النبتة وخفقانها تحت تأثير السم كما يفعل الحيوان . وأغرب من هذا ان أطباء الهنود الاقدمين كانوا قد اكتشفوا ان قدراً يسيراً من السم من انياب الكوبرا قد يفعل في المريض المشرف فيعيد اليهِ الحياة . وهذا يفسر عادة قديمة عندهم وهي امتناعهم عن دفن من مات بلدغ الكوبرا بل يوضع على رمث في النهر ظنًّا منهم ان الحياة قد تعود اليهِ . هذا وقد اثبت بوز ان سم الكوبرا يزيد خفقان الشعور النابض في النبات

ولم يكتف بوز بحصر بحثهِ في النبات ، بل تعداه الى المعادن فثبت لهُ ان في المعادن ايضاً قوة حيوية . فالصناع الذين يتناولون المعادن والفلزات يعلمون ان الفلزات تصاب بظاهرة تشبه التعب في الانسان . ولذلك قبل ان حلق الذقن يقتضي الاَّ تستعمل شفرة الموسى يوماً بعد يوم . بل تجب المداولة بين الشفرات حتى تستريح . وقد أثبت الفحص بالاشعة السينية ، ان فترة الراحة تتيح لجزيئات الفلز ان تعود الى وضعها الاصيل . وقد استعمل بوز جهازاً كهربائيًّا يدعى « غلفانومتر » لقياس ما تصاب بهِ الفلزات من التعب ، فثبت لهُ ان احساس الفلزات يضعف بتوالي الحافز الكهربائي عليها ، ثم اذا استراحت فترة ، عادت اليها قوة احساسها السوية . بل ذهب الى ابعد من ذلك اذ اثبت أن الفلزات تتأثر بالحرارة والبرد فيضعف احساسها في البرد . وأدهى من ذلك انهُ بين انها تتأثر بالمخدرات كما يتأثر الدماغ بها . فغمس قطعة من القصدير في محلول بروموز البوتاسيوم يفقدها قوة الاحساس العادية . ولا يخفى ان جرعة كبيرة من الافيون تخدر اعصاب الانسان وان جرعة صغيرة تهيجها ، والفلزات تستجيب بالطريقة نفسها . بل ذهب الى ان السموم تميت الفلزات كما تميت الخلايا الحية ، فقد أخذ قطعة من المعدن وامتحنها بالجلفانومتر فوجدها سوية الاحساس ثم عالجها بالحامض الاوكساليك ، فظهر في آثار الجلفانومتر دليل الاضطراب فيها ، ثم ضعفت الحركة رويداً رويداً الى أن كادت تبطل تماماً . ثم عالجها بترياق فعاد شعورها رويداً رويداً . وبعد فترة من الراحة عادت القطعة سوية . ثم اعاد هذه التجربة فابقى الفلز مشعوراً بالسم الى ان بطلت دلائل الشعور تماماً فاستخرجها وعالجها بالترياق والراحة ولكن الموت كان قد ادركها فلم تُفِق

هذه النتائج الغريبة لا تزال محور البحث والتجربة في مختلف انحاء العالم ، وقد وجه اليها نقد علمي من علماء مجرّبين (راجع فصول في التاريخ الطبيعي ص ٤٥—٥٥) . أما ما لا ريب فيهِ فهو ان بوز قد فتح ابواباً جديدة نطل منها على وحدة الوجود

اصلاح النسل

مدخل الى هذا العلم الخطير الشأن

للدكتور شريف عسيران

مقام وتاريخ

ان موضوع اصلاح النسل من الموضوعات الاجتماعية الخطيرة الجديرة بالبحث لانهُ يتناول نواحي الحياة المختلفة من شخصية واجتماعية واقتصادية وسياسية وطبية وتهذيبية وغير ذلك مما يهم الفرد والمجتمع ويؤول الى خيرهما واسعادهما

قال الاستاذ باتسون رئيس مجمع تقدم العلوم البريطاني سنة ١٩١٤ ان المسائل السياسية التي يقتضي حلها معرفة الحقائق البيولوجية كثيرة ومنها مسائل التعليم والقوانين الجنائية وجميع فروع الادارة والسياسة فكثيراً ما تعرض لاهل السياسة مسائل يحكمون فيها فيما يمكن عمله او ما لا يمكن عمله لاحداث تغيير مطلوب في فرد مخصوص او في شعب بكامله ولا بد للحكم في هذه المسائل من المعرفة بالحقائق البيولوجية ولا تعد المعارف البيولوجية من المعارف الضرورية لاهل السياسة والاحكام في الوقت الحاضر ولكن سوف يأتي يوم يضطر فيه المعلم والحاكم والمحامي والسياسي الى الاشتراك مع الطبيعي في معارفه التي تتعلق بفسيولوجيا الشعوب[1]. وقد اهتمت به الامم الراقية في عصرنا الحاضر واحلتهُ محله الرفيع فسنّت له القوانين والانظمة وظهرت عشرات لا بل مئات من الكتب فيه لاشهر علماء العصر وكثر انصاره والمنضوون تحت لوائه والداعون اليه مع انهُ لا يزال طفلاً يترعرع. وسندرسهُ على ضوء الحقائق العلمية الصحيحة المجردة عن العاطفة والخيال والمبالغة في الاقوال معتمدين على اوثق المصادر المعترف بها في عالم العلم. وسنجد فيه لذة وغذاء شهيًّا للنفس التواقة الى المعرفة

﴿ تاريخه ﴾ ليست فكرة اصلاح النسل من مبتكرات عصرنا الحاضر بل سبقنا اليها الاقدمون. فقد ذكرها الشاعر اليوناني تيوجينيس في النصف الاول من القرن الثاني قبل المسيح وبحثها افلاطون محوقرن بعده واقترح ان تتدخل الحكومة في الامر بتزويج الاحسن للاحسن والاردإ للاردإ وتشجع تناسل الفئة الاولى وتتولى تربية اولادها وتقذف باولاد الفئة الثانية

(١) العلم والعمران هدية المقتطف السنة ١٩٢٨ ص ٢١٣

في مجاهل غير معروفة[1] وان لا تتألف جمهوريته من اكثر من ٥٠٤٠ وطنيًّا Citizens واشار بتحديد النسل لحفظ موازنة هذا العدد[2]

وقد طرق ارسطاطاليس هذا الموضوع من الناحية السياسية والاقتصادية وايد مذهب تدخل الدولة في النسل[3] وينسب اليه القول الآتي : اذا ولدت امرأة عدد الاولاد المحدد لها ثم حملت فيجب طرح الولد منها قبل ان تدب فيه نسمة الحياة[4] ويروي لنا التاريخ ما كان يفعله الاسبرطيون في سبيل تحشين ابنائهم بتدريبهم على القروسية وتعريضهم لقارس البرد ولافح الحر ليخلقوا منهم رجالاً اولي بأس وقوة يكافحون في ميادين القتال وينتصرون على الاعداء

﴿ اصل اللفظة ﴾ ان لفظة يوجنكس Eugenics يونانية الاصل ومعناها الاصيل او الجيد الولادة Well born. واول من طبعها بطابع العلم الحديث العلامة الانكليزي الناغ السير فرانسيس غالتون صاحب المصنفات النفيسة في الوراثة واصلاح النسل ومقياس الذكاء وبصم الاصابع وغيرها من البحوث الاحيائية الاجتماعية المتنة ولا يليق بنا ان نمر بشخصية فذة كهذه من دون أن نتوسع قليلاً في دراستها

العبقري غالتون

ولد غالتون (١٨٢٢ — ١٩١١) في نفس السنة التي ولد فيها مندل ولم يعلم شيئاً عن ابحاثه التناسلية في النبات ولكنهُ طرق الموضوع من ناحية اخرى احصائية وظهرت رسالته قبل رسالة مندل بشهرين وبرهن في كتابه « النبوغ الوراثي » الذي سنشير اليه فيما بعد على ان النبوغ والتفوق العقلي وغيرهما من المواهب جبلية وراثية وعرف اصلاح النسل بما يلي : اصلاح النسل هو درس العوامل التي تحت سيطرة المجتمع والتي تمكن بها من اصلاح الجيل المقبل او افساده جسديًّا وعقليًّا[5]. نشر غالتون مقالتهُ الاولى في هذا الموضوع في مجلة مكملان سنة ١٨٦٥ وبين فيها انهُ من الممكن تحسين نسل البشر بعد إلمام جيدهم وتوسع في هذا الموضوع في كتابه النبوغ الوراثي Hereditary Genius[7] وقد تتبع نسب ٤١٥ مشهوراً من مشهوري انكلترا يعتون الى ٣٠٠ اسرة وجد فيها ما يقرب من الالف مشهور[8] منهم ٨٥ قاضياً و ٣٩ سياسيًّا و ٢٧ قائداً و ٣٣ اديباً و ٤٣ طالباً و ٣٠ شاعراً و ٢٨ فنَّاناً و ٢٥ قسيساً[9] وقصده ان يبرهن على ان النبوغ وتفوق المواهب

(١) اصلاح النسل التطبيقي Applied Eugenics, Popenoe and Johnson p. 343, 1933
(٢) Abortion Spontaneous and Induced, Dr. Frederick Taussig 1936
(٣) Applied Eugenics. p. 343 (٤) Abortion Spontaneous and Induced
(٥) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة تحت لفظة Eugenics
(٦) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة (٧) Applied Eugenics p. 344
(٨) Hereditary Genius p. 307 (٩) Applied Eugenics p. 344

العقلية بدرجاتها وراثية . قال في كتابه النبوغ الوراثي : « ان الحجج التي احاول ان استند اليها لابرهن على ان النبوغ وراثي هي وفرة عدد المشهورين الذين يمتون بنسب الى مشهورين مثلهم من أقربائهم » (١)

وسنة ١٨٧٤ طبع رسالة عن سيرة ١٨٠ عالماً انكليزيًّا برهن فيها على ان الوراثة لا المحيط هي الاصل في مواهب الانسان وسنة ١٨٨٣ طبع كتابه : البحث عن موهبة الانسان وتطوُّرها . وطبع غيرها من الكتب التي يستشهد بها كبار المؤلفين في هذا الموضوع وقلما نجد باحثاً يبحث في هذه الموضوعات ولا يستشهد بأقوال هذا العلامة الشهير ويسترشد بمواهبه وعلمه

وسنة ١٩١١ قرأ رسالة امام جمعية علم الانسان Anthropology موضوعها . امكان تحسين نسل الانسان تحت تأثير الشعور والقوانين الحاضرة . وبعد ثلاث سنوات تلا رسالة أخرى أمام الجمعية الاجتماعية موضوعها اصلاح النسل تعريفه ومنهجه وغايته ملخصها : (١) تعميم معرفة قوانين الوراثة (٢) البحث عن معدل مواليد الامم القديمة والحديثة بين طبقاتها الاجتماعية (٣) جمع احصاءات صحيحة عن مقدار العائلات الكبيرة التي نشأت (٤) درس العوامل المتعلقة بالزواج (٥) أهمية علم اصلاح النسل للامم

وأسس سنة ١٩٠٤ كرسيًّا خاصًّا لهذا العلم وأوصى بعد مماته في ١٧ يناير سنة ١٩١١ بتأسيس استاذية لهذا العلم بعهدة Karl Pearson الشهير وخصص لها المبالغ اللازمة من ماله الخاص (٢)

ثم انتشرت هذه الدعاية في أميركا والمانيا وفرنسا وايطاليا وروسيا واكثر الامم الاوربية وبعض الامم الاسيوية كاليابان والصين ولا نطيل الشرح هنا ومن شاء المزيد فعليه مراجعة (Applied Eugenics) وقد اخترنا منهجا مختلفين لهذا الموضوع نشرحها هنا لانهما يلخصان أهم الموضوعات التي سنطرقها في بحثنا وهما نموذج لابحاث هذا العلم الحيوي الخطير

مناهج الامة الاميركية

انتشرت هذه الحركة في اميركا قبل غيرها . ولكنها سارت ببطء فأسس لورن مودي (Lorung Moody) سنة ١٨٨٠ معهد الوراثة في بوسطن وساعده الشاعر الشهير لونغ فلو (Longiellow) وغيره من المشهورين . وكان الكسندر بل مخترع التلفون اول من طرق هذا الموضوع بصورة عملية سنة ١٨٨٣ وأنشئت سنة ١٩٢٦ جمعية اصلاح النسل الاميركية ووضعت سنة ١٩٣١ مقترحاتها الآتية نوردها هنا لانها تبين وجهة نظر الامة الاميركية ونورد بعدها وجهة نظر الامة الالمانية

(١) ادخال موضوع تحسين النسل في مناهج المدارس الابتدائية والعالية وجعله جزءا

(١) Hereditary Genius p. 5 (٢) Applied Eugenics p. 345—46

لا يتجزأ منها والتشجيع على التخصص به في المدارس العالية كالكليات والجامعات (٢) تعميم الارشاد الكافي عن حقائق هذا الموضوع بواسطة الصحافة والمحاضرات والمعارض والكتب والنشرات الخ (٣) تشجيع الابوة والبحث عن الصفات الوراثية النافعة للامة (٤) تشجيع تزويج من يتصفون بصفات وراثية جيدة وذلك بما يلي :

(ا) استقصاء سبب قلة نسل ذوي المواهب المتفوقة

(ب) الحث على تتبع انساب الاسر ودرس الصفات المتأصلة فيها

(٥) منع زواج المصابين بعاهات وراثية كالجنون وما أشبه وسن شرائع خاصة لهذه الغاية

(٦) عزل الآباء والامهات المصابين بعاهات وراثية (٧) سن قوانين خاصة للزواج من جهة تحسين النسل تشمل الامور الآتية :

(ا) جعل الحد الادنى لسن الزواج ١٦ سنة

(ب) تأخير اجازة الزواج ثلاثة ايام من تاريخ الطلب ونشر اعلان عنهُ في الصحف او غيرها

(ت) عدم منح الاجازة الا بعد الحصول على شهادة طبية تثبت سلامة طالب الزواج من الامراض الوراثية والزهرية

(ث) جواز تزويج الاشخاص البيدي القرابة

(ج) ان يدخل ضمن موجبات الطلاق عدا الزنا الجنون الوراثي وضعف العقل والحجر والعقم

(٨) سن قوانين تمنع هجرة من فيهم صفات وراثية غير مرغوب فيها (٩) تعميم ارشاد الناس في طرق منع الحمل تحت اشراف اطباء أكفاء في المستوصفات العامة

منهج الامة الالمانية

تأسست جمعية تحسين النسل الالمانية سنة ١٩٠٥ ونشطت هذه الحركة في المانيا خاصة بعد الحرب العامة وها هوذا ملخص خططها مقابلة للخطط الاميركية

(١) إن الخطر الرئيسي الذي تتعرض لهُ الامم هو الفساد الناشىء من فقدان العناصر القوية الصحيحة (٢) ان الامم التي تستطيع ان تنازع غيرها البقاء هي التي فيها نسبة كبيرة من رجال ونساء ذوي مواهب عقلية وجسدية صحيحة واخلاق وآداب صالحة (٣) ان صحة الامة وحيويتها وانتاجها الثقافي لا تتوقف على المحيط فقط (كالغذاء والتهذيب والامراض الخ) بل على قابليتها الوراثية التي تعد من الاسس الجوهرية في كيانها (٤) ان ميراث الامة الوراثي عرضة للفساد بطريقتين الاولى تقديم العناصر الفاسدة على الصالحة والثانية افساد السلالة بادخال عناصر منحطة اليها (٥) عند الشعوب المتمدنة في الوقت الحاضر اختيار فاسد يؤول الى فساد النسل بمقدار كبير (٦) من سوء الحظ أن يرافق الصعود الاجتماعي فناء الاسر (٧) ان تشجيع تكثير نسل

ذوي المواهب الوراثية المتفوقة الذين يصلحون لقيادة الامة من خيرة الوسائل لتحسين السلالة (٨) من أهم مشكلات حفظ صحة النسل الاحتفاظ بالاسر المهمة اجتماعيًّا من كافة الطبقات (٩) إن النسل الذي لا يصلح يتوقف على منعه اكثر مما يتوقف على تعجيب أسبابه (١٠) لما كان جميع المواليد لا يمثلون مستوى الانتاج المتفوق فخطة الاكتفاء بولدين ليست حميدة لانها تؤول الى انقراض الاسر عقب اجيال قليلة ويكاد معدل ثلاثة أولاد لا يكفي لحفظ كيان الاسرة (١١) ان أسباب تعمد منع الولادة اجتماعية واقتصادية فيجب تشجيع على صحة السلالات بتكثير الجيد وتقليل الضرر الناشيء عن تكثير نسل مثل هؤلاء (١٢) يجب أن يأخذ التشريع بعين الاعتبار حجم العائلة ويجزيء الارث لغاية الضريبة الى اكبر عدد ممكن بحسب افراد الاسرة (١٣) يجب أن تعفى الاسرة المؤلفة من ثلاثة أولاد أو ولدين من ضريبة الارث وتستثنى التركات الكبيرة من هذا الحكم (١٤) يجب أن تسن انظمة خاصة لحماية الضرائب من سكان الارياف حتى لا يخشى مكانها خوفاً من قلة الاولاد الضرائب (١٥) يجب أن يراعي في انشاء القرى احتمال تناسل المزارعين. وتشجيع سكنى الارياف واشباعها مهم من وجهة صحة السلالة (١٦) ان سياسة تقليل النسل واتباع نظرية مالتوس يحرج موقف تحسين النسل لان النقص يحصل حتى بين احسن الاسر (١٧) ان الاعتماد على مجرد زيادة النسل بقطع النظر عن اختيار العناصر ذات الوراثة الصالحة مضر لانه يفسح المجال لتكاثر العناصر المنحطة

تطبيق اصلاح النسل

نبحث الآن هل موضوع اصلاح النسل قابل للتطبيق أو انه من الموضوعات النظرية الفلسفية التي يتلذذ المرء بمعرفتها ونقابل بين آراء المتحمسين الذين يعتمدون عليه في خلق جيل كامل من الناس والرجعيين الذين يعدون التدخل في الامور الطبيعية تحدياً للعزة الالهية كما قال المستر دارو: «من هو ذلك الاهوج الذي يجرؤ على تغيير طرز الانسان الجسدي» (١)

في العالم اذكياء واغبياء وصالحون وبناء وغيرهم من ذوي الصفات الصالحة الممتازة وفيه الضعفاء والبلداء والناقصو العقل والمجرمون والاعلاء وغيرهم من اصحاب الصفات السقيمة. والقوانين والانظمة والثقافات والمدنيات والتهذيب والتعاليم والعادات والتقاليد وغيرها من مظاهر الحياة وليدة هذا الجرم الصغير الذي انطوى فيه العالم الاكبر تصلح بصلاحه وتفسد بفساده فلماذا لا نستبدل الفريق الاول بالفريق الثاني ونصير كوكبنا جنة عدن وسوى الكمال (هيتوبيا) الذي يتخيله الفلاسفة والمصلحون. هذا ما يحلم به دعاة هذا المذهب وما عناه رئيس جمعية اصلاح النسل الاميركية بقوله: يجب أن نجتهد أن نري العالم أن اصلاح النسل (يوجينا) من انجع الوسائل لحل المشكلات

(١) The Eugenic Predicament, 1933, S. J. Holmes p. 125

التي يتطلبها الاطباء ورجال الصحة والاجتماعيون والقسوس والمصلحون ، مشكلات مكافحة العجز والبطالة والنقص العقلي والاخلاقي والقضاء على الرذيلة والاجرام [١]

يستطيع الانسان أن يكيف النباتات وفقاً لرغائبه فينبت الحنطة ذات الحب الكبير والصغير والبيضاء والسمراء ويولد أنواع الفواكه الطيبة الطعم الكثيرة الانتاج وضروب الورود الفوّاحة يستطيع ان يوجد البقر الحلوب والسمين الصالح للاكل والقوي الصالح للفلاحة. يستطيع ان يختار خيل السباق وخيل الركب والدجاج الكثير البيض وكلاب الحراسة والصيد وغير ذلك مما نراه من ضروب النباتات والحيوانات وفقاً لرغائبنا . فلماذا لا نطبق نفس هذه الحقائق على الانسان وهو يعيش في نفس المحيط وتؤثر فيه العوامل التي تؤثر في النبات والحيوان ويخضع لنفس النواميس الطبيعية التي تخضع لها

يقول العلامة غالتون في كتابه النبوغ الوراثي : كما انه من السهل توليد سلالة دائمة من الكلاب او جياد السباق او غيرها متصفة بالصفات المرغوب فيها اذا بذلنا الغاية في اختيار تناسلها كذلك يمكننا عملياً ان نخرج سلالة من البشر ذات مواهب فائقة بتزاوج احيائها المتعاقبة [٢]

ويقول هوسن في كتابه « مشكلة اصلاح النسل » : من الممكن توليد ضروب الناس من بين سلالات البشر الموجودة الآن بالتناسل الانتخابي ، الاغش (ذو ست اصابع) والمفتوح الكف والاشقر والاصلع والاذرد [٣] والاصم والاعمى والقزم ذي الرأس الضخم وأنواع درجات الذكاء من الابله الى العبقري [٤] ويقول ليونارد دارون الشهير في كتابه « ماهو اصلاح النسل » : حينما يعزم امرؤ على الزواج يهتم بمقدار الميراث المالي ولكنه قلما يلتفت للميراث الجسدي والعقلي [٥]

هذه لمحة صغيرة عن تضارب الآراء في هذا الموضوع الحيوي وسنتبع خطة معتدلة في تميز تجربه وبجربه معتمدين على أقوال الثقاة المعتدلين ان خير تعريف حديث لهذا العلم هو تعريف الطبيب الهولاندي الشهير فان ده فلد Van de Velde في كتابه العتم والخصب في الزواج : ان المثل الاعلى في تناسل البشر هو ايجاد سكان متناسبين مع مواردهم الطبيعية والثقافية تزداد في كل جيل قابليتهم ومواهبهم الطبيعية وتنقص عيوبهم وعللهم [٦] وتدرج هذا التعريف على اختصاره فأوعى

فغاية تحسين النسل تشجيع الصفات الجيدة ونبذ السقيمة ومما لا شك فيه ان كل امة تتمنى ان يكثر فيها عدد الاذكياء والمخترعين والاقوياء والاذكياء وينقص فيها المجرمون والبله والضعفاء

(١) H. S. Jennings : The Biological Basis of Human Nature 1930, p. 130.
(٢) Hereditary Genius p. 1
(٣) الفرد — وهو ان تسقط الاسنان كلها وقد درد درداً فهو امرد والانثى مرداء (ابن سيده)
(٤) The Eugenic Predicament (Holmes) 1933 p. 10
(٥) What is Eugenics? by Leonard Darwin p. 1
(٦) Sterility and Fertility in Marriage : Van de Velde 1931 p. 49

واضرابهم . ومما لاريب فيه أن الانسان كسائر المخلوقات الحية تابع لسنة التطور . ويؤكد العلماء بناء على ما استنتجوه من التحجرات ان الانسان الحالي يختلف عن الانسان الاول . ولا يستطيع أحد أن يجزم بمدى قدم الانسان ويرجحون أن قدمه لا يقل عن النصف مليون سنة وقد انقرضت اكثر انواع الانسان ولم يبق الا النوع الحالي أي الانسان العاقل (Homo Sapiens) الذي لا يقل تاريخه عن خمسين الف سنة . وقد مرت به أطوار عديدة كان في خلالها عرضة للطبيعة تتصرف به كما تتصرف بغيره من الحيوان . ولما ارتقى دماغه أخذ يخضع المحيط فاستطاع التغلب على كثير من الامراض واكتشف سبلاً للعيش والوقاية من الحر والبرد وغير ذلك من مستلزمات الانسان التي استطاع بواسطتها ان يتغلب على كثير من العوامل المحيطة به ولا يزال جاداً في هذا السبيل يسعى لما فيه خيره وسعادته

يؤكد العلماء أن مواهب البشر الوراثية لم تتغير وان التغير الذي حصل اقتصر على محيط الانسان ولكن صفاته الاحيائية (البيولوجية) لم تتطور ولا تزال على ما كانت عليه منذ الوف السنين . وليس من مقتضيات المدنية تقدم الناحية الاحيائية . وسبيان لدى الطبيعة إن كنا حشرات أو أرقى طبقات البشر فالذي يهمها تخليد الحياة وليس نوع الحياة التي تحياها . فالتطور يؤول الى التقدم او التأخر او بينهما[1] فنشأ جيل من الناس مواهبهم الوراثية ارقى من الجيل الحاضر بالقياس الى عصرهم . فقد ذكر غالتون في كتابه النبوغ الوراثي ان اقدم سلالة في التاريخ هي سلالة اليونان الاقدمين اذ لم يسبقهم احد فيما اخرجوه من الآثار التي تحتاج الى مواهب عقلية ممتازة ولان السكان الذين تحدر منهم هؤلاء النوابغ كانوا قليلي العدد فسكان اتيكا (Attica) اقدر ارداف السلالات اليونانية فقد نشأ فيها خلال قرن اي بين ٤٣٠ و ٥٣٠ ق.م صدفة دون تعمد كوكبة من الممتازين بمواهبهم العقلية يبلغ عددهم اربعة عشر مشهوراً اي واحد لكل ٤٣٠٠ من السكان الاحرار البالغين . وفي القرنين ما بين ٣٠٠ — ٥٠٠ ق . م أخرجت هذه البلاد الفاحلة التي لا تبلغ مساحتها مساحة جزيرة رودس اليوم وسكانها اقل من الخمس ما يقرب من الـ ٢٥ مشهوراً من الاحرار الخلص منهم :

ثيمستوكليس وميلتيادس وارستيديس وبركليز من الساسة والقواد . وسقراط وافلاطون وارسطوطاليس من الفلاسفة . واسكيلس ويوريبيدس وسوفوكليس وارستوفانيس من الشعراء . واكتينس وفيدياس وبراكسيتيليس من البنائين والمثالين . وتوسيديديس وكزينفون من المؤرخين . وديموستينيس وايسوقراطيس من الخطباء[2] (البقية في بعض الاخبار الدلية)

(١) Holmes. The Eugenic Predicament p. 4-5

(٢) Heredity and Environment 1930 (Conklin) p. 299 Hereditary Genius p. 329

بيت الشاعر

في منطقة البحيرات بانجلترا وفي قرية « جراسمير » الجميلة بيت الشاعر « وردسورث » المشهور باسم « كوخ الحمامة » وقد زاره الشاعر من سنتين وقال فيه هذه الابيات : —

يابيت « وزد سورث » لا أقفرتْ ... منك المنى . ولا عداك السلامْ !
فيك حلَّ الشعر أصفاده ... وانطلق الطير وغنَّى الحمامْ !
ياشاعر الدنيا [1] وما قد حوت ... من كثرة عن نابها . وابتسامْ
هدأتَ . . والدنيا كمهدي بها ... أشباح أطياف ورؤيا منام . . .
والناس : حيٌّ سائرٌ للبلى ... وهامة تيَّاهةٌ فوق هام
تلك البحيرات وشطآنها ... توحي الى الشاعر معنى الكلام
منثورةٌ في الارض حبَّاتها ... كأنها عقد بغير انتظام
للشعر فيها نشوة حلوة ... وللطيعين فيها هيام . . .
توحي الى المفتنّ من فنها ... وتلهم . الملهم معنى الغرام
الجبل الرابض في أرضها ... مستشرف الذروة عالي السنام
يجلله الثلج به فةً ... كأنهُ شيخ جليل المقام !
والكلأ الخضلُّ في صدره ... كأنهُ صدر علاه الوسام !
والشجر الملتفُّ من حوله ... يلوح في الوادي كبعض [2] الخيام !!
لله تلك الارض من جنة ... يحلو بها العيش ويصفو المُقام
قد فُتن الشاعر في حسنها ... وجال [3] ما بين رباها وهام
هذا جمال الله . ما صاغهُ ... فنُّ الورى أو زخرفتهُ الانام
يا بيت « وردسورث » هل وقفةٌ ... تبل من صَدي الصدى والأوام ؟
وهل يعيد الدهر جولاتنا ... بين روابيك وبين الاكام ؟ ؟
وهل « جراسميرُ » كمهدي بها ... العيش فيها نهبةٌ واغتنام ؟ ؟
ظننتُ بالامس حشاشاتنا ... تدوم . . لو كان لشيء دوام . .

---

(١) كان وردسورث وكولريدج وسلي أشهر شعراء الطبيعة عند الانجليز (٢) في شمال انجلترا نوع من الشجر على شكل الهرم وما أشبهه بالخيام المضروبة في الصحراء (٣) كان لوردسورث جولات كثيرة في ارض البحيرات وله كتاب اسمه (جولة المساء)

الشاعر وردزورث
في شيخوخته

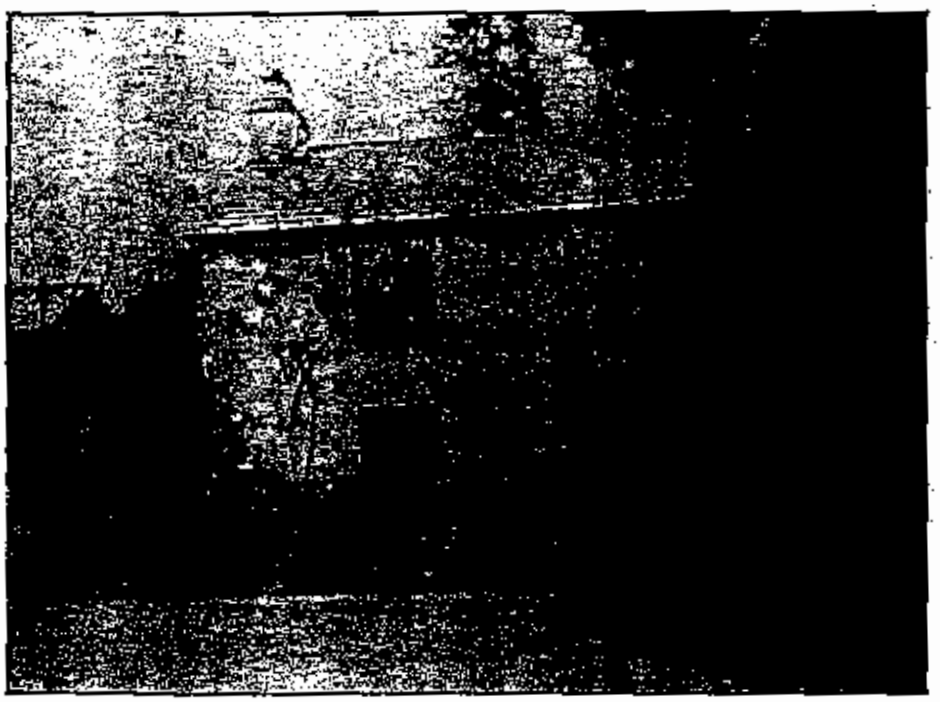

كوخ الحمامة — بيت الشاعر وردزورث
(تصوير محمد عبد الغني حسن)

تصادم تيفريتين

الصراع بين ابي جعفر المنصور وأبي مسلم الخراساني

لعلي ادهم

يقف مدوّنو التاريخ الاسلامي وقفات طويلة حيال الخلاف المشهور الذي ثار بين ابي مسلم الخراساني وأبي جعفر المنصور وأسفر عن قتل أبي مسلم ، ويكثرون من تفصيل حوادثه واستقصاء اسبابه وسرد مختلف الروايات التي تدور حوله وتتصل به . وعذرهم في ذلك واضح مقبول . فقد كان الرجلان من الشخصيات النابهة المنيفة التي ارتبطت بتاريخها حوادث عصرها اشد ارتباط . وأبو جعفر هو رجل العباسيين الذي ثبّت لهم الخلافة وأرسى قواعد الملك وكان واحد عصره في قوة الشكيمة ومضاء العزيمة ونفاذ النظر وإحكام التدبير . وأبو مسلم نادرة من نوادر التاريخ وتاج غريب لاحتكاك الاسلام بالحضارة الفارسية ، وقد انحدر على الاغلب من صلب بزرجمهر بن البختكان وزير كسرى انوشروان فهو من اصل فارسي شرقت تلتهب فيه الروح الفارسية تحت غلالة الاسلام ، وتلمع في تصرفاته سطوة الارستقراطية وفسوتها ودهاؤها وتماثل الملك وعزة السلطان ، وقد استطاع بصادق حاسته وبارع قيادته وفائق تدبيراته ان يغير مجرى التاريخ الاسلامي ويضرب ملك بني مروان الضربة القاضية ويرفع على انقاضه بيت بني العباس ، وقد تمكن من انجاز ذلك قبل أن تبلغ سنه الخامسة والثلاثين

وقد كان في بني العباس طموح ودهاء وحرص على طيبات الدنيا ونزوع الى السلطة وخبرة جيدة بالدوافع الانسانية . وقد احسنوا تدبير الدعوة واختيار الارض الذراء الصالحة لاستنبات بذورها وعرفوا الفرصة المناسبة لظهورهم والجهر بدعوتهم . ولم تكن فيهم تلك النزعة الصوفية المشوبة بالزهد والعجز في الحياة العملية التي تميز بها العلويون وجرّت عليهم الاخفاق في كل محاولة وصيرت تاريخهم سلسلة من المآسي المفجعة تستوجب الاسف وتستدر الدموع وجعلت الرجال العمليين يعدون عن نصرتهم لانهم لم يجدوا عندهم اباية الملك ولا صيانة المال ولا تكيدة

الحرب كما قال احد هؤلاء الرجال وهو الاحنف بن قيس . ولكن كان ينقص بني العباس القائد الحربي الموهوب المتدرب على وضع الخطط وتدبير المعارك وتنظيم القيادة ، وقد اصابوه في ابي مسلم . فلولا براعته الحربية وأساليبه العجيبة لافلتت منهم الفرصة ولما امكنهم ان ينتزعوا ملك الامويين وعلى رأسهم خليفة من اقدر رجالهم مثل مروان بن محمد الذي لم تنض الهزيمة من مزايا الحربية ولم يستنسخ التاريخ ان ينكر عليه همته العالية ومواهبه الممتازة

والذي يقدر اخلاق هذين الرجلين يعرف انهما شخصيتان قدر لهما ان يتصادما . فكلاهما انانيٌّ الى اقصى حدود الانانية لا يطيق ان يرى الى جانبه منافساً في نفوذه او قسيماً لهُ في ملكه ، وكلاهما مكافئ من قرعه الى اخمصه لا يعرف معنى للعواطف النبيلة او للمبادىء السامية اذا وقفت حجر عثرة في سبيل اغراضه ، فأبو مسلم لم يتورع عن الاسراف في القتل على الشبهة والغدر بأصدقائه وأعدائه على السواء ، والمنصور اول من قتل في الاسلام على الملك عمه وابن اخيه وأظهر قسوة بالغة في معاملته لابناء عمه العلويين

وقد كان أبوجعفر متبحراً في دراسة الفقه الاسلامي ، وكان لهذه الدراسة تأثير كبير في تكييف عقله وصقل تفكيره ، وقد مكنتهُ من ان يدرك في سهولة أوجه الشبه بين الاشياء دون ان تغيب عنهُ اختلافاتها الدقيقة ، وشحذت رغبته في البحث والتقصي والصبر على الشك والتريث في التفكير والاستعداد للمراجعة ، وقد كانت حاسة النظام والترتيب في نفسه أقوى من حاسة ادراك الجمال ، ولم يكن بطيئه شديد الميل الى النساء والتهالك على اللذات او غالياً في التأنق ، ولم يكن شديد الولوع بالشعر فان أعجب بشيء منهُ فانما يعجب بالجانب التعليمي فيه وبما قد يتضمنهُ من مأثور الحكم وناضج التجارب وما يمكنهُ ان يستخرج منهُ درساً سياسيًّا او قاعدة عملية . وكما زادتهُ دراسة الفقه استقامة في التفكير واناة في اصدار الاحكام فكذلك طول صحبته للعلماء زادهُ بعداً عن الاسراف في الترف والانغماس في اللهو

وكانت نشأة أبي مسلم سياسية عملية خالصة ، وقد جمع بين براعة السياسي ومهارة القائد ، وكان ينظر الى ابي جعفر نظرة متأثرة بذلك الازدراء الخفي الذي يضمره رجال العمل وأبطال المبادين للعلماء ، وهذا الاحتقار المستور كثيراً ما يعمي أبعد الناس نظراً وأصدقهم فراسةً عن مشاهدة مزايا الغير وتقدير المواهب . ولذلك لم يتيسر لابي مسلم تقدير ابي جعفر تقديراً دقيقاً ولم يستطع وهو في ريعان نفوذه وعنفوان انتصاره ان يدرك ان هذا الرجل هو نابغة قومه وبائعة عصره ، ورجل العمل والكفاح في حاجة ماسة الى ان يكون ملمًّا من طراز أرسطو معلم الاسكندر ليوقر العلماء . ولم يلق أبو مسلم باله الى تأثير الحوادث في المنصور وكيف أفاد تجربة وخبرة . ولقد عاش أبو جعفر في الظل والخفاء وعاش في الضوء الساطع وعلمهُ الاقامة

في ذلك المنفى البعيد عن الحضارة بتلك القرية النائية المشرفة على الصحراء المترامية الحبيبة ان يطيل التفكير ويجيد وزن الامور . واذا كان الانبياء المرسلون يخرجون الى العالم من اعماق الوحدة والنواحي المهجورة فلا مانع من ان تكون تلك القرية الموحشة مدرسة لسياسيين الملهمين والسياسة ضرب من الفلسفة العملية تشترك فيه التجربة والتفكير والبداهة ، ومن نظر الى الحياة من أعاليها واعماقها وذاق حلوها ومرها لا تزدهف له ابتسامات الملق ولا تغير به الوشايات والنمائم لانهُ تعود مراجعة النفس وألف الحذر

وأول ما وقع في نفس ابي جعفر من أبي مسلم وكان لهُ تأثير في مستقبل العلاقات بينهما هو ما كان من رسول ابي مسلم لما قدم على ابي العباس السفاح عند بدأ ظهوره واستفلاظ امره فقد دخل عليه الرسول لتبليغ التحية وتقديم التهنئة ، وكان أبو العباس جالساً مع ابي جعفر وجماعة من وجوه بني العباس ، فسأل الرسول « أيكم ابن الحارثية » ؟ وكانت أم المنصور جارية بربرية اسمها سلامة . وكان اخوه ابو العباس اصغر منهُ سنًا ولكن ابراهيم الامام اوصى له بالخلافة وآثره بالاسبقية لان امه عربية حرة ، ولا نزاع في ان هذا التفضيل المقصود كان يحز في نفس ابي جعفر الذي كان يعرف قيمة نفسه ويرى انهُ احق بالخلافة واقدر على النهوض باعبائها من اخيه اللين المستضعف . وقد تكأت كلمة رسول ابي مسلم هذه القرحة في نفس ابي جعفر ، وهي في تقديره اهانة لا يغتفرها رجل مثله شديد الحقد الله المداورة

اوفده بعد ذلك السفاح الى خراسان ، وكان السبب الظاهر لذلك هو اخذ البيعة من ابي مسلم للسفاح ولابي جعفر من بعده ، وكان السبب الباطن هو الرغبة في اختبار احوال ابي مسلم وسبر غوره لان خيانة ابي سلمة الخلال ومحاولته نقل الخلافة الى العلويين عقب مجيء الاخبار بوفاة ابراهيم الامام اثارت شكوك العباسيين وجعلتهم يستريبون برجال دعوتهم ويحرصون على الاستيثاق من اخلاصهم وكان لهذه الرحلة تأثير كبير في نفس ابي جعفر فقد رأى بعينه قوة نفوذ ابي مسلم ولمس عن قرب سعة سلطانه ومدى سطوته وتعلق اصحابه به وتفانيهم في طاعته . ويظهر ان ابا مسلم لم يوفه حقه من الرعاية واستخف به بعض الاستخفاف ، واتفق اثناء وجود ابي جعفر هناك ان ابا مسلم أشنه في سليمان بن كثير كبير نقباء خراسان فدعاه اليه وقتله دون ان يستشير في ذلك ابا جعفر او يرجع الى رأي الخليفة . فلما عاد ابو جعفر اقضى الى اخيه بمخاوفه من استفحال نفوذ ابي مسلم وزين له الخلاص منهُ ، ولكن ابا العباس كان يستعظم الاقدام على ذلك ويخشى عواقبه فلم يعمل برأيه وارسله الى واسط ليتولى تضييق الحصار على ابن هبيرة ، وابلى ابو جعفر في هذه المهمة بلاءً حسناً حتى اضطر ابن هبيرة الى طلب الامان ، وجرت السفراء بينهما وجعل لهُ ابو جعفر اماناً وكتب به كتاباً مكث ابن هبيرة

يشاور فيه اصفاء ردحاً من الزمن حتى رضيه واطمأن اليه ، ثم اتخذه الى ابي جعفر فأنفذه الى ابي العباس فأمره بامضائه . وكان من رأي ابي جعفر الوفاء لهُ بما اعطاه ولكن ابا العباس استشار ابا مسلم وكانت فرصة لتوهين رأي ابي جعفر فاشار على السفاح بقتله لان الطريق السهل اذا التيت فيه الحجارة فسد ولا يصلح طريق فيه مثل ابن هبيرة . وعارض ابو جعفر في ذلك معارضة شديدة فألح عليه ابو العباس حتى اضطر الى تنفيذ امره واستطاع ابو مسلم في هذه المعركة ان يتغلب على ابي جعفر ويبرزه ملوثاً بدم الغدر موصوماً بنقض ميثاق العهود

ووجه أبو العباس أبا جعفر عقب ذلك والياً على الجزيرة ، وكانت بينهُ وبين أهلها وقعات وحروب شديدة ، ثم صالحوه واستقام أهل الجزيرة وحدثت هدنة اضطرارية بين الرجلين انصرف خلالها كلٌّ منهما الى معالجة شؤون ولايته واخاد الفتن ورتق الفتوق ، وبعد انقضاء أربعة اعوام عاد الخلاف بينهما على أشده وذلك لان ابا مسلم كتب الى ابي العباس يستأذنهُ في القدوم عليه للحج ، وكان ما يرمي اليه من وراء ذلك هو أن يظفر بشرف ولاية الحج توطيداً لمركزه وتوسيعاً لنفوذه ، وأدرك ابو العباس قصده ورأى في ذلك ما يزيده علوًّا وتمكيناً ، وبعد اعمال الفكر للحيلولة دون ذلك كتب الى ابي جعفر يستحثهُ على ان يستأذنهُ في الحج حتى لا يطمع ابو مسلم في تقدمه عليه ، ورحب ابو جعفر بهذه الفرصة التي عنت لهُ لمراغمة خصمه فلبى الطلب وكتب الرسالة ، ولما علم ابو مسلم بذلك اضطغنها على ابي جعفر

وقدم ابو مسلم الانبار فأمر ابو العباس ان يتلقاه القواد واعيان الدولة وسائر الناس ، وأعظمهُ وأكرمهُ ، وقدم ابو جعفر من الجزيرة ، واتفق اثناء وجودهما بالانبار ، ان دخل ابو مسلم على السفاح وابو جعفر حاضر فسلم على السفاح ولم يسلم عليه فاسترعى ابو العباس التفاته الى ابي جعفر فقال ابو مسلم « اني قد رأيتهُ ولكن هذا مقام لا يقضى فيه حق غيرك » وهو تخلص لبق اكتفى به ابو العباس الذي كان لا يرى كبير بأس في بقاء ما بين هذين الفحلين متباعداً ، وعاد ابو جعفر يلح على أخيه في ضرورة القضاء على ابي مسلم وأغراهُ باغتياله ولكن أبا العباس كان لا يزال يتخوف الاقدام على ذلك

وسارا بعد ذلك في طريقهما الى الحج ، وكانت مباراة محتدمة ومنافسة مكشوفة استطاع ابو مسلم ان يكون فيها أبعد صوتاً وأخلب مظهراً من ابي جعفر ، فقد تحرى استصلاح الطريق وحفر الآبار وكسو الاعراب واغدق عليهم العطايا وتهدهم بالطعام ، ولم يكن ابو جعفر بطيئة ميالاً الى الجود واجتذاب القلوب وكان يؤثر على الدوام ان يكون مختفي الجانب مرهوب السطوة . ولما صدرا من الحج زامت اليهما الانباء بوفاة الخليفة ابي العباس فدعا ابو جعفر الناس الى البيعة ، وبايعهُ ابو مسلم بعد تلكؤ يسير ، وأظهر ابو جعفر لابي مسلم تخوفه من شرّ عمه عبد الله

ابن علي وشيعته . ولما اخذ عمه البيعة لنفسه اشار ابو جعفر على ابي مسلم بالتوجه الى قتاله لان عامة جنده ومن معهُ من خراسان . وكان ابو مسلم يحاول جهده الاسراع في العودة الى خراسان ويؤثر ان يخلي ما بين ابي جعفر وعمه عبد الله ، وكانت الحجة التي أبداها للمنصور هي ان امر عبد الله قليل الخطر وان أمر خراسان أعظم شأناً وأهول خطراً مما يستدعي بقاءهُ هناك ، ولكن أبا جعفر ألحَّ عليهِ وأغرى بعض رجاله بتحويله عن رأيه حتى قبل اخيراً التوجه لاخماد حركة عبد الله ، وقد استلزم القضاء عليها مجهود سنة أشهر انتصرت في نهايتها حركات ابي مسلم الموفقة القوية على حركات عبد الله الضعيفة ، وفي خلال هذه المدة أتم ابو جعفر تدبير الخطة للقضاء على ابي مسلم . ولم يكن ابو جعفر يجهل حاجته الى قائد عظيم ووزير قدير مثل أبي مسلم والدولة في طالعة امرها والمتربصون بها كثيرون والطامعون فيها لا يخلون من قوة وبأس، وكان يعرف ان ابا مسلم هو مدبر المؤامرات الناجحة ورأس الخطط المثمرة ولكنهُ وازن بعقله الحسَّاب بين الضرر والمنفعة ولما قطع بالرأي لم يتردد في تنفيذه لان الرجل كان لا يعرف الهوادة ولا تغلبهُ العاطفة في مواقف الخطورة ومواطن الجد . وقد كان ابو مسلم كما سما مقامهُ وطغى نفوذه اصبح خطراً كبيراً على نفوذ الخليفة ، فليس هو الآن منتدب بيته ورائع دعائم ملكه والحاجز المنيع ضد الثورات ، وانما هو مناظر مخوف الجانب يستطيع ان يفسد عليهِ امره ويسلبهُ ملكه . وكان المنصور قد حكم منذ زمن على ابي مسلم بالاعدام بينهُ وبين نفسه وهو حكم انتجهُ التفكير الهادىء والمنطق الذي لا يلين ولا يرحم وزادتهُ الايام ايماناً بصحة ذلك الحكم وضرورته

وكان ابو مسلم خلال اداء تلك المهمة التي اناطها به المنصور — وقبلها مضطراً اكارهاً — ناقماً على المنصور ، ولم يستطع ان يقمع استخفافه به وموجدته عليهِ ، فكان يأتيهِ منهُ الكتاب فيقرأه ، ثم يلوي شدقه ويرمي بالكتاب الى صديقه الحميم ابي نصر (مالك بن الهيثم) فيقرأهُ ويضحكان استهزاء . وقد ساء ذلك القائد البارع الحسن بن قحطبة فارسل الى ابي ايوب الموريانى وزير المنصور رسالة شفوية خاصة ضمنها ارتيابه بابي مسلم

وكان المنصور يحاول الآن — وقد اتوى ازاحة ابي مسلم من طريقه ألاَّ يبدو تلهفه في صورة الغدر الاثيم والخيانة الصارخة ، والوسيلة الوحيدة لذلك هي ان يستفز أباه ويثير غضبه حتى يخرج عن طوقه ، ويجد المنصور اذ ذاك مسوغاً لقتله امام اتباعه . فلما انهزم عبد الله بن علي وكتب ابو مسلم الى المنصور بذلك ارسل المنصور رسولاً من قبله لاحصاء الغنائم وتحصيل الاموال ، وكان يعلم ما في ذلك من الاساءة الى ابي مسلم الذي تعود الاستئثار بالسلطة المطلقة بلا رقيب ولا حسيب . فلما قدم عليهِ الرسول وعلم بمهمته لم يستطع ان يكظم غضبه

وبسط لسانه في ابي جعفر وهمَّ بقتل الرسول لولا تدخل اصحابه . فعاد الرسول الى ابي جعفر وأخبره بذلك . وكان المنصور يحاول جهده ان يحول بينه وبين خراسان فأرسل اليه رسولاً آخر معهُ كتاب يخبره فيه بأنهُ قد ولاه مصر والشام وأنها احسن لهُ من خراسان وان يوجه الى مصر من يشاء من قبله ويقيم هو بالشام ليكون قريباً من الخليفة . فلما جاء هذا الكتاب عرف غرض ابي جعفر وغضب واعتزم المضي الى خراسان وأقبل من الجزيرة بجماً على الخلاف . والواقع ان ابا مسلم كان قد تودَّد السلطة وآن يتطع برأيه ويتصرف بحسب هواه وان يأمر فيطاع ويستشار ويستصح فيعمل بمشورته ويؤخذ بنصيحته ، ولم يكن يستطيع الآن ان يصالح ويتملق ويخطب الود ويلتمس الرضى وغير غريب أن يتحدى ويغاضب . ومن الصعب على الانسان ان يصل الى ذروة السلطة المطلقة والسيطرة الكاملة على الناس ثم يتنازل عن ذلك كله في يسر وسهولة وعند اول اشارة ، وقد تحوَّل الامر بأبي مسلم من عدم الاكتراث لأبي جعفر الى العناد والاصرار ومن العناد والاصرار الى التحدي الظاهر والمخالفة الصريحة وقد زاده الانتصار الاخير اعتزازاً برأيه وادلالاً بمكانته وشدة شعور بشخصيته ، وكان المنصور من ناحية اخرى يريد النظام ويأبى الفوضى في أية صورة من الصور ومثل هذا الرجل لا يطيق ان يرى منافساً له في سلطانه ولا يسمح ان يعيش في ظل ملكه الوريف معارضاً واحداً هادىء البال مصون الدماء

وخرج ابو جعفر من الانبار الى المدائن وكتب الى ابي مسلم في المصير اليه . فكتب اليه ابو مسلم وقد نزل الزاب وهو على الرواح الى طريق حلوان « انهُ لم يبق لامير المؤمنين اكرمهُ الله عدوٌّ الاَّ أمكنهُ الله منهُ ، وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان ان أخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة غير انها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فان ارضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك وان أبيت الاَّ ان تعطي نفسك ارادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنًّا بنفسي »

ولما وصل هذا الكتاب الى ابي جعفر كتب الى ابي مسلم « لقد فهمت كتابك وليست صفتك صفة اولئك الوزراء النششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم قائما راحتهم في انتشار نظام الجماعة فلمَ سويت نفسك بهم وانت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الامر على ما أنت به ؟ وليس مع الشريطة التي اوجبت منك سماع ولا طاعة واسأل الله ان يحول بين الشيطان وتزغاته وبينك فانهُ لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طيبه من الباب الذي فتحهُ عليك » واختار ابو جعفر من رجاله ابا حميد المروروزي ليحمل الكتاب الى ابي مسلم ورسم له الخطة التي يسلكها بعد تقديم الكتاب وهي ان يبدأ فيكلم

ابا مسلم بأليق كلام ويلوّح له بالوعود ويمنيه الاماني ويستفرغ في ذلك جهده ويحذره عاقبة البغي فان أصرّ على المخالفة وصرّح بالعصيان ويئس منهُ يبلغهُ هذه الرسالة الشفوية وهي ان امير المؤمنين يقول له « لست للعباس ولا برتي من محمد ان مضيت مشاقًا ولم تأتني ان وكلت امرك الى احد سواي وان لم أنل طلبك وقتلك بنفسي ولو خضت البحر لخضتهُ ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى اقتلك أو أموت قبل ذلك » واوصى المنصور بن حضرهُ من بني هاشم بان يكتبوا الى أبي مسلم يعظمون امره ويشكرون ما كان منهُ ويحذرونهُ عاقبة الغدر ويأمرونهُ بالرجوع الى امير المؤمنين وان يلتمس رضاهُ

***

وسار ابو حميد في جماعة من اصحابه ممن يثق بهم حتى قدموا على ابي مسلم بحلوان ، فدخل ابو حميد ومعهُ اصحابه ودفع الكتاب الى ابي مسلم ، وقال لهُ ان الناس يبلغونهُ عن امير المؤمنين ما لم يقلهُ وخلاف ما عليهِ رأيه فيهِ حسداً وبغياً يريدون ازالة النعمة وتغييرها ونصح لهُ ان لا يفسد ما كان منهُ ، فكبر هذا الكلام على ابي مسلم لان أذنه لم تعود سماع النصائح فالتفت الى ابي حميد وقال لهُ في كبرياء وأنفة « متى كنت تكلمني بمثل هذا الكلام » فقال لهُ أبو حميد « لقد دعوتنا الى طاعتهم أفنريد حين بلغنا منتهى أملنا ان تفسد أمرنا وتفرق كلمتنا ، وقد قلت لنا من خالفكم فاقتلوه وان خالفتكم فاقتلوني »

وكان الى جانب أبي مسلم صديقه الحكيم مالك بن الهيثم ، فأقبل عليهِ وقال « أما تسمع ما يقول هذا ! ما هذا بكلامهِ يا مالك »

فقال لهُ مالك « لا تسمع كلامه ولا يهولنك هذا منهُ ولعمري لقد صدقت ما هذا كلامه ، ولما بعد هذا أشد منهُ فامض لامرك ولا ترجع فوالله لئن أتيته ليقتلنك وقد وقع في نفسهِ منك شيء لا يأمنك أبداً »

وأراد ابو مسلم ان يخلو بنفسهِ فصرف القوم وأخذ يفكر ويقلب الامر على وجوههِ ، ولما أنبههُ التفكير استدعى بزك وكان موضع ثقته وكاتم سره . فلما أقبل نحوه نزك التفت اليهِ ابو مسلم وهو يحاول ان يخفي اضطراب خواطره ويتظاهر بقلة الاهتمام وقال لهُ « يا نزك اني والله ما رأيت طويلاً أعقل منك فما ترى ؟ فقد جاءت هذه الكتب وقد قال القوم ما قالوا » فقال لهُ نزك « لا أرى ان تأتيه وأرى ان تأتي الري فتقيم بها فبصير ما بين خراسان والري لك وهم جندك ما يخالفك احد ، فان استقام لك استقمت لهُ وان أبى كنت في جندك وكانت خراسان من ورائك ورأيت رأيك » واطمأن أبو مسلم الى هذا الرأي وعوّل على الاخذ بهِ

ودعا أبا حميد وقال لهُ « ارجع الى صاحبك فليس من رأيي ان آتيه »

فقال لهُ أبو حميد « اوقد عزمت على خلافه ؟ فقال لهُ أبو مسلم « نعم »

فقال لهُ أبو حميد « لا تفعل » فقال ابو مسلم وقد بدت على وجهه علامات الاصرار « ما أريد ان القاه »

***

وهنا لم يجد ابو حميد بدًّا من ان يبلغهُ رسالة ابي جعفر الشفوية . فلما سمعها ابو مسلم وجم طويلاً ، وأخذت تتكشف لهُ طبيعة الرجل الذي يريد مخالفته وكأنما رفع عن بصره الغطاء في تلك اللحظة وأدرك انهُ أفرط في تحدي أميره ، وكان ابو مسلم يعلم جيد العلم ان سلطان ابي جعفر قائم على دعامتين قويتين ليس من السهل هدمهما وهما قوة الدين وشرف النسب . وقد حاول ابو مسلم من قبل ان ينتزع جانباً من هذا الشرف ويخلعه على نفسه وذلك بادعائه مرة انهُ من ولد سليط الذي كان ينسبهُ الامويون الى عبد الله بن العباس وبمحاولته مرة أخرى ان يخطب الى المنصور عمته أميمة بنت علي . وراعهُ هذا التهديد المكشوف الذي يشف عن صدق العزيمة والاستهانة بالخطر ، وكان ابو جعفر عند ما حاول استفزاز ابي مسلم قد احتاط للامر وأخذ يحرك المنافسة والحسد في قلوب مناظري ابي مسلم وحاسديه ، فكتب الى ابي داود خليفة ابي مسلم على خراسان يوليهِ امر خراسان ما بقي ، فكتب ابو داود الى ابي مسلم من رسالة انا لم نخرج لمعصية خلفاء الله واهل بيت نبيه صلعم ، فلا نخالفنَّ أمامك ولا نرجعنَّ الاَّ باذنه وواقاه الكتاب وهو في تلك الحال من تبلبل الفكر وتضعضع العزم فزاده همًّا ورعباً ، وهنا ارتبكت اعصاب الرجل وتحللت عزيمته فاستدعى رسول ابي جعفر وصديقه مالكاً وقال لهما « اني قد كنت معتزماً المضي الى خراسان ثم رأيت ان اوجه ابا اسحق الى امير المؤمنين فيأتيني برأيه فانهُ من اثق به» ولما قدم رسوله على المنصور تلقاه بنو هاشم بكل ما يحب وقال له ابو جعفر اصرفه عن وجهه وذلك ولاية خراسان وأجازه فرجع ابو اسحق الى ابي مسلم وقال له انهُ لم يجد من القوم ما ينكره وانهم معظمون لحقه واشار عليه ان يرجع الى امير المؤمنين فيعتذر اليه مما كان . وكان ابو جعفر قد نجح في ان يهز ثقة الرجل بنفسه وان يعطل قوة رأيه القاطع فأجمع على العودة الى الخليفة لانهُ لم يجد بدًّا من ذلك وحاول نيزك ان يثنيه عن الرجوع ولكن ابا مسلم كان يشعر بقوة قاهرة تجيره على الذهاب ، ولما أطال عليه نيزك مثل ابو مسلم قائلاً

ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الاقوام

فقال له نيزك وقد تجزع اقناعه « اما وقد عزمت على هذا فاحفظ عني واحدة ، اذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع لمن شئت فان الناس لا يخالفونك » وكتب ابو مسلم الى ابي جعفر يخبره انهُ منصرف اليه ، ولما طوى اكثر الطريق تلقاه رجل من قواده وحذره ونصح له بالعودة فاشتدت به المخاوف وكثرت هواجسه وخايله فكرة العودة فتردد وتلبث ولكن الشكة المحكمة لم تمكنهُ من الافلات واحس بشدة وطأتها وتجزه عن النجاة فاستسلم للقضاء ، وكان المنصور الذي لا تفد حيله يدس عليه رجالاً ليبلغوه ما يغني عنهُ الوساوس ويوحي اليه الطمأنينة ، ولما شارف المدائن امر المنصور الناس فتلقوه واحتفى بمقدمه القواد والرؤساء واعيان العباسيين ، ولما دخل المدائن كان النهار قد ادبر وارخى الليل سدوله وجلس ابو جعفر ينتظر قدومه وقد حفهُ صمت عميق ووقار رهيب ، ودخل ابو مسلم على المنصور وسلم والتقى الرجلان وجهاً لوجه على ضوء الشموع ، وكان احدهما وهو المنصور اسمر اللون رقيق السمرة طويلاً نحيفاً خفيف العارضين عليه ابهة الملك وجلال النسك ، وكان الآخر — وهو ابو مسلم — قصيراً اسمر احور العين عريض الجبهة وافر اللحية ساهم الوجه شارد الفكر يحاول جهده ان يتماسك ويتجلد ، ولم يغب عن عين المنصور ما يعانيه ابو مسلم من الاضطراب الخفي فتلطف معهُ ورفق به واحتفى بمقدمه وتهلل في وجهه المهيب الدائم العبوس تلك الابتسامات التي يتخذها الساسة قناعاً يستترون به مبهم النيات وخفيّ الاغراض . ولم يطل قيام ابي مسلم فقد أذن له الخليفة بالانصراف لينفض عنهُ غبار السفر ويرتاح من وعثائه ، وقد حاول كل منهما خلال تلك اللحظات القصار التي تقضيها معاً ان يتغلغل بنظراته الحادة الى سريرة صاحبه ، وخرج أبو مسلم وقد ذهب به الفكر كل مذهب ، ولعله لم يشعر تلك الليلة بما حفلت به المدائن من اصوات البشائر وبما اقيم لقواده ورجال حاشيته من الحفلات والولائم ، وأوى الى فراشه مبكراً ، ونستطيع ان نتصور ابا مسلم في تلك الليلة متململاً فوق فراشه لا يقر لهُ قرار ولا يهدأ لهُ بال ، ولم تستطع مظاهر الحفاوة والتكريم التي قوبل بها ان تبدد مخاوفهُ وتنفي عنهُ الافكار السوداء وأخذت كلمات التحذير التي قالها له صديقه ابو نصر وصاحبهُ نيزك تدوي في اذنه دوياً متصلاً وترن رنيناً محزناً ولعله اخذ يعجب من نفسه وكيف جاء الى المدائن وسعى الى حتفه وكيف خذلتهُ شجاعتهُ واستولى عليه الرأي وهو الجندي الباسل والسياسي الخطير ، وكان يشعر بمنزلته وأنهُ وحيد في عالم غريب وان الخطر الذي يهدد حياته قد صار على كثب منهُ ، ولما مضى الهزيع الاول من الليل هدأت الحركة في المدائن وهمدت الاصوات ، وران الكرى على الجفون ولكن بقي رجلان ساهرين احدهما ابو مسلم الذي كان يفكر في مصيره وما تخبئهُ

لهُ الاقدار ويخشى ان يغدر الخليفة بأقدر رجاله وأعقل وزرائه ، والآخر المنصور وقد اخذ يلوم نفسهُ لانهُ لم يغتنم الفرصة ويقتل ابا مسلم عند ما ملأ عينيهِ منهُ ويريح نفسهُ ويشفي غله وصار يستطيل الليل ويرقب تباشير الصباح في قلق وحذر

***

ولما اقبل الصبح استدعى المنصور اربعة من رجال حرسهِ الاشداء وعرفهم بالمهمة الموكولة اليهم فهالهم الامر ولكنهم لم يجترئوا على المخالفة وأوصاهم بالوقوف خلف الرواق وان يبرزوا اذا ارتفع صوتهُ وصفق بيديهِ ويقتلوا ابا مسلم

وأصبح ابو مسلم متعباً حزيناً لما عاناه من ارق وتسهيد وما ساوره من افكار وهموم وكانت بينه وبين عيسى بن موسى ابن اخي المنصور صداقة ومودة فآثر منزله وتناول عنده الغداء وفي خلال الحديث انشد عيسى

سيأتيك ما افنى القرون التي مضت وما حل في اكناف عاد وجرهم

ومن كان اناى منك عزًّا ومفخراً وانهد بالجيش اللهام الرعرم

فالتفت اليهِ ابو مسلم وقد امتقع وجهه وقال له « هذا مع الامان الذي اعطيت » فقال لهُ عيسى اعتق ما املك ان كان هذا لشيء من امرك وما هو الا خاطر أبداه لساني « فقال ابو مسلم فلنس الخاطر والله اذن » وبعد قليل وافاه رسول الخليفة يدعوه الى الحضور فقال له عيسى لا تعجل بالدخول حتى احضر وأدخل معك ، فابطأ عيسى بالوضوء ومضى ابو مسلم فلما هم بالدخول على الخليفة جرده البواب من سلاحه فدهش لذلك ، ولما مثل بين يدي الخليفة شكا اليهِ ما صنع به فطيب المنصور خاطره واقبل بعد ذلك عليهِ يعاتبهُ ويحصي عليهِ ذنوبه ويدعي على زلاته وشدد النكير على سلوكه نحوه وكيف كان يتقدمهُ في طريق الحج وكيف كان يكتب اليهِ فيدأ بنفسهِ وكيف أقدم على قتل سليمان بن كثير مع بلائهِ في دعوتهم وكان ابو مسلم يرد على ذلك بكياسته المعهودة ، ولما اكثر عليهِ المنصور أخذته العزة فقال لهُ « لا يقال لي هذا بعد بلائي في دولتكم وما كان مني » فغضب المنصور وقال لهُ « لو كانت امة مكانك لأجزت ناحيتها اما عملت ما عملت في دولتنا وبريحنا ولو كان ذلك اليك ما قطعت فتيلاً » وسبهُ بعد ذلك وذكره كيف تطاول الى خطوبة عمته وادعى انهُ من ولد سليط ، وغلت مراجل المنصور وافتقت في نفسهِ شهوة الانتقام ولاحت في عينهِ بوارق الغضب والحقد ولوائح الغدر وأدرك ابو مسلم خطورة الموقف فأخذ يحرك يده ويقبلها ويحاول تهدئة ثائرته ، وتزايد غضب المنصور وصفق بيديهِ فبرزت

الرجال بالسيوف ولم ترد أول ضربة على ان قطعت حمائل سيفه فقال « يا أمير المؤمنين استبقني لعدوك » فقال له المنصور « لا أبقاني الله اذن وأي عدو اعدى لي منك » وصاح برجاله « اضربوا قطع الله ايديكم » ولما توالت على ابي مسلم الطعنات خارت البقية الباقية من شجاعته والطوى إباؤه وارتجف من الموت هذا الرجل الذي اذاق الالوف طعم الموت وجرعهم مرارته وصار يلتمس العفو في ذلة وضراعة حتى عجب المنصور وقال له « العفو وقد اعثورتك السيوف » .

ووقف المنصور امام فريسته كالوحش الضاري ينشد

زعمت ان الدين لا ينقضي فاستوف بالكيل أبا مجرم
سقيت كأساً كنت تسقي بها امرّ في الحلق من العلقم

ودخل بعد ذلك عيسى بن موسى وسأل عن ابي مسلم فقال له المنصور « ها هو ذاك في البساط فأبدى عيسى اسفه وتفجعه وذكر اخلاص ابي مسلم وطاعته فقال له المنصور « خلع الله قلبك وهل كان لكم ملك او سلطان او امر او نهي مع ابي مسلم » وامر المنصور فحملت بقايا ابي مسلم ورمى بها في دجلة وبعث الى عدة من قواده بجوائز سنية واعطى جميع جنده حتى رضوا ورجع اصحابه وهم يقولون لقد بنا مولانا بالدراهم

ومرّت على هذه الحادثة اعوام وبينما كان المنصور ذات ليلة يسمر مع جماعة من خاصته قال لهم : « ثلاثة كنّ في صدري شفى الله منها كتاب ابي مسلم اليّ وانا خليفة عافانا الله واياك من السوء ، ودخول رسوله علينا وقوله ايكم ابن الحارثية وضرب سليمان بن حبيب ظهري بالسياط »

***

وطوى عصر المنصور ودارت الايام دورتها وضرب الدهر ضرباته وتسنم عرش الخلافة احد احفاده وهو عبد الله المأمون وجلس ذات ليلة يسمر مع رجال حاشيته ودار الحديث على أبطال التاريخ فقال لهم اجل ملوك الارض ثلاثة وهم الذين قاموا بنقل الدول الاسكندر المقدوني واردشير وابو مسلم الخراساني !

وقد كان قتل ابي مسلم ضرورة سياسية ومحاولة جبارة قام بها المنصور لصد تيار النفوذ الفارسي واطاحها بعده الرشيد بايقاعه بالبرامكة وكررها المأمون باغتياله الفضل بن سهل ولكنهم لم يوفقوا في تلك المحاولة الشيقة التوفيق كله لان تغير مجرى الحوادث في كثير من الاحوال من وراء قدرة الرجال ولو كانوا من طراز المنصور والرشيد والمأمون

اوراق متناثرة من ديوان

الادب العالمي

كامل محمود حبيب

— ١ —

لينين والرواية

أفكان لينين يعشق الرواية ويقرؤها ويكبُّ عليها وهو الرجل الصلب الجاف الذي عاش عمرهُ تضطرب في نفسه فكرة واحدة سيطرت عليه فسلبتهُ من كل فكرة اخرى ، تلك هي الرسالة التي أخذ على عاتقه ان يقوم بها ويوفر عليها جهوده ؟ أفكان يجد في نفسه هوًى للرواية ونحن نرى فيها مسلاة وملهاة تملأ الفراغ وتقطع الوقت ، وهو . . . هو لينين رجل العمل والجد ؟

نعم ، لقد قرأ لينين الرواية واغرم بها ، رواية واحدة كان يجد فيها الاستاذ والعلم والمرشد، والنبراس الذي يهتدي بهديه ويستلهم منهُ الفكرة ، تلك هي « طيب القرية » لبلزاك . ولكن اي فكرة سامية في هذه الرواية فتجذب اليها لينين فيقرؤها ويقرؤها فقط ؟ إن طيب القرية (بياسيس) الذي صوّره بلزاك بقلمه الرائع واسلوبه الجذّاب رجل عاش في الريف في منأى عن كل ما يشغل الناس وينفث فيهم روح التناحر الدائم . . . عاش هناك ، على بضعة أميال من جرينوبل ، ليضرب للناس مثلاً عالياً في الدكتاتورية الصالحة التي نهض بها — اول ما نهض — الامم

اخذ الطيب بياسيس نفسه بأن يبذر في نفوس الناس الذي عاش بينهم ما يبذر المعلم الامين في نفوس تلاميذه الصغار من غراس الخلق الطيب والعلم الصحيح . فراح يطهر الناحية من أدران الجهل والتكاسل والفتور ، وهبّ يرفع من اسباب العيش ومستوى الحياة فأحسَّ الناس بالحاجة الى اشياء ، وهو يقول « إن الذين لا يستشعرون الحاجة هم الفقراء حقًّا » . وألحت الحاجة على صحابته فاندفعوا يستبدلون مع الاجانب متاعاً بمتاع . وحين بدا هو في اعينهم نشيطاً دؤوباً مقداماً مصلحاً تهافتوا اليه يولونهُ ثقتهم ومحبتهم فأخرج منهم ناساً فيهم الدأب والرقهية

وجاء جينتاس ، وهو رجل حرب ، ليرى الطيب ، فنزل ضيفاً مكرماً في داره ، وراح

الطبيب يكشف له عن بعض ما كان منهُ ويبسط امامه خواطره وآراءه و ... وآماله ...

وعلى حين فجأة مات الطبيب

والقارىء يرى في الطبيب رجلاً بارزاً لا يشبهه الصل ولا يقعد به الجهد ، لا يهدأ ولا يستقر تدفعهُ العاطفة والعقل معاً الى الغاية التي ينتهي . أفلم يكن لينين من هذا الطراز ؟ أفلم تحل فيه روح الطبيب فتشيع في نفسه مبادئه حين يقول « ان الذي يعيش عاطلاً هو لصٌ اجتماعي » وحين يقول « لا بدَّ ان يعيش الرجل بين الناس نزيهاً » أو حين يقول « ان الذي يدرك معنى الحكم ، ويجد في نفسه القوة على حمل اعبائه ، يجب عليه حين يمسك بالدفة ان يديرها في حزم وصمت » ؟

وروعة الكتاب تبدو في مواضع كثيرة اوضح فيها ان المادة هي شغل الناس الشاغل . ولقد اراد الطبيب ان يهب نفسه لما فيه صلاح القوم فاضطربت في رأسه فكرتان : ايعيش بين الناس طبيباً يداوي علتهم ويحنو عليهم ام هو يسعى جهده ليقر بينهم السلام والهدوء ؟ وتنازعهُ عاملان : أفيكون طبيباً او قسًّا ؟ وخيَّل اليه ان الانسان يصغي في رضا لمن يخفف عنهُ آلامه اكثر مما يطمئن الى من يمنيهم ويخوّفهم ، فراح يسهر على مرضاه ، واستقر الى جانب الفلاح الذي يكدح عمره لينال قوت يومه . ولكن الانسانية الخامدة لا ترقى الاَّ على سلم من الاعتداد بالذات ، فهذا العظيم الذي يقذف بنفسه في خضم الجهاد ، هو لا ريب يسعى لينفث روح الاعتداد بالنفس في نفوس الشعب لينشىء خلقاً جديداً غير ان الجيل الجديد سيكون ولا شك ماديًّا

ولعلَّ لينين نفسه شعر بما شعر به الطبيب فاندفع ينهج نهجهُ

ثم تجيء الفكرة الدينية تطن — دائماً — عن نفسها ولقد قال الطبيب : « إن الكاثوليكية كتلة من التعصب والخرافة تآلفت في إتقان ودقة ، يستطيع العقل الخصيف ان يمتد اليها بالتطهير والاصلاح » ولكنهُ حين اغتر في عمله بين الفلاحين رأى انها « هي القوة الوحيدة التي تضم في اضلعها كل المبادىء الاجتماعية السامية وتسبغ عليها من روح الحياة والوحدة السياسية » وان الدين « لم يكن — في يوم ما — سلوة يستتر بها المرء بل هو اداة صالحة تقود الجماعات — دائماً — الى النجاح » . وحين أخذ لينين بهذا المذهب اصبح هو في روسيا الرجل المحترم المقدَّس ، وغدا حياد القانون الارضي وحارسه

ولقد اخذت كل من روسيا والمانيا وايطاليا بالمبدإ الذي رسمهُ طبيب بلزاك « . . . إن اخلاط الناس هم سفلة القوم الذين يسهرون على حماية الامة . . . واذا هبَّ رجل عظيم يريد الاصلاح فلا بدَّ ان يعتمد على الحكومة والاَّ القى بالناس في غمار الثورة . . . ان مجالس الشورى والبرلمانات والديموقراطية كل اولئك خور وضعف وضياع للوقت دون ثمرة تجنى . . . ياعجباً ،

يا عجباً! كيف بمجلس قوم يتنازعون بينهم الرأي ، والخطر على خطوات منهم يحدجهم بنظرات يتطاير منها الشرر فلا يستطيعون دفعه ! لا بد ان تكون السلطة والقانون و . . . اشياء تقبض عليها يد واحدة . . . يد واحدة فقط »

واخيراً ننشر امام اعيننا رسم الدكتاتور الصالح الذي نادى به بلزاك قائداً وحاكماً ، والذي سار على ضوئه لينين ومن بعده الزعماء ذوو الحزم والعزم مثل هتلر وموسوليني وستالين ... :

«ان يكون بعيد النظر ثاقب الفكر ، لا يطيش ولا يذهب بلبه الغرور والخداع ، وان ينزع عن نفسه شهواتها واطماعها ليسيطر على مواهبه في نزاهة وعدل ، في عزم وقوة ، وان ينفذ اوامره في صرامة وشدة فلا يضطرب ولا يختلج ولا يرحم ولا يصغي الا لنداء ضميره هو ، وان يستلب عن نفسه الشك والثقة العمياء فلا يطمئن الى رفاقه واعوانه دون تجربة ، والا يكون سهلاً ليناً ولا صلباً جامداً ، وان يكون على اهبة فلا تدهمه الحادثة فيضطرب لها ويفزع ويتزلزل زلزالاً شديداً ، ثم هو يجب عليه ان يجول بين الناس يشع عليهم من عبقريته وينفذ الى قلوبهم من خلال أحاديثه الرقيقة واظراته النفاذة ، وألا تشغله الصغائر بل هو يعنى دائماً بالنتائج . . . ذلك هو الرجل الذي يرقى درجة فوق الانسانية »

تلك هي المبادىء التي بذر بلزاك غراسها في عقل لينين فتأثر بها وشغفته حبًّا . . .

— ٢ —

اللحن الضائع لسافو

في الاربعين السنة الاخيرة انحسرت رمال الصحراء المصرية عن ألحان من الشعر الاغريقي فيها الروعة والجمال، طوّحت بها المسبحية الى أعماق النسيان والاهمال حين راحت تحط من قيمة الأدب الوثني في اعين الناس ، فكشف كل من جرينفل وهنت عن مقطوعات من شعر سافو ، وعثر العالم الايطالي ميديا تورما على اربع قطع ونصف من الشعر كتبت في القرن الثاني قبل الميلاد على قطع من الفخار ، عرف هو — عند ما قابل بينها وبين الحان أخر — انها لسافو. وهي قطع من رائع الشعر تصف حفلاً حشد في اقليم كأنه الفردوس فيه الماء والزهر والاشجار وفي اضعافها دعوة الى أفروديت معاصرة سافو لتحضر الحفل مكللة بالغار وفي يدها كأس ذهبية فيها الرحيق

والاسطر الاربعة الاولى مضطربة غير ان القارىء المدقق يستطيع ان يستشف من وراءها

امرين : الاول ، انها تصف ناراً تتألق في السماء علامة يستبشرون بها كلما همّ الناس بعمل ذي خطر ولعل العمل هو حفل زفاف والنار هي علامة رضا الآلهة ، فالليلاّ كانوا يعتقدون ان النار والبرق والرعد سمات البشرى ترسلها الآلهة الى الناس . والثاني ، ان سافو تطن عن نفسها امام الزمر في كريت . ولكن كيف ذهبت سافو الى كريت ومتى ؟ إن التاريخ يقول انها نفيت من وطنها وهي طفلة الى سليسيا ولعلها لبثت في هذه الجزيرة عمراً من عمرها في ذهابها او في إيابها ! ومهما يكن في الامر من شيء فهي التي تقول« على اغم الموسيقا وحول المذبح المقدس اندفع فتيات كريت يرقصنّ في ارجل لدنة وبطأنّ الازهار الجميلة اليانعة في خفة . . » وفي هذا اللحن نجد سافو تذكر حفل كريت في حنين وشوق

واذا اغفلنا الاسطر القليلة المضطربة استطعنا ان نترجم ما بقي من اللحن « . . . ما اجمل اشجار التفاح المتشابكة والبخور يتصاعد سحباً عطرية من المعبد ، والماء البارد يتدفق في صخب بين الشعاب ، والظلال تنشر ثوبها الرقيق على المكان كله ، وحفيف الاشجار يبعث كانه صوت الناس المقدس ، والخيل ترعى في الرياض المزهرة ومن فوقها أكمام زهر البلوط ، والنسيم يهب رقيقاً ينفح ريحه العطر الشذي... ا تعالَ الآن ، ايها القبرصي .. تعالَ لتأخذ زهرتك ، ولتصب في رقق رحيقك الشهي في الكأس الذهبية ، ثم انغمث فيها اللذة والسعادة ا »

وهذه اغنية ترددت — ولا ريب — يوم زفاف سافو نفسها . والاستاذ ميديا يقول انها اغنية خاصة لم ترتفع بها الاصوات لدى المعبد بل كانت تترنم بها هي ورفيقاتها . وحجته في ذلك ان اغاني العرس كثيرة وعديدة ، وومضات البرق تميد الى النفس ذكرى ايولون وهو يسلم هيرا المشاعل لتحملها في عرس فيلا وتيتس أبوي« أخيل» اوهي تذكر الناس بالنار التي شبت من جانب السماء حين ربط بين زيدو وإينوس بالرباط الوثيق في الكهف . ولعل حديقة التفاح المقدسة هي حديقة افروديت فهي كانت تقدس التفاح لانهُ عندها علامة انتهاء عهد العزوبة وابتداء عهد الزواج . ثم هي ذكرت سحب البخور وهي تتصعد في سماء المحراب علامة نجاح الحفل . ولقد خاطبت سافو الكريتيين لانهم رفاق زوجها فهي لم تناد واحداً منهم بل كانت تنادي زوجها وحده

وانهُ ليستوقف النظر ان نرى سافو تدعو أفروديت الى المهرجان وعلى رأسها النار وفي يدها الكأس الذهبية مترعة بالرحيق لتقدمها هي الى الزوج فيتقبلها وعلى شفتيه ابتسامة علامة الرضا والترحيب بحياته الجديدة ، فلقد كان يخيل الى سافو ان الآلهة يحفون من حولها وانها تتحدث اليهم ؛ فهي تدعو افروديت ربّة الزهر لتقوم لها بما يقوم به هيرس في اعراس الاولمب، او لعلها كانت تناجي زهرة من بين الازهار العديدة التي نثرتها في ارجاء المكان كأنها هي ربة الزهر

ودوّى لحن عرس سافو تدوية شديدة ، في عالم الآثار ، فما هو كغيره من الالحان الاخرى لانها كشفت لنا عن بعض ما يضطرب في نفس المرأة في ليلة العرس من نوازع فيها اللذة والطرب ، وفيها السحر والسعادة ، ثم هي استطاعت بعد ذلك ان تتغلل في النفوس بعبارات فيها السهولة واللين ، وفيها الحنان والروعة ، ثم هي تعيد العبارة مرات ومرات فما يمجها الذوق ولا تعافها الاذن لانها تتفتت فيها في كل مرة من روحها الجذابة ونغمها الساحر وعاطفتها المتسعرة

والآن فيا مصر ، اقيضي علينا مما تكتمين عنا الحاناً أخر فيها السحر والجاذبية والجمال فلطالما لجت بك الضنة

— ٣ —

مؤتمر ورق البردي

في اواخر اغسطس الماضي عقد المؤتمر الخامس لعلم البردي وحضره اكثر من ستين وماثة عالم من انحاء اوربا واميركا . وغريب ان تجتمع لورق البردي المؤتمرات فيخف اليها العلماء من كل صوب ! وماذا في ورق البردي حتى يعنى به العالم ويوليه من عنايته وهمته ووقته ؟

لقد كان لورق البردي المكان المرموق عند قدماء المصريين والاغريق والرومان فهم قد كتبوا عليه كتبهم ودونوا وثائقهم العامة والخاصة ، والبردي ورق مصنوع من نبات مائي كان الى حين ينبت على ضفات النيل ، وهو سريع البلى غير ان جو مصر الجميل وتربتها الجافة ساعدا على ان يجتاز هذا الورق القرون الطويلة وهو في جدته وبهائه لم تعبث به الايام

وكان تاريخ الادب يبتدىء من القرن الرابع الميلادي ، فجاء البردي يفتح امامنا صفحة اخرى يمتد تاريخها الى ما قبل ذلك بقرون

وكشف عن ورق البردي — اول ما كشف عنهُ — في سنة ١٧٧٨ حين عثر جماعة من اهالي مديرية الفيوم على حزمة منهُ في اناء خزفي فاشترى احد الهواة بعضها بالثمن البخس ، واحرق القوم ما بقي حين لم يجدوا فيهِ فائدة ترتجى . واستطاع كاردينال بورجيا ان يحصل على هذه الاوراق فطبعها في سنة ١٧٨٨ فاذا فيها اسماء العمال الذين قاموا بأعمال الري سنة ١٩ بعد الميلاد

وفي اثنتين السنة التالية لم يعثر الا على وريقات لا تشفي غلة بل بعض قطع من ادب هوميروس وهيرميديس تبرّب ديموستنيس والكمان

وفي سنة ١٨٧٧ اكتشف اكبر قدر من هذا الورق وهو قرابة الف وثيقة تجمع بين

اسطرها ما كان من امر مدينة ارسينو ، وهذه المجموعة حفظها الارشيدوق رايز النمسوي

وجاءت سنة ١٨٩١ تحمل في اضافها حزماً من ورق البردي فيها الادب وفيها العلم معاً فطبعت دار الآثار الانجليزية بعضها وهي: رسالة ارسطو المفقودة في تاريخ اثينا ، والاشعار لهيرودس وبعض خطب هيبريدس ، ورسالة مستفيضة في الطب ، ثم بعض ما كتب هوميروس وديموستنيس واسوكراتيس ، وفي ذلك الحين كشف عن وثائق فيها شذرات لهوميروس وافلاطون ثم المأساة المفقودة ليوريبيدس

فابتدأ حب الاستطلاع يدفع الباحثين الى دراسة ما يزجيه الينا البردي من الادب والتاريخ ، فتوزعتهُ الايدي بين برلين ولندن وفينا وجنيف ، وتناولتهُ العقول بالبحث في نواحيه العديدة ...

***

ومنذ اربعين سنة تدفق سيل من اوراق البردي فأفعم مكتبات اوربا ومصر واميركا بمئات من القطع الادبية وآلاف من غير الادبية ، ذلك عدا بعض كتب في اللغة المصرية القديمة ونسخة اغريقية من الكتاب المقدس تسبق كل ما بين ايدينا من هذا الكتاب بمئتي سنة

ولقد افادنا البردي من الناحية الادبية فائدة عظمى ، فهو قد كشف لنا عن بعض ما كتب عظماء الفلاسفة والكتّاب والشعراء مثل : ارسطو وهيبريدس وهيرودس وميناندر وتيموثيس ، وقطع لسافو وبندار ومأساة سوفكليس ، ثم هو قد نشر على اعيننا كل ما نعرف الآن عن الادب والعلم عند قدماء المصريين ، والتي بين ايدينا بعض المخطوطات القبطية التي اوضحت لنا عن الفكرة الدينية الصحيحة ...

وجاءت الوثائق غير الادبية تهدينا الى المنهل العذب الصافي الذي تغترف منهُ كل ما تصبو اليه النفس من الحقائق عن تاريخ حكم البطالسة والرومان والبزنطيين والعرب في مصر ، ثم الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مصر في مدى الف سنة

***

والباحث في القانون يجد مئات من الوثائق تجمع في ثناياها المواد القانونية والمحاكمات العامة من عهد المصريين القدماء حتى العهد البزنطي ، واخرى تشمل خطابات خاصة تلقي على الحياة في عصور المدنية السحيقة

اقليس في كل هذا ما يبعث على ان تجتمع المؤتمرات وان تشاد المعاهد العلمية لدراسة ما جاء في اضاف ورق البردي من ادب وتاريخ وعلم ؟

الدهن وأنواعه

بحث لغوي نفيس

لمعروف الناصري حامي الكرملي

احد اعضاء مجمع اللغة العربية الملكي

١ — تصدير

في معاجم لغتنا الشريفة ، شائبة شوّهت جبينها الناصع ، وكادت تنسي ما في سائر جسمها وقوامها من المحاسن والبدائع وهذه الشائبة هي انك تجد احياناً في تلك الدواوين — على اختلاف مؤلفيها وعصورهم — مثل هذه الكلمة (معروف) عوض التعريف . وان لم تذكر هذه الكلمة بنصها الواضح الصريح ، فانهُ يلمح اليها تلميحاً ، يبعث في صدرك السأم واليأس ، بحيث تستشيط غضباً على من وضع السيفر الذي بيدك وترميه بعيداً عنك

انك لا تستطيع مثلاً ان تعرف معنى (السرير) معرفة صادقة تامة ، مهما بحثت ونقّرت وصرفت الساعات الطوال للاهتداء الى حقيقته او صورته . وكذا قل على (اللحم) و(الكُحْل) و(الكاهن) و(التنجم) و(النحنحة) الى غيرها . بل هذه كلمة (القُسْطِيط) التي ذكرها اللغويون بقولهم : (شجرة معروفة) هي اجهل المجهولات . أو اهتديت الى حقيقتها ؟ — كلاّ ولعل سبب ذلك غرابتها ، فانها تنفّر أذنك من سماعها حال بلوغها اليها بل تهرب من الأخذ في تطلب معناها ، اذ قد اجتمع فيها شيئان : غرابة تركيبها ووزنها . وكذا قُل عن عشرات الكلم التي كانت (معروفة) في عهد المصنفين ، لكنها اليوم لا تكاد (تعرف) او تعرف بعض المعرفة ، فتدفع الكُتّاب الى الجدل والمناقشة على غير طائل ، ولو عرف معناها حق المعرفة في اول تدوينها في المعاجم لما وقع عليها النقاش والنقار والنفار

ومثل هذه الشائبة لا تُصيبها في مصنفات اهل الغرب على اختلاف ألسنتهم واقوامهم وديارهم

ومن جملة الحروف (المعروفة) : الدهن الذي ارصدنا له هذا المقال . فما هو ؟

٢ — الرقن وتعريضه على ما في كتبنا اللغوية

الدهن ، ما ادراك ما الدهن — قال المجد : « دَهَنَ : نَاقَضَ . ورأسهُ وغيرهُ دَهْناً ودِهَنّاً : بلَّهُ (١) والاسم الدُّهْن ، بالضمّ » اه . ولم يوضح في ما بقي من المادة ، يزيد هذا الكلام وضوحاً وتبياناً

وفي لسان العرب : « الدُّهْن (معروف) ، دهن رأسهُ وغيرهُ ، يدهنهُ دهناً : بلَّهُ . والاسم الدُّهن والجمع ادهان ودهان . . . » الى آخر ما قال وليس فيه جلاء في تحقيق المعنى

وقال في أساس البلاغة : « دهن رأسهُ ودهّنهُ وادّهن وتدهّن ، وكأنها مداهن النفضة ، جمع مدهن وهو الذي يجعل فيه الدهن » اه . ولا تزد على هذا القدر من الابهام والكلام الغامض.

واما في مختار الصحاح والصحاح ، فالكلام فيهما على مثل هذا الغموض . فقد جاء فيهما : « الدهن (معروف) » — واذا نقلنا هنا كل ما ورد في معاجم الاقدمين ، فلا نزداد علماً ولا تحقيقاً ولا دراية للشيء ، بل رسوخاً في الابهام والابهام وغامض الكلام

واما في المعاجم الحديثة مثل محيط المحيط وما نقل عنهُ او صُنّف بعده ، فالاشارة الى معنى الدهن أبين لكنّ ركاكة العبارة ظاهرة . قال المعلم بطرس البستاني في دهن من محيط المحيط « الدِهْن ، وهي مضبوطة بالكسر . . . من الحيوان : اللحم الابيض كلحم ألية الضأن ونحوه الواحدة دِهْنة . مولّدة . والدُّهْن (وضبطها بالفم) الاسم من دهن الشيء : اذا بلَّهُ ودهن السمن وغيره : زبدهُ . ج : ادهان ودهان . ودهن الحل : السيرج » . اه

واول شيء يلاحظهُ القارىء انهُ قال : اللحم الابيض ، وهو تعبير فاسد لان من يقول : (لحماً) لا يتصور الاّ شيئاً او مادة رخصة حمراء تكون مملوءة دماً ومن اعضاء الحيوان فقوله : (اللحم الابيض) كقول من يقول : (الاحمر الابيض) وقولهُ (الواحدة دهنة) ، تعبير ادركهُ من الاول . لانهُ يقال : الواحدة كذا لما هو من شبه الجمع كقولك : بَقَر وتمر وتَمْر فتقول : (الواحدة بقرة وتمرة وتَمْرة . واما ما ليس من شبه الجمع فيقال فيه : (الطائفة منهُ او القطعة

---

(١) لم يفهم كثيرون من اصحاب المعاجم الحديثة معنى « بل رأسه » فخيل اليهم ان المراد بالبل هنا ايصال شيء من الماء اليه ، وليس هذا هو المطلوب . انما معنى « بل » : رطبه ورطله وطراه ، اي وضع عليه من الطيب او الطلاء او المادة المرطبة ما يمنع شعثه . ورجل الشعر مأخوذ من رطبه قلبت الباء لاماً لاحساسات معنى جديداً يخرجه من معناه المألوف العام الى هذا المعنى المحصور به ، الخاص به دون اصله.

وقلب الباء لاماً في مثل هذا المقام اكثر من ان يحصى فقد قالوا سرداب ومسرال ، للذي قد عزب بابله — والعذليب والعذليل للهزار المشهور بضروب أطلانه وأغانيه وبشق السافر ولشق اي تأخر وعجز عن السفر — وعراقيل الامور وعراقيبها اي عظامها وصلبها ، الى غير ما وهي جمة لا تحصر.

منهُ كذا) كما لا يخفى على من له اطلاع على اللغة ، ومصطلحاتها

ثم إن هذا « الابيض » الى آخر ما قال فيه ، كان في غنى عنهُ لو قال « الشحم » أو الدهن والظاهر أنهُ « لم يعلم أن الدهن » بالدال المهملة المكسورة هي تصحيف الدهن ، بالذال المعجمة المكسورة ، وكان عليه ان ينبه على ذلك لينتبه الغافل ويعلم المراد ان التصحيف بين الكلمتين هو من قبيل لغةٍ من لغات بعض العرب الاقدمين والمحدثين

وصاحب البستان أخذ كلام محيط المحيط وحذف منهُ العبارة الاولى المتعلقة بالدهن (المكسورة الاول) وقال في الدهن ، المضموم الاول : « الدُهن ، بالضم ، الاسم من دهن الشيء : إذا بلَّهُ دهن الحلّ (كذا بالخاء المعجمة وهو خطأ طبع بلا أدنى ريب ، وما كان ينبغي ان يقع مثل هذا الخطأ في معجم لغة من شأنه ان يرشد الباحث فيه الى الصواب) ، الشيرج دهن السمسم زيتهُ ج دهان وادهان » اه

فقول البستانيين : « دهن الحلّ : الشيرج » خطأ ، لأن الحلّ هو الشيرج نفسهُ ، فكيف يجوز ان يقال : دهن الحلّ الشيرج . فكأنك تقول : « دهن الشيرج : الشيرج » وهو كلام لا معنى فيه ولا فائدة

وللعرب كلمة تقال على كل دهن وهي (الاهالة) وتصدق على كل ضرب من ضروب الدهن. قال في اللسان في (إهل) : « الاهالة ما أذيب من الشحم . وقيل : الاهالة: الشحم والزيت . وقيل . كل دهن أُؤتدم به إهالة . والاهالة : الوَدك . وفي الحديث : «انهُ كان يُدعَى الى خبز الشعير والاهالة السخنة فيجيب » . قال : كل شيء من الادهان مما يؤتدم به إهالة ،وقيل، هو ما اذيب من الالية والشحم. وقيل : الدسم الجامد . والسخنة : المتغيرة الريح ، وفي حديث كعب في صفة النار : (يجاء بجهنم يوم القيامة كأنها مَتن اهالة) اي ظهرها . قال : وكل ما اؤتدم به من زُبد وودك شحم ودهن سمسم وغيره فهو اهالة . وكذلك ما علا القدر من ودك اللحم السمين : (إهالة) . وقيل : الآلية المُذابة والشحم المُذاب : (اهالة) ايضاً . ومَتْن الاهالة : اذا سكبت في الاناء . فشبه كعب سكون جهنم قبل ان يصير الكفار فيها

٣ — الرقم وتعريفه على ما يحصل من كتب القوم

رأيت ان الدهن في كتب اللغة اسم مصدر لدَهَنَ الشيء : إذا بلَّهُ . فكل ما يلّ شيئاً يسمى دهناً ،اي كل سائل ذي إهالةٍ يسمى دهناً. هذا من باب التعميم،واما من باب التخصيص وعلى ما يتحصل من كتب الادب والعلم ، بل من اسفار اللغة نفسها فان (الدهن كل مادة دسمة) . ولما كان الدسم يوجد في الحيوان والنبات والجماد ، كان تعريف الدهن :(كل جوهر ومادة دسمة من حيوان ونبات وجماد) . ونحن نؤيد هذا القول بالنقل عن الائمة :

٤ — الدهن النباتي

الدهن النباتي ما يستخرج من عصر بعض الانبتة التي فيها زيت كاللبان والزيتون والزنبق والخردل والسمسم والجوز واللوز والجلوز والمشلوز وهي كثيرة جمة العدد

واحسن دليل على وجود الدهن في النبات ما جاء في سورة المؤمنين : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » . فليس شيء أوضح من هذا الكلام على وجود الدهن في الزيتون . ولا جدل في هذه المسألة

وسمى العرب دهن البان : (المضنون) على ما صرح به صاحب المحكم وغيره وسموا دهن الزنبق ودهن الخردل (السمط) . والمطيب المطبوخ بالرياحين (الدهن المُقَتَّت) . وسموا الدهن الذي يتخذ من الزيت بافاويه (الخطّار) . ولاحظ حسناً هذه الكلمة (الدهن الذي يتخذ من الزيت) ، مما يدل دلالة صريحة جليّة على ان هناك فرقاً بيّناً بين (الزيت والدهن) فالواحد غير الآخر من باب التخصيص ، بخلاف ما ذهب اليه بعضهم ودونك عبارة القاموس ، ليطمئن قلبك الى ما نورده عليك . قال المجد الفيروزابادي : « والخطّار ، ككتان : دهن يتخذ من الزيت بأفاويه الطيّب » . وفي اللسان : « الخطّار : دهن من الزيت ذو أفاويه »

وكذلك ميزوا بين الاثنين في كلامهم على «المقتّت من الزيت» . قال المجد : «زيت مقتّت: طبخ فيه الرياحين او خُلِيط بأدهان طيبة» . فهذان نصّان بيّنان على ان «الزيت غير الدهن» . وان الدهن مادة دسمة تدخل في بعض الزيوت ، فالواحد غير الآخر

وذكر صاحب اللسان في مادة (ن ش ش) ما هذا لفظه : «روى الازهري عن الشافعي، قال : الادهان : دُهْنانِ : دهن طيب مثل البان المنشوش بالطيب ، ودهن ليس بالطيب ، مثل سليخة البان غير منشوش . ومثل الشيرق . قال الازهري : المنشوش : المرَيّب بالطيب ، اذا رُيِّب بالطيب فهو منشوش . والسليخة : ما اعتُصر من ثمر البان ولم يرَيّب بالطيب » اه

وهناك غير هذه الادلة المقتبسة من كلام ائمة اللغويين فاجتزأنا بهذا القول ، لان ما زاد على هذه الشواهد ، او على هذا القدْر ، لا يزيدنا فائدة او علماً على ما ذكرناه

٥ — الدهن الحيواني

وجود الدهن في الحيوان امر لا ينكر . قال ابن البيطار في ترجمة (القاوند) : « ابو العباس الحافظ : هو دهن معروف لونهُ مثل لون السمن ، وقوامهُ في الجمود كذلك . وهو معروف بالحجاز ، يؤتى بهِ من اليمن ومن بلاد الحبشة . ويأتيهم من الهند » الى آخر ما قال وهو لا يريد زيت الزيتون ولا غيره . اما الدميري فيقول : «القاوند طائر يتخذ وكره على ساحل البحر ...

وهذا الطائر المتخذ منهُ «شحم» القاوند المعروف ، وهو يقيم القعد ... » الى آخر ما قال . فما سماه ابو العباس الحافظ «دهناً» سماه الدميري «شحماً» لانهما شيء واحد

وهذا أبين دليل على ان « الشحم والدهن » من جنس واحد . فهو « شحم » اذا كان جامداً . وهو «دهن» اذا ماع او لم يمع

وأهل بغداد يسمون «السمن» : « دهناً » . ومنهم من يقول : «دُهناً حرًّا» لتمييزه عن سواه من شَحْم وزيت الى غيرهما . ويقولون : «هذا اللحم دهين» ، اذا كان كثير الودك والشحم . نقول الاطباء والكتبة : « المواد الدهنية » اصح من قولهم : « المواد الشحمية » لشهرة اللفظة عند جميع الناطقين بالضاد ، من جميع ديار الناطقين بها ، من مصريين وسوريين وعراقيين الى غيرهم ، ولان صحة الدهن لا غبار عليها ، اذ تعني الشحم والزيت وكل مادة دسمة ، واذ في الالية دهن وشحم ، وفي الانسان دهن وشحم ، وفي الامعاء دهن وشحم . هذا فضلاً عن ان الشحم كلة مبتذلة صارت اليوم من لغة القصَّابين والحجَّامين والشحَّامين

ومن تعبير اللغويين للدلالة على ان الدهن يكون في الانسان ، شرحهم للكلمة (الغِفارة) فقد قالوا فيها : خرقة (تكون دون القنعة) توقي بها المرأة خمارها من الدهن (ق) . وقالوا مثل ذلك في (الصقاع) والصوقعة (ق) . وليس المراد هنا الدهن الذي تستعمله النساء للتطيب ، بل الدهن الذي يفرزه او يقذفه الرأس ، اذ لو كان من دهن التطيب ، لما عمم اللغويون الكلام واطلقوه على كل امرأة تستعمل الخمار ، وانما خصوا به النساء لان الرجال اقل استعمالاً لما يلبس على الرأس من النساء ، ولانهُ يلازمهنَّ ليل نهار ، والاَّ فرؤوس الرجال تقذف الدهن كما تفيض به رؤوس النساء

٦ — الدهن المعدني

سيأتي في العودة الى الكلام على (الاهالة) انهما استعملت للزيت المعدني على ما ذكره استرابون ، وهو من أعظم العلماء الاثبات واقدمهم ، فهو ثقة دونهُ كل ثقة ، لكنهُ من الاعاجم ونحن في حاجةٍ الى حجة في لغتنا العربية ، ولما كان للدهن مترادفات عدة ، اخترنا من جملتها واحداً من عشراتهِ وهو (المُهْل) او (المُهْلة)

قال في لسان العرب : « المُهْل ، اسم يجمع معدنيات الجواهر . والمهل ما ذاب من صُفر او حديد . وهكذا فسر في التنزيل . والله اعلم . والمُهل والمهلة : ضرب من القطران ماءٌ ، رقيق يشبه الزيت ، وهو يضرب الى الصفرة من مياهه ، وهو دسم تدهن به الابل في الشتاء . قال : والقطران الحارُّ لا يهنأ به . وقيل : هو دردي الزيت . وقيل : هو العَكَر المُمْهل .

وقيل : هو رقيق الزيت . وقيل : هو عامته . وانشد ابن بري للافوه الاودي :

وكأنما اسلاتهم مهنـــوءة بالمُهْل من ندب الكلوم اذا جرى

شبه الدم حين يسيل بدردي الزيت . وقوله عزّ وجل : « يغاثوا بماء كالمهل » يقال : هو النحاس المذاب . وقال ابو عمرو : المهل دردي الزيت . قال : والمهل ايضاً القيح والصديد . ومهلت البعير : اذا طليته بالخضخاض فهو ممهول . . . وقالت العامرية : المهل عندنا الدسم ...» إلى آخر ما جاء هناك ، فراجعهُ ان شئت التطويل في التفصيل

فقد رأيت انهُ فسّر المهل والمهلة بالخضخاض ثم اطلق عليه اسم الزيت ايضاً . والخضخاض على ما قال صاحب اللسان ، نقلاً عن ابي منصور الازهري : « ضرب من النفط أسود رقيق لا خثورة فيه وليس بالقطران . . . (وهو) دسم رقيق ينبع من عين تحت الارض . . . » اه

وقال ابن سكرم في (نفط) : « النِفط والنَفط . دهن . والكسر افصح . وقال ابن سيده : والنفط والنفط : الذي تطلى به الابل للجرب والدَبَر والقردان وهو دون الكحيل . . والنِفط والنَفط حلاية جبل في قعر بئر توقد به النار . والكسر افصح » اه

فلو لم يكن في ايدينا الاّ هذا الشاهد المذكور في اللسان ، لكفانا دليلاً على ان (الدهن) قد يكون لسائلٍ معدنيٍ ولم يكن ابداً محصوراً عند العرب بما يحصل من عصر بعض الانبتة الحاوية زيتاً .

٧ — أصل الاهالة

من غريب تركيب أحرف هذه الكلمة ، انها لا تتصل بما يوجه معناها الى الدهن او الشحم او الزيت او اشباه هذه المعاني ، لكننا نراها مضارعة لليونانية Elaia جمع Elaion ومعناها في اول وضعها « زيت الزيتون » ثم اطلقوها على جميع الدهان التي ذكرها لغويو العرب بحذافيرها . لا بل ذكر استرابون الاقاميّ من علماء وُصّاف البلدان المقدّمين (وكان في سنة ٦٦ قبل المسيح الى ٢٤ بعد الميلاد في كتابه الذي نشره ج . كرامر في سنة ١٨٤١ الى سنة ١٨٥٢ في الفصل الحادي عشر والقطعة الخامسة) : ان الاهالة يراد بها الزيت المعدني ايضاً وكان بعض القراء يطيّبونهُ ويتخذونهُ اهالةً أراداناً لهم . فصحت الاهالة على ان تطلق على كل زيتٍ من معدني ونباتي وحيواني

واللغة العربية لا تأبى هذا الاطلاق ولا تنبذه ولا تمانعهُ ، اذ يشترط في (الاهالة) ان تكون « مادة دسمة وان يؤتدم بها »

وتعريب « الاية » اليونانية بصورة « اهالة » غير بعيد ، لانهُ كان ليعضهم لثغة يجعلون

فيها اللام هاء . فكانوا يقولون شاكهة في شاكلة (راجع المزهر طبعة بولاق الاولى ١ : ٣٢٨) وقالوا الحفلات كالليلات وزان سحاب وهو الاحمق ، الى غيرها من نظائرها . وأما ابدال اللام بالياء فكانت لغة عند العرب ذكرها المزهر ايضاً (في ١ : ٢٧٠) والجاحظ في كتابه البيان والتبيين (الطبعة الاولى ١ : ١٧)

والذي يدفعنا الى هذا القول أن ليس للاهالة ما يقابلها في التركيب في سائر اللغات السامية والكلمة « الاية » لغتان أخريان هما : (الإيْهَة والإهْيَة) فمجانستها للعربية اوضح وأقوى

٨ — أصل المهل والمهلة

المُهْل تشبه قلب أَلْيُمْ Oleum اللاتينية [٢] لانها تصير حينئذٍ Moleu ولا غرابة بآخر حرف أو إنهُ حول هاء . وهو غير بعيد فقد سبق للسلف ان قلبوا Litra فقالوا فيها رِطْل Ritla وقالوا في Mensis عاس أي الشهر Nemia وفي Virgo بِكْر اي بتول Vigro الى نظائرها مما ورد منقولاً ومنقولاً عن اللاتينية أو اليونانية

زد على ذلك ان جميع معاني اللفظة الرومية Oleum تراها واحداً فواحداً في العربية وبالعكس . ولهذا لا ترى لها مقابلاً من هذه المادة في سائر اللغات السامية . هذا رأينا ولعلنا مخطئون في جميع هذه الاحرف

٩ — أصل الرصن

هذه الكلمة تنظر الى Dènos اليونانية ومعناها الدهن ، اي كل مادة دسمة والشحم ايضاً على حدّ مافي لغتنا الضادية . والحرف H اليوناني يقابل الهاء العربية . وقد صوّرناهُ هنا هكذا Ē

(٢) ومما نشأ من الكلمة Oleum الرومية ، كلمة عربية أخرى هي (الحل) بمعنى زيت السمسم ، او (الشيرج) وهذه الثانية من السامية « شيره » اي عصير او عصارة : —

والحرف O الروي — نيل اليوناني ايضاً — كثيراً ما يرد بازاء حرف حلق في اللغات السامية ولا سيما في العربية . فاللاتينية Odor تقابل « عطر » — و Offa : عفة و Olla : علة . وقد جعل بعضهم هذا الاصل المعرب . فقد جاء في تاج العروس ما هذا اصله : « الحلة في اصطلاح اهل بغداد كبيرة الزئبيل الكبير من القصب يجعل فيه الطعام . نقله الصاغاني . قلت (اي السيد مرتضى) : وفي اصطلاح مصر يطلق على قدر النحاس لانه يجعل فيها الطعام » اه كلامه . قلنا : والحلة معروفة بهذا المعنى الى يومنا هذا في العراق. الا انها تستعمل لوضع الخام فيها (الطير المعروف) لا الطعام . ولعل اصل قول الصاغاني كان (الخام) لا (الطعام). والكلمة رومية بلا شك ولا ريب . ومعناها القدر او الرجل . هذا هو الاصل ثم أطلق على ما يشبهه من نسيج القصب والخوص او نحوهما ، من باب التوسع في المعنى والخروج من سلاسل التقييد

ولما كانت الدال اليونانية تنقل مرةً دالاً مهملة واخرى ذالاً معجمة ، جاءت في العربية الدُهْن (بالضم) والذِهْن (بالكسر) وبين الضم والكسر تعاقب غير مجهول . والظاهر ان اليوناني هنا هو العبرة (اي الاصل الاول الذي ترد اليه النظائر) دون غيره . والدليل على هذا اننا نجد في العربية (المدموم) بمعنى المتناهي السمن المتلىء بالشحم ، وفي المادة العربية (دمم) نعود الى المعدن اليوناني من غير ادنى تبديل او تغيير او تعديل

قال في اللسان في (دمم) : « المدموم . المتلىء شحماً من البيروتحوم . وقد دُمَّ بالشحم اي اوقر . . . والمدموم : المتناهي السمن ، المتلىء شحماً كانهُ طلي بالشحم . . . ويقال للشيء السمين : كانما دُمَّ بالشحم دمًّا . . . ودم البير دمًّا : اذا كثر شحمهُ ولحمهُ حتى لايجد اللامس مسَّ حجم عظم فيه » اهـ

١٠ — تأثير ومعرضه

ظهر لنا من بسط هذا الموضوع : ان (الدهن) يعني كل مادة دسمة ، معدنية كانت ام نباتية ام حيوانية ، سائلة ام جامدة ، ويقابلها في الفرنسية Corps gras ou graisse التي توافق هذا التعميم وهي بالانكليزية Fat or grease . اما (الزيت) فهو كل سائل او مائع دسم اودهني وهو Huile بالفرنسية وتشمل الزيت النباتي والمعدني والحيواني وهو ، في الانكليزية Oil . — واما (الاهالة) فتشمل الدهن والزيت وكل مادة دسمة يؤتدم بها ،

وهي بالفرنسية Toute matière grasse ou huileuse avec laquelle on mange le pain

وبالانكليزية All fatty or oily matter eaten with bread

ومن الغريب ان ليس كلمة واحدة في لغة من لغات العالم تؤدي معنى (الاهالة) الذي وضعهُ لها ابناء عدنان ، بل يضطر أصحاب تلك اللسان الى اتخاذ عبارة للدلالة عليه كما مرّ بك . واللغة اليونانية مع غناها ، واللاتينية مع شيوعها وذيوعها بين طبقات العلماء من جميع العباد والبلاد ، لم ترصدا كلمة واحدة للمؤدى الذي اشرنا اليه . فأكرم بلغة تتحدى ألسنة الدنيا كلها بسعتها واداء افكار ابنائها ودقائق معانيها في جميع العصور وفي جميع الفنون والعلوم والصنائع

و (المُهل) او (المُهلة) تجمع كل سائل او مائع [1] على اختلاف انواعه وضروبه ، جامداً كان اصله ام غير جامد ، حتى ان المعادن الصلبة اذا مُيِّعَت ، يقال لمائعها (المهل)

(١) الفرق بين السائل والمائع ان المائع ماكان اصله جامداً ثم أذيب فجرى ، والسائل ماكان اصله جارياً . فالماء والزيت من السوائل والدهن والشحم والالية اذا اذيبت من المائعات . وقد يتوسع فيهما والاصوب ان يحافظ على وضع العرب الاصيل

شدة الاحساس

بأشياء وسواد معينة

والاستهداف بسببه لحالات مرضية متنوعة

يعرف كاتب هذه السطور سيدة اميركية عالية الثقافة حصيفة الرأي شديدة العناية بشؤون معيشتها ومعيشة اهل بيتها ، تقطن ضاحية المعادي قرب القاهرة ، ولكنها مضطرة الى مغادرتها مع اغتباطها بكل ما حواليها لانها تصاب كل سنة ، عند ما تبسم الارض في الربيع ، وتخرج الازهار من اكمامها بمرض يعرف « بحمى التبن او القش » ، فتلتهب جفونها وتدمع عيونها ويميل انفها وتصاب احياناً بضيق التنفس . وليس لذلك سبب ظاهر . فهلها يأكلون ما تأكل ويشربون ما تشرب ويتنفسون الهواء الذي تتنفس ولا يصابون بما تصاب . وسر هذا الامر ان هذه السيدة شديدة الاحساس بحبيبات اللقاح التي تتطاير من ازهار الحقل ، فتستهدف لهذه الاعراض

وقد عرف كذلك سيدة أخرى كانت اذا اكلت الكركند الثالث والسرطان البري (Lobster) أو السرطان (Crab) تصاب بما يشبه التسمم مدة اربع وعشرين ساعة ، وقد اكلتهما هنا وفي اوربا وفي لبنان وكانت تصاب دائماً بالاعراض نفسها

في سنة ١٨٣٩ كان العالم الفسيولوجي الفرنسوي « ماجندي » Magendie يجرب بعض التجارب بالكلاب فحقن كلباً بقدر صغير من زلال البيض فلم تبد على الكلب آثار تدل على انه اصيب بضرر من هذه الحقنة . ثم بعد فترة وجيزة حقن الكلب ثانية بالقدر نفسه من زلال البيض فمات فجأة فتحير « ماجندي » في ما رأى لانه كان يعلم ان زلال البيض ليس سماً ومع ذلك فعل السم في الكلب فقضى عليه

بعد ذلك بربع قرن ذهب حدث من الاحداث الى اجتماع في الريف ، وبعد ما تشهى اكل قطعة من الحلوى التي قدمت للزوار وكانت مصنوعة من الحنطة السوداء ، وما كاد يزدردها حتى احس ناراً تأجج في حلقه ومعدته . ثم احمرت مقلتاه وتورمت وجنتاه وظهرت على شفتيه اورام حمر . فساوره خوف عظيم ، وعزم ان يسير الى بيته على قدميه . وبعدما سار مسافة ثلاثة اميال في الثلج خفت وطأة الاعراض التي احس بها وعندما وصل بيته كان قد

ثبت في ذهنه ان الحلوى المصنوعة من الحنطة السوداء هي سبب اصابته. وبعد سنوات اكل هذا الفتى كعكة مصنوعة من الذرة فاصيب بالاعراض نفسها . فلما تحرّى المسألة ظهر ان الذرة كانت قد طحنت في مطحنة طحنت فيها الحنطة السوداء فاتصلت حبيبات منها بدقيق الذرة

وانقضت سنوات ، وبلغ الفتى سن المراهقة . وحدث لهُ ما حمله على الاعتقاد ، بأن دقيق الفلفل الاسود يسبب نفس الاعراض التي يسببها دقيق الحنطة السوداء ، اذا ذرّهُ على طعامه. ولكنهُ وجد انهُ اذا اشترى حبات الفلفل وسحنها في بيته وذرّها على طعامه ، لم يصب بها . فحمله ذلك على الظن بأن دقيق الفلفل الاسود الذي يباع في الاسواق مدخول فيه ، فجعل يثقب ويبحث حتى اتصل بمدير احدى الشركات التي تحضر دقيق الفلفل وتبيعهُ وعرف منهُ ان شركتهُ تبتاع قشور الحنطة السوداء وتسحنها وتخلطها بدقيق الفلفل

ولما بلغ الخامسة والاربعين من العمر ذهب الى مستشفى جامعة جونز هبكنز . وكان العلماء في خلال ذلك قد جمعوا حقائق كثيرة عن هذه الظاهرة الغريبة ، فحضروا نقوعاً من دقيق الحنطة السوداء ، وخدشوا ذراعه ووضعوا على الخدش قطيرات من النقوع ، فما انقضت عليه خمس عشر دقيقة ، حتى صاح « ان الحنطة السوداء قد شرعت تعمل فعلها » وجعل يشكو ضيقاً في الصدر وأخذ يسعل كما يفعل المربوُ (المصاب بالربو Asthma) وظهرت على وجهه وجسمه وأطرافه بقع حمر ، لم يسعهُ الاَّ ان يحكها حكًّا عنيفاً

ثم استرعت هذه الظاهرة انظار طبيبين من اطباء فينا هما كلمنس فون بيركه Pirquet وبلا شيك Schick . ولا يخفى ان فون بيركه اصبح في ما بعد من اشهر الاطباء المتوفرين على امراض الاطفال في العالم . اما شيك فاستنبط الكاشف المنسوب اليه لامتحان الذين يشتبه في اصابتهم بالدفتيريا . كان هذان الطبيبان يعالجان اطفالاً مصابين بالحمى القرمزية بمصل جديد استنبط حديثاً لعلاج هذا المرض . وكان لا بدَّ في هذا العلاج من استعمال مقادير كبيرة من المصل . فلاحظ ان بعض الاطفال اصيب فجأة بحمى وتشعريرة وقفط حمر على الجلد وألم في المفاصل بعد انقضاء نحو اسبوعين على الحقنة . فواليا البحث ووجدا ان الاطفال الذين لم يصابوا بهذه الاعراض بعد الحقنة الاولى ، كانوا يصابون بها حتماً بعد الحقنة الثانية . فأطلقا على هذه الحالة «مرض المصل» واسماء اخرى منها اللفظ Allergy وبه تعرف في رسائل الاطباء

ومن ضروب الربو ما يعرف « بربو الحياد » والذين يصابون به تبدو عليهم اعراض الربو عند ما يكونون على مقربة من جواد او عند ما يتصل بهم شعر من شعره او غبار كان ملتصقاً به على نحو ما يصاب بعض الناس « بحمى التبن » عند ما تنثر حبيبات اللقاح الباقي في الهواء . فهؤلاء الناس من المضلات التي يواجهها الاطباء عندما يمرضون ويقتضي المرض حقنهم بمصل ما ،

لان طائفة كبيرة من المصول تولد في دم الخيل . فاذا أصيب احدهم بالدفتيريا وحقن بالمصل المضاد لها ، وهذا المصل يولَّد في دم الخيل ، فيصاب المحقون باعراض الربو . ثم إن ارتقاء وسائل النقل بقوة البخار المحركات الذاتية كقطارات السكك الحديدية والسيارات ، بعد المركبات التي تجرُّها الخياد ، قد أزال عاملاً من عوامل هذا الضرب من الربو ولكن تقدم الطب في استعمال المصول عرّض بعض الناس لهُ من جديد

ومن الناس من يتأثر تأثراً خاصًّا بقربه من الغنم أو الخنازير والكلاب والهررة والارانب والجرذان والدجاج والبط والاوز أو بأكله قطعاً منها على نحو ما يتأثر بعضهم بالخياد . بل أن بعض الناس يتأثر بريش الدجاج فلا يكاد ينام على وسادة محشوَّة بهذا الريش حتى يصاب بنوبة من الازم الشديد

ويمكن ان يقال بوجه عام أن المواد التي تسبب هذه الاعراض هي انواع من الطعام ، وحبيبات اللقاح والغبار ، وشعر الحيوان وقشوره وجذور الاوريس (وهو نبات اسمهُ العلمي ايريس فلورنتينا وايرس جرمانيكا ويستعمل دقيق جذور الاول او نشاؤهُ في تعطير بعض مستحضرات الجمال بعطر بنفسجي) وبعض البكتيريا . ويذهب بعضهم الى أن البرد والحرّ قد يؤثران في الجسم فتتحل بعض المواد الزلالية في الجسم فتصبح من طبقة المواد « الاليحية » . وتقسم المواد التي تحدث هذه الاصابات الى ثلاثة أقسام عامة منها ما يتصل بانسجة الجسم عن طريق الاكل واخرى باللمس وغيرها بالاستنشاق

وهذا يعود بنا الى المثل الذي ضربناه في مستهل هذا المقال . لعني «حمى التبن Hay Fevers» وهي نادرة في مصر . فقد وصف الطبيب الانكليزي جون بوستوك Bostock هذا المرض أولاً سنة ١٨١٩ وكان يصاب به في الصيف فاطلق عليهِ اسم « زكمة الصيف » وانقضى القرن التاسع عشر والظن الراجح انهُ مرض نادر

وكان الطبيب وليم دنبار Dunbar اول من درسهُ دراسة علمية في اواخر القرن التاسع عشر وكان رأيه انهُ نتيجة من نتائج الحضارة الحديثة . قال أن الامم في الامم غير المتحضرة لا يصابون به ، او تندر اصابتهم به حال أن الامم البالغة شأواً عالياً من الحضارة تكثر فيها الاصابة به . وبين ان الاصابات به في اميركا الشمالية كثيرة . وقد كانت قبل نصف قرن نادرة فاصبحت الآن مألوفة ويبلغ عدد حوادثها نحو المليون كل سنة

الاَّ أن الطبيب الانكليزي تشارلز بلاكي بدأ تجاربهُ في منتصف القرن الماضي ، أي نحو اربعين سنة قبل مباحث دنبار ، فثبت لهُ أن حبيبات اللقاح النباتي تسبب هذا المرض ، وكان بلاكي نفسهُ معرضاً للاصابة به ، فجمع حبيبات اللقاح ووضعها في عينيه وأنفه فاحدث فيه اعراض هذه الحمى . وكان العلاَّمة الالماني هلمهلتز معرضاً للاصابة به كذلك ، فأخذ بعض مفرزات أنفه وهو مصاب أعراضه وفحصها فوجد فيها بكتيريا لا تكون فيها عندما يكون سليماً . وكذلك ظلت النظرية

البكتيرية في سبب هذا المرض سائدة سنين متمادية ، لان مقام هيبوكراتس الطبي كان في الطبقة العليا

الا ان دينار ، مع ذهابه في تفسير هذا المرض الى اسلافه الى الحضارة ، بدا له ان في اقوال بلاكلي شيئاً من الصحة . فجعل يجمع حبيبات اللقاح التي ينثرها في الهواء المرضى لحمى التبن . فثبت له الصلة بين الحبيبات والاعراض

واعم أنواع هذه الحمى ينشأ عن لقاح نباتين احدهما يعرف باسم العرد الذهبي (وهذا ترجمة الاسم الانكليزي Golden-Rod كما جاء في معجم شرف وهو خروسرغون او دَسْتَس : يونانية في معجم اسماء النبات لعيسى) وكلاهما ينثر حبيبات لقاحه في الصيف . وقد أثبت البحث ان حبيبات اللقاح في النبات الثاني (Ragweed او عشب الخرقة : شرف) يمكن ان تنثر الى مسافات خمسة عشر ميلاً وان نبتة واحدة منها تستطيع ان تقذف ملايين من الحبيبات في اليوم

وهناك نوع آخر من هذه الاصابات يعرف بالحساق او الحساق وهو شبه الجدري يتفط به البدن ويعرف عادة باسم «الشري» . واعراضهُ ظهور بقع وارمة حول العينين وفي الشفتين واليدين والبدن . ولو اقتصر عليها لهان الامر ولكنهُ قد يحدث في الحلق والحنجرة فيفضي الى الموت اختناقاً

وبعد فما هو تفسير هذه الاصابات ؟ ليس ثمة رأي واحد يعلل جميع ظاهراتها . ولكن منها رأي فوغان (Vaughan) فهو يقول ان الخلايا في الحيوان السوي تخصص . فاذا دخل الطعام الجهاز الهضمي ووصل الى الامعاء افرزت خلايا الامعاء مفرزات خاصة تخمّر الطعام وتحلّلهُ . فاذا حقن احدهم تحت الجلد بمصل مستمدّ من دم جواد ، تحدث الخلايا المختصة الى افراز خمائر تحل مادة المصل . فاذا افرزت مقادير كبيرة من هذه الخمائر بعد الحقنة الاولى كان الجسم مستعدًّا لحل هذه المادة عند ما يحقن بها ثانية ، فتتولد مواد سامة تحدث اعراض هذه الاصابات . ويقول بعضهم أن مادة الهيستامين Histamine — وهي مادة أثبت الطبيب الانكليزي ديل H. H. Dale تكثر في معظم انسجة الجسم — هي التي تسبب هذه الاعراض . والهيستامين نفسه اذا حقن في مقادير يسيرة سبب الاورام وهبوطاً في ضغط الدم وبعض اعراض الصدمة التي تمتاز بها الامراض « الاليرجية » . ومن بواعث القلق — لولا حكمة الخلق — ان يعرف الانسان ان في انسجته من هذه المادة ما يكفي لقتل عشرات من الناس

ويقال كذلك أن المواد « الاليرجية » اذا دخلت مقادير كبيرة منها الجسم او تجزت الانسجة عن حل ما يدخل الجسم بالسرعة اللازمة سببت اعراض الاصابات التي تقدّم ذكرها . ويعزى عجز الانسجة عن حلّها بسرعة الى نقص في بعض مفرزات الغدد الصم . فبعضهم يذهب الى ان النقص هو فقط في مفرزات الكظرين . وآخرون الى انهُ نقص في مفرزات الخلوة . وثمة تقارير طبية مختلفة وصف فيها استعمال خلاصات الدرقية او الكظرين او المبيضين في علاج هذه الحالات

حيوانات مشهورة

وصحة اسمائها

للقريق الركتور امين المعلوف

أوردت في مقتطف ماضٍ شيئاً عن الحشرات وأني مورد في ما يلي غيرها مما عثرت عليه في مؤلفات القوم منها الكلمات الآتية وهذه الحشرات مما لم أذكره قبلاً

ليث عِفرين — Ant lion. Myrmeleon

بقرة بني اسرائيل . أم قيس . أم عويف . ابو عويف . دويبة من عصبية الاجنحة يأكل دعموصها النمل فانهُ يحفر لنفسهِ حفرة في شكل مخروط قمّه الى الاسفل وقاعدته الى الأعلى ويندسُّ فيها فاذا مرّت نملة فوق الحفرة تدهورت الى أسفلها فيقبض عليها بخليبهِ ويغوص بها في التراب ويفترسها . وهو يسمى ليث عفرين وبقرة بني اسرائيل وأبا عويف متى كان دعموصاً فاذا نبتت أجنحتهُ وطار سمي أم قيس وأم عويف . والصبيان في مصر يسمون دعموصهُ غزالة ولا أذكر ما كنا نسميهِ في بيروت

وهاك ما جاء عن هذه الدويبات في الخصص من معاني ليث عفرين ٨ : ١٠٣ . ليث عفرين مثل القنفذة لونهُ لون التراب يندس في التراب وفيهِ ٨ : ١١٦ « ابو عويف دويبة غبراء تحفر بذنبها وقرنيها لا تظهر ابداً » وهذه الدويبة غبراء تحفر بذنبها وقرنيها لا تظهر ابداً كما يقول كل من يعرفها ولا يخفى أن عويف تصغير عوف وهو الاسد . وفي حياة الحيوان « بقرة بني اسرائيل هي التي يقال لها أم قيس وأم عويف وهي دابة صغيرة لها قرنان تكون في الرمل فاذا أردت ان تخرجها فاطرح في موضعها قملة تخرج » وهو أحسن وصف لها وقد كنا نبث بها في بيروت ونستفيض عن القملة بنملة فان امهاتنا لم تترك لنا قملاً لابحاثنا البيولوجية فلت ولم يذكر احد من اصحاب المعاجم هذه الدويبة على صحتها

أرقة . واحدة الأرق الآتي ذكره — Aphid. A plant louse

أرق — Aphidae. Plant lice

فصيلة من الحشرات تصيب الزرع فتحدث فيهِ الآفة المعروفة بالأرقان

أرقة Aphis. Pl. Aphides

جنس من الارق يحدث الآفة المعروفة في السودان بالعسل وفي مصر بالندوة العسلية وفصيحة الارقان

أرقة القطن . وهي تحدث فيه أرقان القطن اي الندوة العسلية A. gossypii

أرقة التفاح A. mali

أرقة الذرة A. sorghi

الارق والارقان والارقان والبرقان وفيه لغات غير هذه آفة تصيب الزرع والناس يتبرم منها اللون . اما في الناس فالمشهور منها البرقان وهو داء معروف عند الاطباء وعند العامة بهذا الاسم . وأما الآفة التي تصيب الزرع فتسمى في السودان بالعسل وفي مصر بالندوة العسلية وفي الشام بالمن وسببها حشرات صغيرة تعرف عند العامة بالمن. ولما كانت الارق والارقان والبرقان ومرادفاتها فصيحة بهذا المعنى فقد اخترت اللفظة الاولى اي الارق لهذه الحشرات وجعلت واحدها ارقة قياساً وتركت سائر المرادفات لآفة الزرع خلا البرقان فهو مشهور بمعنى الداء المعروف الذي يصيب الناس . أما تسمية العامة لهذه الحشرات بالمن فهو لانها تحدث هذه الآفة الحلوة الطعم فسمتها العامة مَنًّا . والمن مادة أخرى تكون على شجر البلوط والطرفاء والعاقول وهي غير هذه وسببها حشرات اخرى غير الارق See Coccidae

هذه الفاظ وضعتها لما يعرف عند العامة بالمن ولا اظنني مخطئاً فالمن عامية بهذا المعنى

شبكية الجَنَاح (الدكتور صروف) اسد الارق اوالمن Aphis Lion. Lacewing fly

ككيدة . حشرات المنافير Coccidae. Scale insects or Mealy bugs

فصيلة من الحشرات تحدث المنافير في الشجر كالمن الذي يؤكل . ومنها حشرة القرمز المعروفة بدودة القرمز . المِغْث والمُغْثور شيء ينضحهُ التمام والمُشَر والرمث مثل الصمغ وهو حلو كالعسل يؤكل وربما سال تلقائهُ على الثرى مثل الدبس وله ريح كريهة ج مغاثير . ومثله المِغْفر والمُغْفُر والمُغفور . ولا شبهة ان المنافير هي هذه اي التي تضحّ المن

دُعْسُوقة Coccinella punctata. Ladybird

خنفسة صغيرة مرقطة تعرف في مصر بام العيد

فصيلة الدعاسيق . بنات العيد Coccinellidae

فصيلة من الخنافس صغار مرقطات بالوان مختلفة

قلت وقد ذكرت المعاجم هذه الحشرة باسم أبي العيد ولم تذكر الدعسوقة وقد اخذتها عن التاج قال : الدعسوقة بالضم دويبة والدعثوقة بالثين المعجمة دويبة ويقال للصبية والمرأة القصيرة يا دعثوقة تشبيهاً لها بتلك الدويبة او هي شبه الخنفساء وفي حياة الحيوان الدعسوقة بفتح الدال دويبة كالخنفساء وربما قيل للصبية والمرأة القصيرة تشبيهاً بها قاله في المحكم وفي مختصر العين

الزبيدي ايضاً الاَّ أنهُ ضبطهُ بالقلم بفتح الدال في نسخة صحيحة . قلت وقولهم يا دعسوقة مثل قولنا في بيروت يا ابو بليقة والابو بليق طائر سمين يؤكل كله دفعة واحدة بلا تنظيف

نَغَفة . دودة تنقف عن ذباب يتطفل على الحيوان والانسان جمعها نغف Bot, Botts

نِيرٌ Botfly. Any of the Oestridae

ذباب يتطفل على الغنم والابل والبقر والخيل فيتولد منهُ النَغَف . والنير لا يَلْسع وانما يبيض تحت الجلد ويخرج منهُ نغف أما في الجلد او في مجاري الانف او في المعدة ولما كان النغف لا يلسع قالوا عنهُ دويبة اذا دبت على البعير تورم جلده وانتفخ وربما يكون ذلك سبب هلاكه

نير الغنم يتطفل على الغنم فيتولد النغف في انوفها Botfly of the sheep. Oestris ovis

نير Botfly of the camel. Cephalomyia maculata

يتولد نغفه تحت جلد البعير فيتورم

نير الخيل يتولد نغفه في معدة الفرس Botfly of the horse. Gastrophilus equi

نير البقر Botfly of the ox. Hypoderma bovi and H. lineata

يبيض تحت جلد البقر فيتورم جلدها

نَغَف Bots, Botts.

دود في انوف الابل والغنم أو تحت جلد البقر والابل أو في معدة الخيل واحدتهُ نَغَفَة

نَمَرة Gadfly. Syn. Horsefly or Breeze fly. Any of the Tabanidae

ذباب من فصيلة النُمَر وهو ذباب كبير لهُ خرطوم طويل يلسع به الدواب ويؤلمها الماً شديداً . ونُمير الحمار دخل النُمَرة في أنفه فاضطرب فهو نَمِر والعامة في الشام تقول تَوْمَر وتستعمل النَمْر لنطق الحاد كما يشر النُمَرة . واسم النُمَرة في السودان السَرُوت وهي كثيرة في اعالي النيل . ولا يلسع الذكر من النمرة بل الانثى وقد يطلق الانكليز هذه اللفظة على ذباب آخر هو البِبْر بالعربية وقد تقدم ذكره

سَرُوت في السودان Tabanus dorsivitta

(See Botfly, Oestridae. Tabanidae)

فصيلة النُمَر الواحدة نَمَرة Tabanidae. Gadflies

ذباب كبير طويل الخرطوم يلسع لسعاً مؤلماً ويمتص دم الملسوع والانثى هي التي تلسع اما الذكر فيقتات بالازهار . وقد تقدم الكلام على النمر وهو انواع كثيرة

نُمَرة Tabanus. Gadfly

ولا يخفى ان الحشرات كثيرة تمدُّ بالألوف في بعض الفصائل نحو عشرة آلاف نوع وقد ذكرت بعضها فقط

حديقة المقتطف

رباعيات الغزالي

للشاعر الفرنسي جاك لاكوم

الحب الصوفي — الشك

نقلها خليل هنداوي

الحب الصوفي

٣ — الشك

كنتُ مؤمناً من قبل ، والآن ليس لي الاَّ الشك ،
أراني أقلَّ جنوحاً وارتياحاً وقوةً للعمل .
شجرة العلم هي شجرة الموت
وثمارها مرَّة المذاق للتذوّق.

هذا النور الحار في هذه السماء الزرقاء
يخيل اليَّ انهُ نظرة او قبلة الإله .
أين يثوي في الشتاء ؟
ومن أين ينبعث حنان الآله الملتهب حبًّا حينما يمسنا في الصيف ؟
وأنت ايها المصور الالهي الذي — على حواشي الابدية وفي اعماق الفناء —
ترسم صور السماوات والازهار والاكوان الجميلة
قل لي : هل اهملت الانسان من بين الاكوان ؟

لماذا يقهر الشك الروح دائماً ؟
وخير من فينا يحطمهُ القدر ؟
وما يشيده الحب يهدمهُ الموت .
أي صاحب خلقنا ، وأي عدو خرقنا ؟

آه ! ما هو هذا الجسد الذي ينخره الدود سريعاً ؟
والحب الذي يموّه علينا بهذا العطف القصير ؟
اذا قدرت يا الهي على ابداع الوجود مرةً ثانية
فكيف تغادر حلمك فيهِ غير كامل ؟
كنهر يجمع الرمال ويغرقها .
يجمع الزمن ويفرق طوراً بعد طور من يستدعيهم الحب ويؤلف بينهم
غير مركّب أبداً ما لا يفنى .

يخيَّل ان السماء تقارن السماء في الحياة ؟
انا لم احلم ابداً بالبقاء طويلاً .
هل يرون الكهول يضحكون ويسرون ببناء ؟
ان ماءهم القاتم لا يولد في نفسي شيئاً من الغيرة .
انك خلقتني يا الهي بدون رأيي !
وها أنا ذاهب لأهوي في الهوة المجهولة ،
من قبل أن ادرك اسرار وجودي الذي تذهلني عظمته أكثر من الفناء !
الحلم الذي تخالهُ حقيقة حين تنام .
واذ يتلاشى في ساعة يقظتك ترى ان روحك قد فقدت حقيقته
كذلك الاموات يشكُّون في حياتهم الغابرة .
أرانا نمشي تائهين كالمجانين
ونحن يمزق شملنا على الدروب .
اية غبطة تمروك من ذلك ؟
ولماذا النور فيك يقضي علينا بالشك ؟
المعركة انتهت ، والموتى — هنالك — راقدون .
وقد همدت جميع اصوات البغض والشقاء .
وهذا السكون الذي يتلو كل عاصفة بشرية كم يعلن قوة هذا الفناء !
والسماء الخالية التي تلد وتميت !
ما عسى يضيرها ان يتألم الناس او ان يتوهوا من ألمهم ؟
وفي هذه الهوة البعيد قرارها ، هوة الزمن والفضاء
ما قيمة شقاء ذرة عابرة ؟
وانت خاضع لهذا القليل الذي هو كيانك
إذا اتاك الموت فلا تصح ،
فانما الارض ضريح نُصيب وسادة لنا ،
تيقنا على أن نحلم لحظة قبل الرحيل .

ان هذه اللبنة التي ربما كانت مجبولة
من رفات عمر ، أو فيريدون ، او الاسكندر الكبير
قد تعجع في تشييد قصور للاحياء ،
ستعيد الريح نفية آثارها ، ونثر ترابها .

اننا بأيدي القدر شبيهون بالدمى الصغيرة ،
أو بكلمات واشارات باطلة .
تختلط ، وتتحرك وتدور مصمدة اصواتها
ثم يغمرها الصمت ، ثم يلفها الليل المدلهم !

ايتها العقدة السرية بين العدم والوجود !
آه ايها الحب لماذا دعوتني الى الظهور ؟
ايها الخيال الهائم بين الاشياء المختلفة
والعجب — مثلها — بهذا العالم المبهم ؟

إن سر الالـه كامن في كل ذرّة . . .
والصوان يواري في اعماق كراه كالليل في سكونه
هذا السر الذي تخفيه عنا الشمس .

متى نغادر قصر الوجود المتوهج
غداً او بعد غد ، هل أدري ؟
ولكننا سنغدو رفاقاً سهلين في الرماد الجدب لكل الآلى دك
الموت منهم الحياه !

الارض والصخور والبحار
وهذه الكواكب الساطعة !
والنفس البشرية مع آلهتها واحلامها وعبقريتها وجنونها
كل هذا ينبغي له ان يتلاشى في صدر السماء الفسيح !

حلمي وحده هو الذي ينطق بالجمال والصفاء
هذه الشمس الذهبية الدموية التي تهبط في القرار .
ولكن عندما يقهر الوعي الانساني على أمره
قد تستطيع ان تشتعل بعده لامعة ، ولكن صفاءها يغدو باطلاً .

تغذية جوفه ، وانعام كيسه ، وسروره بتخليد الفضاء والشقاء بلا نهاية .
ألا ما هو كل هذا الفناء ؟ وماذا يدعونهُ الحياة ؟
ليسرع الموت الذي ينقذنا !

رجلٌ عاقل أوحى بسر تكوين الآلهة !
على أنهم لم يكونوا قبل الليلة الاولى ، ولا قبل الاصباح الاول ،
ولا قبل الانسان الاول . . .
وانما الخوف او الحب عمرا السماوات بالآلهة .

اشقانا من قبل — في الايام الماضية . . .
السأم والخوف ، التقزز والبغض
وازدراء الدناءة البشرية .
لنخشَ الموت أقل مما نخشاه فهو وحده يشفي كل شيء .

سليمان الذي كان عرشهُ مرصداً
يأمر ارواح الارض والماء !
ولكن السأم القاسي على العظماء
قد أكله في قمة مجده .

انتهُ ساعة أعلن فيها ان كل شيء باطل .
حتى الحب الانساني والحب الالهي —
ووجد ان الخير للانسان ألاَّ يكون .
فبماذا يفكر العبد اذاً — وهو دُمية في يد مولاه ؟

مع الموت وأدناسه
كل شيء يحيا ويتجدد — وهذا نظام دائم
النرسة والزهرة والحيوان
والخير النادر والشر .

ان غريزتك البهيمية للحياة كثيرة فيك
وإذا كان — لا شيء — يوقظ من الآن قلقك
والاّ شيء — عندك — يغدو لا شيء ، ولا يثير فيك غيرة
فأقلع عن هذه الحياة غير آسف ولا خائف .

سيحل محلك من يولدون ،
ابناؤك الفتيان الاشداء .
فهل تحس أنهم بازاحتهم اياك ظافرون جذلون بما صاروا اليه ؟
قال لي الموت « انطلق ! انك زحمت أبناءك » !

انني ابغض ، واكره . . . بل كنت زمناً سكران بالبغض .
وكنت استعين اذا وقعت عليّ الفاحشة العامة بجائر يحطم هذه الهوام البشرية
والآن سرت اخجل من نذري المشئوم الذي نذرتهُ .

وعند ما تحس — في الحالة التي تصم فيها عن اصوات اصحابك الكئب —
تحس مرارة الحياة وشقاءها
وعند ما تئن ناحباً لان الحياة جرحتك
أحلمْ « بلانهاية الازمان » التي لا محيص منها .

الموالم المضمورة في ابديتك ،
المتلاشية فيك ، ماذا سيحل بها ؟
أتحول الى حلم ، او شعاعة برق ومضت ومَضَت ؟
لماذا هذا الاضطراب الباطل — لحظةً — بهذا الفضاء ؟

الشر الأدبي يا الهي قد اتخذ المادة عبدة
وأحبها فجعلها يوماً أمّا .
ولكنهُ الا يبقى هذا الذي التفت به وشجعتهُ
مقيداً بقيود هذا الحب الغريب ؟

روحك ظهرت لي يا الهي في الشمس
حيناً رقيقة ، واكثر احيانها مشتعلة .
الا انها كيف تتألم وتخفق دامية
في بعض أمسيات في الغروب القرمزي ؟

اهواؤك الالهية شبيهة بأهوائنا !
فلماذا تركض في رأسك هذه النجوم المجنونة ؟
أوليست نفسك التي لا تتناهى — يا الهي —
غير هذه النفس التي تضطرب قلقة فينا ؟

منذ ذلك اليوم الرائع ، يوم ولادتك يا آدم
يضيء ذات الشعاع في الانسان والشمس
وجودي والكون هما من كنه واحد
ونفسي واضطراباتها اجدها فيهِ .

ايها المسخ الذي تحركه نفس مظلمة
ايها المسخ الاخرس : يا أمي الطبيعة !
هل انا ضميرك وفعلك ؟
ولماذا يخيَّل اليَّ انك لا تفكرين ولا تتطفين الاَّ بي ولي ؟

ايتها الشابة دائماً ، ايتها الأم دائماً
ايتها الخليلة الدنسة والمقدسة حيناً

يا مضاعفة المشهد دائماً — ايتها الطبيعة !
اني اراك قاسية كما انت مشفقة وعذبة كما انت مرّة .

قد تنهمت نفسي خيراً من قبل حينما لاحظت نفسك ؟
وفي قلب اثمائك الفاحشين ما وجدت الاّ اياك :
ولا خطيئة فيهم الاّ كنتِ انتِ مصدرها

ايها الليل المزي للانسان !
ايها الليل : يا حلم ابن الكرى وراحته !
ايها الليل الهادىء الذي تمكن الاعمال فيه .
ايتها البحيرة السوداء ، ويا ايها القبر الساكن الذي تظلم فيه عقولنا !

انك وانت حي — انما تحيا وتسن بموت نفوس
وارتشاف دماء اجدادك الغائرين !
ضع ما تأخذ !
وادخل بلا عناد كنهر في بحر ، بحر الاكوان .

وفي هذا الكون المجنون الذي صنمهُ (مايا)[1]
تجد من قادهم الحب يتدحرجون خلال الاشياء
ويضطربون لها بدون سبب ، يشترونها حقائق منشودة

الستَ مروّعاً بالعدم المفعم ظلاماً ؟
حيث تتلاشى فكرتك وانت تحلم كثيراً
اصعد من العدم ، فالحب وحده ينقذك
ويأخذ بيدك ويهتف بك الى حياة جديدة !

(١) بحسب الخرافة الهندية

ألا بالرغم عن الدهر وعن الشقاء الذي يمضنا
لا تزال — هناك — لحظات سعيدة في هذه الرحلة الكونية
فلهدوء في طرف العدوة الثانية
والسلام الأكبر تلقاه تحت مظلة الموت .

في بعض الأمسيات حيث تذهل الحواس
يبدو لك الوجود كأثر الهي رائع .
وتفحات الريح لها حلاوة الاشعار
ولمعات السماء تشبه الالحان . . .

في فؤادي حفظت ذيول عينيك
الشبيهتين بالازهار التي تطلعها النفس علينا .
وفي فؤادي صنت شذا كلماتك .
وعذوبتك تركتني رحيماً .

انك تدري العقدة والفصل الاخير . . .
حيث لا نظر ولا كلام ثم لا شيء . . .

تذوّق — لحظةً ثانية — هذا النور وارشفهُ
تأمل واحلم
اعمل دائماً . . .
واصنع الخير . . .

خليل هنداوي

« يتلوه : شفقة الاستسلام »

سير الزمان

الوحدة العربية

لحنا خباز

روسيا

على مفترق الطرق

الوحدة العربية

لحنا عبود

نشأت في السنين الاخيرة دعاية جدّية الى الوحدة العربية . وجعل دعاتها ينادون بها في الاندية وفي الصحف ، مستبشرين او مبشرين بتآلف الاقطار العربية وتفاهمها وتحالفها ووحدتها . وقد تجاوز بعضهم هذا الحد الى التصريح « بالامبراطورية العربية » كأس هو في حيز الامكان

وكان قد سبق تنفخ باليوق هذي النغمة الجميلة المرحوم عبد الرحمن الكواكبي بكتابه الشهير « أم القرى » وذلك قبل نحو نصف قرن . وخفت ذلك الصوت بعدها ، الى ان تجدّد في آخر عهد الملك فيصل الاول ملك العراق . فارتفع صوت ذوية بالنداء بها على اثر عودته من لندن. والناس في تعليل ذلك مذاهب متباينة. والذي اعلمهُ ان الدكتور قدري بك سفير العراق في باريس ، وفارس بك الخوري رئيس مجلس النواب السوري ، ورستم حيدر بك ، وغيرهم من امثالهم ، يرون ان تلك الوحدة لابد من تحققها ، وانها ثمرة طبيعية لتحرُّر الامم العربية من السلطة الاجنبية . فان كل امة حرة هي واحدة في حكومتها ونظامها ، كايطاليا والمانيا وبريطانيا وفرنسا واليابان وروسيا وغيرها من امم الدنيا . وكل عربي صميم يودّ من كل قلبه ، حلول اليوم السعيد ، الذي به تكون الامة العربية متحدة متوحّدة منضوية تحت علم واحد . واذكر اني كنت احادث الاستاذ عبد العزيز الثعالبي ، الزعيم التونسي الكبير ، في امر الوحدة العربية . فقلت له ان حصول ذلك يقتضي الزمن الطويل . فاجابني فوراً ! « وما هو الزمان ؟ ليس الزمان الاّ انت وانا . فمتى اتفقنا على امر من الامور فقد حان وقتهُ » : وجّه هذا القول نظري الى ما للقوة الروحية من النفوذ في مصير الجماهير . على انهُ لم يسمني عما يعترض الوحدة العربية من العقبات . فهما تشُر في نفوسنا محبة الوحدة لا يمكنها ان تخفف صعوبة ما يعترض تحقيقها من العقبات . ولا اراني ارمي الى تثبيط عزائم بني امي باشارتي اليها . انما هي نظرة علمية لا بد من العناية بها إزاء ما نسمع ونرى كل يوم من اعراض يقظتنا المباركة ، ورغبتنا في ادراك شأو الامم الراقية في مشارق الارض ومغاربها . وسأعالج الآن العقبات على ان افرد فصلاً خاصًّا للاساليب والوسائل التي يجب ان نتخذها لتذليل هذه العقبات في سبيل ذلك الهدف السامي

١ — الوضع الجغرافي وصعوبة المواصلات

لنظرة الى خريطة العالم العربي ، فانها تريك خالاً ان تلك الاقطار غريبة الوضع ، لا مثيل

لها في بلاد غير العربية من الامم . بلاد تمتد من الاوقيانوس الاطلنطي غرباً الى جبال كردستان شرقاً . ومن جبال طورس شمالاً الى بحر الهند جنوباً . وفي وادي النيل تمتد الاقطار العربية الى قلب افريقية . واكثر هذه الاصقاع صحار وبلاقع ، يمزُّ فيها الزرع والضرع ، بل هنالك ما هو اكثر من ذلك تكداً ، وهو انها تمزُّ فيها المواصلات . وتتدر الخطوط الحديدية ، الاَّ ما كان من منشآت الاجانب . يستثنى من ذلك الخطوط الحديدية في مصر . على ان تلك الخطوط محلية لا تصل قطراً بقطر آخر من الاقطار العربية الاَّ ما يصل مصر بفلسطين اذا صحَّ القول بانهُ خط واحد . ثم ليس في كل الاقطار العربية نهر يصلح لمر السفن فيهِ الاَّ النيل والدجلة والفرات . على ان المواصلات فيها محدودة وسفر الركاب قليل . انَّ تقارب الاقطار ، وسهولة المواصلات فيها وتوافرها من أول الشروط لامكان وحدتها . قابل الاقطار العربية بأي بلد آخر ، كاليابان او المانيا او فرنسا ، تجد البون الشاسع بين هذه وتلك . والاقطار العربية ليست منتشرة في قارتين فقط ، بل انها في القارة الواحدة بعيدة المدى صعبة المراس . مثلاً ، الاقطار العربية في افريقية تمتد من الاسكندرية الى قلب السودان نحو ثلاثة آلاف كيلومتر . ولكن امتدادها من بورسعيد الى الدار البيضاء في غربي مراكش هو اطول كثيراً مما ذكر . كذلك الاقطار العربية في آسيا فانها غير متآلفة ، ولا متدانية ، ففيها الشام ، والعراق بينهما صحراء سورية ، ثم الجزيرة العربية بصحاريها ورمالها ، وجفاف بقاعها

ومن المعلوم ان الاقطار المتباعدة ، الصعبة المسالك ، القليلة المواصلات تنشىء في أقوامها تنافراً في المشارب وتبايناً في الاذواق . لان الانسان ابن الطبيعة . ولكل اقليم تأثير خاص في نفوس ساكنيهِ وفي أخلاقهم . فترسخ مزايا كل قطر في قومهِ على مدى الاجيال ، فتصير فيهم ملكات يتعذَّر نزعها او يتعسر . وهذا يحول دون تفاهمهم وتساندهم واتحادهم لجر المغانم ودفع المغارم ، فكيف يهون عليهم انشاء امبراطورية على ما بينهم من بعد الدار ، وتباين الآراء والميول ؟ فان الوحدة السياسية اذا لم تكن اختيارية ، واذا لم تكن ثمرة الثقافة الواحدة والصبغة الروحية الواحدة ، فاما أن تكون مستحيلة ، واما ان تكون ، اذا أمكنت ، بلاء على الناس ، كما كانت حال الاقطار الخاضعة للدولة العثمانية

لكل قطر من الاقطار العربية مزاياه الخاصة ، وعاداتهُ ، وتقاليده ، وميولهُ . ولدى محاولة جمع هذي الاقطار لتأليف ، وحدة او حلف بينها ، يبرز التباين بين مزاياها ، وتبدو صعوبة انضوائها تحت علم واحد . بل ان هنالك ثغراً أوسع ، وأدواء أشنع ، حتى في أقسام القطر الواحد . مثلاً : بر الشام ، وهو اصغر الاقطار العربية ، وأقلها حظاً . ففي هذا القطر من تباين الآراء ، وتنافر الاذواق ، ما ليس لهُ مثيل في قطر من أقطار الدنيا . فالتباين الذي

بين الشمال والجنوب أمر تحققناه ، في مشاهد العالم التي ضمت أبناء البلاد ضمن جدرانها . وهنالك عناصر لا يهون امتزاجها بعضها ببعض . كالدروز والموارنة والنصيرية وأعراب البادية . وعلاوة على ما ذكر هناك « اليهود » وهم ساميون نظيرنا ، ومع ذلك ، فان بينهم وبيننا ما صنع الحداد. وقد ضاعت حكمة اساطين السياسة في أوربا وأميركا أمام المشكلة اليهودية في فلسطين

وارجو القارىء العزيز أن لا يذهب عن فكره ان في القطر السوري من الادمغة والهمم النيرة ما يعزّ نظيره في أقطار هي أوسع مساحةً وأكثر سكاناً . تلك حقيقة لا مراء فيها ، تؤيدها شهادات أقطاب العالم المتمدن . ومع ذلك فأنت ترى ما فيها من الانشعاب وتنافر الاذواق ، وعدم التوافق . فاذا كان هذا هو الواقع في قطر واحد صغير ، فما ظنك في الاقطار المتباعدة كمصر وحضرموت او الجزائر والعراق ؟ فهذي أول عقبة في سبيل الوحدة العربية

٢ — الفقر

هو الداء العضال الذي لا ينفع فيه دواء ، ولا رقية ولا تعويذة ولا حيلة . الفقر أعضل الادواء البشرية واعصاها على فطس الاجتماع والسياسة . هذه الاقطار العربية ، على جودة اقاليمها — بعضها لا كلها — وموقعها الجغرافي الممتاز ، فانها صلة الوصل في العالم ، وبالرغم من ذكاء اقوامها وصفاء فطرتهم ، بالرغم من كل ذلك يحيق بها الفقر المدقع ، الفقر الاسود

وكيف يمكن ان تصان الوحدة والامة عاجزة عن الدفاع ؟ هذي هي بحارنا بحر العرب وخليج عمان ، والبحر الاحمر بخليجيه العقبة والسويس ، والبحر المتوسط ، وبوغاز جبل طارق ، وشرقي الاطلنطي . هذي هي البحار التي تصل الشطوط العربية ، فكم بارجة فيها لنا وكم نيافة وكم طراد ؟ لنفترض جدلاً ان الوحدة العربية ، التي نحبها ونحلم بها ، قد حصلت فاذا في طوقنا للدفاع عن الشطوط ؟ وهب ان الحكومة حاولت ان تعقد قرضاً داخليًّا فكم مليون جنيه يمكنها ان تقترض ، وماذا عساها أن تفعل بذلك المبالغ ؟ . اذكر ولا انسى يوم اعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، وهبَّت الامة لتولي الدفاع عن نفسها . فأذاعت جمعية الاتحاد والترقي ، وهي يوم ذاك حكومة ضمن حكومة ، اذاعت هذي الجمعية نداء في عرض البلاد بضرورة التبرع لانشاء اسطول عثماني يتولّى أمر الدفاع عن شطوط الممالك المحروسة . وتبارى رجالها في كل بلد في هذا المضمار . فكانوا يدعون الاعيان والاغنياء ، ويستنهضون هممهم لخدمة الوطن ، « قرّرنا انشاء اسطول عثماني ، فهاتوا أرونا غيرتكم » . فكم جمعت الممالك المحروسة بعد بذل الجهود الخارقة ؟ الذي أذكره انها جمعت نحو نصف مليون جنيه . فماذا عساها أن تنشيء بهذا المبلغ ، والبارجة من الطراز الاول تكلف ثمانية ملايين جنيه ؟ وكم سفينة حربية يلزمنا لحماية شطوط الامبراطورية العربية التي نحلم بها ؟ . وكم مليون يلزمنا لانشاء جميع تلك البوارج

والطرادات وغيرها من السفن الحربية ، لا للغزو ، بل للدفاع ؟

وإذا عجزنا عن ذلك فأي مستند نستند في انشاء امبراطورية اوسع من كل دولة في الارض واطولها شطوطاً ؟ وما قلتهُ في الاسطول يقال في الجيش البري . فيلزمهُ من الاموال مالا يستهان به . واليك شاهداً محسوساً « مصر » اليوم . فانها بناء على المعاهدة الحديثة بينها وبين انكلترا صار يحق لها ، بل يجب عليها ، زيادة الجيش للدفاع عن بيضة الملك . واجتمع الوزراء مراراً وتبادلوا الافكار ، وحسموا اقوال الخبراء ، وانتهوا الى نتيجة مضبوطة وهي : أن انشاء جيش مؤلف من عشرة آلاف يكلف الدولة عشرين مليون جنيه او اكثر . وان مصر ، مع ما يستدعي موقفها الحاضر لا تكاد تقدر ان تجند في العام القادم ثلاثة آلاف . فكم يلزمها لتهيئة نصف مليون ؟ . ولو أنها تولت الدفاع وحدها لما كفاها نصف مليون . ويلزمنا للدفاع عن الامبراطورية العربية اكثر من ذلك كثيراً ، فأين الاموال ؟ ان نفر العالم العربي يقلّ بده عن انشاء الوحدة لانهُ يرى نفسهُ عاجزاً عن الدفاع . اللهمَّ الاَّ أن تكون وحدة زائفة خالية من مؤهلات الاعتبار والاحترام فتغدو اللعبة في أيدي الاجانب

٣ — ضعف الزراعة والصناعة

الزراعة اول حجر في بناء الاجتماع البشري ، وهي استغلال الطبيعة ، ومنبع الثروة بالمعنى الصحيح . والصناعة هي الخطوة الثانية ، وهي ثمرة تصرُّف العقل بالمادة . والارتقاء الصناعي لصيق العلم وظاهرة المدنية . وقد جعل افلاطون الزراعة والصناعة ، في كتاب الجمهورية ، أس العمران ، وضامن الكيان . وعلى تبادل المنافع بين الافراد والجماهير تدور رحى المدنية والسياسة والارتقاء . وارتقاء الزراعة والصناعة في بلد أو أمّة عنوان الارتقاء . ولا يمكن ان ترقى أمة وزراعتها منحطة وصناعتها متقهقرة . فما هي أحوال هذين الركنين — الزراعة والصناعة — في العالم العربي ؟ . ليس ثمة من يجهل ان الاقطار العربية متأخرة في الامرين . وذلك أهم اسباب الفقر في بني قحطان ، لان الصناعة والزراعة ، وردد الثروة الاوّل

أجل ان القطر المصري ، وهو أسبق الاقطار العربية مدنيًّا ، فيه نهضة زراعية وصناعية أيضاً . وقد خطا في مساعي الري خطوة كبيرة الى الامام . وقد صحب ذلك نبوغ مهندسين وطنيين كبار عدا الخبراء والاختصاصيين الاجانب المستخدمين في مصلحة الري بوزارة الاشغال . فمصر بهذا الاعتبار جادَّة في أثر الامم الحية . وأرى ان العراق يسير في اثر مصر ويمتد في نهضته اليها نوعاً . وذلك ظاهرة حياة في مصر والعراق ، ومقدمة ارتقاء في العالم العربي . أني اقدر ذلك قدرهُ كؤرخ نزيه للنهضة العربية . على ان نزاهتي لا تأذن لي بالتعامي فالغالاة . قلت أجهل ان نهضة مصر والشام والعراق محلية وابتدائية . فلم يبلغ قطر من هذي الاقطار

مصاف الامم الراقية في احد ركني الحضارة . فلا نزال ، نحن العرب ، في اول اشواط الارتقاء وينقصنا من الصناعات الشيء الكثير ، كصنائع بناء السفن ، والبوارج ، والقاطرات ، والترام ، والسيارات والطيارات ، والدواصات ، والاسلحة ، والكوتشوك ، والآلات المتنوعة ، كآلات النسج وآلات عمل الجوارب ، وآلات التطريز والزركشة ، كذلك معامل صنع الخردوات ، كالمرايا والازرار والابر والدبابيس واقلام الرصاص ، والورق والحبر وأنواع البويا والاصباغ وغير ذلك من الصناعات التي لا بدَّ منها للاستقلال . هذا ما أقولهُ في أرقى الاقطار العربية ، فاذا ترى في الجزيرة العربية والسودان وبعض اقطار المغرب ؟ هل لها صناعة وزراعة تؤهلانها بادماجها في عداد الامم الراقية ؟ لا أرى مطّلعاً عاقلاً يجهل ان الجواب ، مع الاسف ، سلبي .

كنت في اليابان أدهش لرؤيتي مبلغ القوم الزراعي ، وقد لمست في ذلك حقيقة النهضة اليابانية . وكذلك في صناعتها . فلما أشرفت على أوساكا سنة ١٩١٨ وفيها يومذاك سبعة آلاف معمل ، ورأيت مداخن المعامل في ظاهر المدينة ، ردتها يكاد يحجب نور الشمس عنها ، عندها فهمت معنى النهضة الحديثة ، وتمثلت للهدي العربي نهضة نظيرها . وقد تجلى هذا الاقتناع للخاص والعام في السنين الاخيرة لما غمرت المنسوجات اليابانية أسواق العالم . ورأى ابناء الصين والضاد المنسوجات الحريرية اليابانية ، والحدايد اليابانية ، هذا عدا الخردوات والبهارج اليابانية ، وعدا الراديو وغيره من مصنوعات اليابان . وما أقولهُ في اليابان اقول اكثر منهُ في الولايات المتحدة الاميركية ، وفي فرنسا وانكلترا والمانيا وايطاليا . ولا أجهل ، ولا أنكر اننا مسبوقون في ذلك ، ومسبوقون كثيراً

وربَّ قائل يعارضني : ما علاقة تقدم الزراعة والصناعة بالوحدة العربية ؟ : اجيب هنالك كل العلاقة . فالتقدُّم الزراعي والصناعي شرط لازم لامكان الوحدة . فقد يكون ارتقاء صناعي وزراعي دون حصول الوحدة . ولكن الوحدة لا تكون بدونهما . لان الوحدة ظاهرة حياة شعبية . والارتقاء الزراعي والصناعي اول ظاهرات الحياة . فلا يمكن حصول الوحدة خلوًّا منها . ثم ان الزراعة والصناعة أدوات الوحدة تستعين بها على غلبة الصعوبات وتسهيل الامر . ولا يمكن امة في امم الارض ان تدرك وحدتها دون تقدُّم حقيقي زراعةً وصناعةً . بل انها اذا كانت موحدة وتأخرت في الزراعة والصناعة ضعفت اواصر وحدتها وانهار ركن اجتماعها ، فتشعب وتفرق ايدي سبا ، شاهدك المحسوس في ذلك الصين . فقد كانت الصين امة واحدة ولكن تأخرها صناعةً وزراعة انتهى بتفكك اوصالها ، وتمزيق وحدتها . وليس غزو اليابان اياها علة ذلك الانشعاب بل نتيجته ، كما ان غزو الترك الاقطار العربية ، وقضاء الاسبانيين على ممالك الاندلس العربية ، لم يكن علة الانشعاب في الجسم العربي بل نتيجته . فالانشعاب اولاً والاستيلاء ثانياً . واري — وكلامي هنا سابق اوانه — ان كل جهد في تحسين الزراعة والصناعة

هو خطوة الى الامام في بناء الوحدة العربية

يتبع ذلك ، او ينشأ عنهُ « تبادل المنافع » بين الاقطار العربية . وتبادل المنافع هو الرابط الاجتماعي العظيم . وتتم الوحدة العربية والكونية حين يكمل نظام تبادل المنتوجات على الوجه الاتمّ . وليس الخلل والشقاء في مسالك الامم والدول ، في عصرنا وفي كل عصر، الا ظاهرة ، او نتيجة عدم الانصاف في تبادل المنافع . فتبادل المنتجات ، في صورته الكاملة هو محل حياة ومحط اشراق تلك الحياة . ترى ذلك في الجسم العضوي كالانسان مثلاً فان نظامه الفسيولوجي صورة مصغرة لبناء الدولة والوحدة الشمسية فما دام الجسم سليماً من الآفات ، والحياة آمنة في عرشها والصحة مالكة زمام الاعضاء ، كان التعاون وتبادل الانتاج بين الاعضاء ، على اتمه . فيقوم كل من القلب والرئتين والمعدة والكبد والكليتين والدماغ بوظيفته الخاصة وبعد الاعضاء الاخرى عما يلزمها . فاذا اعتلّت الاعضاء اختلّت علاقاتها ، وانصرمت المواصلات ، وتعطل التبادل ، فبدت على الجسم اعراض الموت . هذا هو حال امم اوربا وآسيا واميركا ، وهو حال المجموعات الفلكية ، وحال الوجود في ما اعتقد . فما هي المنتجات التي تتبادلها الاقطار العربية ؟ ارجع الى لائحة الصادر والوارد في مصر وسورية والعراق واليمن وغيرها من سائر الاقطار العربية . ويدخل في ذلك الاصطياف والمشتى والسياحة ، وكل انواع التواصل والتعاون الاجتماعي

وخلاصة ما أقول في هذا الفرع هو ان تأخر الزراعة والصناعة والانتاج ، وقلة التبادل في المنتوجات ، عقبة في سبيل الوحدة العربية المرغوبة

٤ — اختلاف المقاييس

يدخل هذا البحث تحت الثاني في الحالة النفسية . لكني اخصه بالذكر هنا لما لهُ من شأن كلنا نعلم ما حدث في الحجاز بين المصريين والوهابيين في امر المحمل المصري وكيف اشتبك الفريقان في القتال . ولولا الملك عبد العزيز انفذ الموقف بحكمته لساءت العاقبة . على أنهُ مع ما ابدى الملك عبد العزيز من الحيطة والحمة ، ومع انقاذه الموقف بلباقة وشمم يستحق عليهما قدر الناس اياه قدره ، مع ذلك انصرمت العلاقات بين القطرين الشقيقين نحو عشر سنين . ولماذا كان ذلك ؟ الفريقان عرب . والفريقان مسلمون . ولمصر في الحجاز اياد بيض . فانها تنفق هنالك كل سنة عشرات الالوف من الجنيهات . وليس ثمة قطر عربي أوفر سخاء في الحجاز من مصر . فلو أن هنالك امة محببة الى قلب آل نجد ، فتلك الامة هي الامة المصرية . فلماذا كان التجافي والتنابذ بينهم وبينها ؟

الامر واضح . انهُ « اختلاف المقاييس » . مصر تحب الموسيقى وتحسبها ظاهرة حياة عالية . والوهابيون ينكرون ذلك ويحسبونهُ ظاهرة خلاعة وجناية على الروح . المصري يزامل زوجه الى السينما ، وقد يصحب صغاره أيضاً ، والوهابي يرفض ذلك ويقاومه . المصري يرسل بناته

الى المدارس الوطنية والاجنبية للتخصص في العلوم والفنون . والوهابي يحسب ذلك عاراً . المصري يحلق عارضيه والوهابي يرخي لحيته . المصري يدخن وذلك ينكر التدخين . أقول ان اختلاف المقاييس هو كل السبب في نزاع الاخوين وتجافيهما . وهو اس التنابذ بين الشرق والغرب ، وبين الشيوعيين والدكتاتوريين ، وبين النفس والجسد ، وبين الارض والسماء . فكيف تتسنى الوحدة مع اختلاف المقاييس والقيم؟

هنا يدخل توحيد الثقافة ، والكلام فيها ليس من اختصاص هذي المقالة ، فاكتفي بالاشارة ان تفاوت الاقوام في المستوى الاجتماعي والفراني والمدني والعلمي يقيم في سبيل وحدتها اصعب العقبات . فاذا كان احد الفريقين يتكلم الانكليزية والفريق الآخر الروسية فلا تفاهم بينهما . واذا راما التفاهم لزمهما الترجمان او القاموس . هذا هو موقف امم هي على درجات متفاوتة في سلم الارتقاء . فلكي يمكننا توحيد الخطة يجب اما ان اصعد اليك او انك تنزل اليّ . ولما كان منهج الطبع الارتقاء، كان نزولك اليّ غير مشروع ، فوجب ان ارقى اليك . وحتى كنا في مستوى واحد فحينذاك ، ليس الاّ ، يمكننا ان نسير معاً جنباً الى جنب وكتفاً الى كتف

ان ما قلتهُ في امم الاقطار العربية يصح في العائلات، وفي العلاقات الزوجية. فما دامت المقاييس في عين الزوجين متباينة لا يمكنهما ان يتنعما بسعادة الاتحاد . فالزوجان السعيدان هما اللذان عندهما مقاييس واحدة . فما يقدسهُ الزوج تقدسهُ الزوجة، وهكذا . فاذا تباينت مقاييسهما حل بهما الشقاء

٥ — الميل الى الانشعاب

عرف هذا الميل في اليونانيين القدماء . فتعذر عليهم الانضمام تحت علم واحد . فكانوا ممالك عديدة ، حتى في بعضها كانت كل مدينة مملكة. لذلك لما تكلم افلاطون في الجمهورية مثل عليها بالمدينة . لان المدينة في عرف اولئك المنشئين هي الدولة . أما في تمدن اوربا الحديث فليس الامر كذلك ، بل نرى فيها كل امة تحت علم واحد، فجميع الفرنسيين يخضعون لحكومة باريس ، وجميع الانكليز لحكومة لندن . وهكذا الالمان والروس والايطاليون وغيرهم . أما في العالم العربي فليس كذلك ، فلنا دول مستقلة متمايزة في امة واحدة . هذي اليمن . والى جانبها حضرموت ، ثم الحجاز ونجد ، تليها العراق فسورية فمصر . يأتي بعد كل ذلك المغرب باقسامه تونس والجزائر ومراكش ، ولا ننسى طرابلس والسودان . وقد بلغ من بعضهم الاعتصام بذلك حداً حسب عنده السعي في الوحدة افتئاتاً وجناية !! والسبب في ذلك ميل الجنس العربي — كما كان في الجنس الاغريقي — الى الانشعاب

والانشعاب اسهل على الحياة الفطرية من الاتحاد . ففي الحياة المادية التقدم من الواحد الى المتحد . فالنبت اصله واحد ثم انشعب. والعائلة اصلها واحد ثم تمددت . هذا هو منهج الفطرة.

اما في الحياة الروحية فالتقدم هو من التعدد الى الواحد . الاصل في بني حواء فرادى . فاذا ارتقوا روحيًّا تقاربت افرادهم وتواصلت فتبادلت الحياة . ترى ذلك كلهُ في الجسم العضوي فاذ برحتهُ الحياة ، وتحكمت فيهِ نواميس المادة تبعثر وتشتت اجزاؤه حتى صار تراباً . اما اذا سادتهُ الحياة فان اجزاءه تترابط وتتساند ، فالاجناس التي ما زالت على الفطرة يعز عليها انشاء الوحدة ، وعليهِ تنقسم الامم في الطور الاول الى عشائر متباينة متمايزة . وفي جزر فيلبين لكل جزيرة لغة خاصة ، وهكذا في العشائر الافريقية ، فتعداد اللغات في ام اوربا هو كالحروب من موروثات القِدم ، والارتقاء آذن بتوحيد اللغة لا بتنوعها . فالامم العربية أقرب الى الفطرة منها الى الارتقاء . ومع ان بعض اقطارها لامس المدنية وصعد في سلم الارتقاء ، ما زالت سنة الفطرة تسود احكامه . فمها يكبر الرضيع لا يزال يصبو الى التهد . وترى في اكبر الشيوخ الميل الى اوصاف الطفولة كالمرح والبكاء والشهوة والنزاع . فانشاء الوحدة العربية عمل تقدم ايجابي ينافيهِ الميل العربي الى الانشعاب . فان البدوي لا يعرف الخضوع للنظام في دائرة واسعة . ولا يحترم انكار النفس في سبيل حقوق الغير . لذا كان الغزو عنده مشروعاً . ونحن الحضر اخوانه شركاؤه في تراث السلف « الصالح » . كنت اقرأ كتاب تاريخ اليمن للعلامة الشيخ عبد الواسع ابن يحيى الواسعي اليماني ، راغباً في الوقوف على شيء من شؤون اخواننا في قلب الجزيرة يصح الاستشهاد بهِ في موضوعي والاستناد اليهِ . فاستوقف نظري تعداد العشائر في تهامة الى حدٍّ تضيع عنده الحافظة . وقد نقل ذكر العشائر المتمايزة اكثر من ٤ صفحات ، ولكل عشيرة مزاياها الخاصة ومقاييسها . يقيم ذلك صعوبة كأداء في سبيل الوحدة العربية كنظام سياسي

كذلك كانت ايطاليا في بدء تاريخ رومة . وكانت عشائرها وحدات متمايزة يحارب بعضها بعضاً ، كما تفعل عشائر الاعراب اليوم . وبعد سقوط الامبراطورية الغربية في عهد شارلمان عادت ايطاليا الى الانشعاب . وانقسمت الى اقاليم عديدة . وفي بعضها الحكم لمدينة واحدة كالبندقية وفلورنسا وجنوى ونابلي وهكذا . وظل الانشعاب الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث نشأت الوحدة الايطالية بمساعي كافور وغاريبلدي ومازيني وغيرهم . وقد تقم بعضهم ، وأناسهم ، على دول الاستعمار لانها قسمت البلاد الى وحدات صغيرة يسهل ازدرادها . فاوجدوا ما يدعونهُ شرق الاردن فلسطين لبنان . سورية . سنجق الاسكندرونة . وهكذا . على اني لا انكر انهُ لولا الميل العربي الى الانشعاب لاستحال حصول ذلك . وعندي على ذلك شواهد لا محل لاثباتها هنا لضيق المقام

هذي بعض عثرات ذكرتها مختصراً ، وقد تجنبت فيها ايراد الشواهد . وعندي ان هذا البسط لا غنى عنهُ لوصف الخطة القويمة التي نختطها في سبيل التغلب على هذه العقبات ، والاتجاه الى تحقيق الوحدة . وهو موضوع مقالة على حدة ، ان شاء الله

روسيا

على مفترق الطرق

مضت سنة ونصف سنة وروسيا السوفيتية تعاني ازمة داخلية شديدة ، بدا بعض مظهرها في محاكمة اقطاب الثورة البولشفية وفريق من اكبر قواد الجيش واعدامهم ، وما لازم تلك المحاكمة ، من اعتراف المحاكين اعترافاً ليس فيه اثر من الرجولة بل كل اثر من الضعف والتخاذل ، وما كشف عنهُ التحقيق من تهم بالخيانة والتدبير موجهة الى الرؤساء في اعلى دوائر الحكومة ، وما تبعها من فقد روسيا جانباً كبيراً من الثقة التي احرزتها في العهد الاخير في اوربا واميركا ولا سيما بعد اعتراف حكومة الولايات المتحدة الاميركية بها وانتظامها في جامعة الامم في خريف سنة ١٩٣٤

فهل ستالين دكتاتور روسيا مصاب بجنون الاضطهاد ؟ ألمّ تفض الحوادث الاخيرة الى زعزعة الاركان التي يقوم عليها النظام السوفيتي ؟ وهل من المحتمل ان يبقى ظل حكمه الدكتاتوري مبسوطاً على روسيا ؟

لنصرف النظر عن السؤال الاول . فليس في ما يعرف عن اعمال ستالين وحالته ما يكفي لتناول ذهنه وحالته النفسية بالتحليل البيولوجي والطبي الجدي . ثم ان التماس العلل النفسية لتطوّرات السياسة المعقدة ، قد يضلّ الباحث عن طريق الصواب حتى في البلدان التي تحكم حكماً دكتاتورياً

الاّ ان السؤال الثاني ، يرمي الى تبيُّن اثر الحوادث الاخيرة في مكانة ستالين وهل عزّزتها او زعزعت من اركانها ؟ ويقول باحث مفكر في مجلة الكونتمبوراري وعنهُ تنقل — ان الردّ على هذا السؤال لا يمكن ان يكون ايجاباً صرفاً ولا سلباً بحتاً . ذلك انهُ اذا نظرنا الى ستالين على انهُ زعيم الشيوعية ، وقائد الحركة التي ترمي الى احداث الثورة العالمية ، فلا ريب في انهُ قد فقد جانباً كبيراً من سلطته وقوته وثقته بنفسه . وهذا يفسّر ما يشاهد في الاحزاب الشيوعية في مختلف البلدان من انقسام وتزاع ، ولذلك غدت موسكو بعدما كانت الى عهد قريب محجة جميع الشيوعيين المستقيمي الرأي في العالم ، وهي غير ما كانت عليه . ولذلك يرى السائر في هايد بارك بلندن خطيبين شيوعيين يخطبان ، احدهما في جوار الآخر ، اولهما تحت علم ستالين والآخر تحت علم تروتسكي واتباعه . ولذلك يصح القول بان التهمة التي يوجّهها تروتسكي في مقالاته وكتبه الى ستالين ، بانهُ خان الثورة الشيوعية العالمية ، لها ما تستند اليه

والواقع ان ستالين اليوم غير ما كان عليه سنة ١٩٣٣ او في السنوات التي تلت وفاة لنين. فبعد ما كان الزعيم الثوري للاشتراكية الدولية اصبح الحاكم بامره لمصالح روسيا القومية

فاذا نظرنا اليه على انهُ الرائد للمرحلة الثانية من الثورة البولشفية التي يصحُّ ان نسميها مرحلة البولشفية الوطنية، وجدنا انهُ عزّز مقامهُ وأيد سلطتهُ نتيجة للحوادث الجسام التي وقعت في روسيا في العام الماضي. ولعلهُ غير مدرك تماماً هذا التحوّل الداخلي في نفسه. بل لعلهُ لا يزال يعتقد انهُ الامين على ميراث لنين. ولكن الواقع ان ستالين زعيم الثورة العالمية قد انقلب رجلاً آخر هو زعيم البعث القومي في روسيا. فموقفهُ الآن من الوجهة النظرية، هو الموقف الذي يستخلصهُ الباحث من حديثه مع ولز حيث وصف بأنهُ رجل يواجه حقائق الحال وقد اضطرتهُ نزعتهُ هذه الى تعديل خطته وفقاً لتحول الحالة الدولية. اما عمل يعود بعد ذلك الى موقفه الاول موقف زعيم الثورة العالمية، فمن الصعب الحكم فيه وهو غير محتمل على الارجح

ان هذا التحوّل في نفسية ستالين، وفي تطور روسيا السياسي، ليس من نتائج المصادفة. بل هما مظهران من مظاهر الخطر الخارجي الذي يحفُّ بروسيا السوفيتية. فقيام الحزب النازي في المانيا، وأملهُ المعقود على توسع المانيا في شرق اوربا، قد أثرا في اتجاه الفكر الروسي وسياسة روسيا الداخلية. ثم ان مطامع اليابان في الشرق الاقصى أيدت هذا الاتجاه. وقد كان للحروب الخارجية، في تاريخ روسيا الحديث، تأثير كبير في نظامها الداخلي. لذلك قال لنين ان الشيوعيين لا يستطيعون ان يبدلوا في جغرافية روسيا. فانشاء روسيا الحديثة على يدي بطرس الاكبر، كان نتيجة النزاع الطويل مع ندّه السويدي. والاصلاحات الثورية التي أدخلها على البلاد، لم تكن وفقاً لبرامج أعدَّهُ للاصلاح، بل كانت أعمالاً قضت بها الحاجة لمواصلة الحرب. ثم ان حرب القرم أفضت الى الغاء الرقّ الزراعيّ والحرب الروسية اليابانية الى وضع الدستور، والحرب العالمية حولت روسيا القيصرية الزراعية المتأخرة في شؤون الصناعة الى الدولة الشيوعية الاولى في ظلّ دكتاتورية العمال

أما اليوم فان مخاطر الحرب التي تهدّد روسيا من الداخل والخارج تؤثر في نشوئها الداخلي قبل وقوعها، لان الدولة ترى حتماً عليها ان تبذل كل جهد للتأهب لها ولو كان في كل عمل تعمله في هذا السبيل، ما يناقض برنامج الحزب الشيوعي وخطتهُ

ان نظام الدولة السوفيتية نفسهُ قد بدأ يتغير وفقاً لمقتضيات الحالة الدولية. حتى تحقيق برنامج السنوات الخمس الاول والثاني، يجيء في المقام الثاني بالقياس الى الاصلاح الدستوري في البلاد. لقد عدّل الدستور الاميركي الذي وضع من قرن ونصف قرن احدى وعشرين مرة. ولكن الدستور السوفيتي الذي أنشيء من اربع عشرة سنة قد نقح كل سنة تقريباً. والمرة الاولى في

السنوات الاربع عشرة الماضية، فسح المجال في الاصلاح الدستوري الذي تمّ في السنة الماضية، لمثل الاحرار والدمقراطيين . وكان ذلك على اثر الخطبة التي خطبها ستالين في ٤ مايو سنة ١٩٣٥ عند ما بيّن قيمة « الشخصية » التي طالما أنكرتها روسيا الشيوعية

ان الحكومة الروسية القائمة ترى انها في اشدّ الحاجة الى توسيع الاساس الاجتماعي الذي تقوم عليه سلطتها رغبةً منها في تعزيز قدرة البلاد على الدفاع . واذن لا بدّ من مسالمة العناصر التي كانت تعاديها قبلاً . ولذلك نصّ الدستور الجديد على أن جميع الروسيين ما عدا المصابين في عقولهم سيمنحون حق الانتخاب عندما يبلغون السنة الثامنة عشرة من العمر . فلا ينظر بعد الآن الى نشأة الرجل او المرأة في بيت من بيوت الاشراف او الارستقراطيين . لان روسيا الجديدة ستضمّ من الوجهة النظرية على الاقل ، « جميع المرابين وجواسيس البوليس » اسوةً بالعمال . ثم إن الخدمة العسكرية والانتظام في الجامعات لن يكونا ميزة مقتصرة على العمال . بل على الضدّ من ذلك اصبح اقطاب الحكومة يصرّحون بان الخدمة العسكرية ، عمل شريف يجب على كل روسي . ومن مظاهر هذا التحول ان فرسان القوزاق الذين كانوا من ألدّ خصوم البولشفية ، قد أعيدت اليهم امتيازاتهم وملابسهم الخاصة . ذلك ان الحكومة تريد أن تضم تحت لوائها جميع القوى في سبيل الدفاع عن « الوطن الروسي » !

إلاّ أن ما تقدم لا يكفي لانهُ يتصل بمظهر الدولة فقط . ولكن العقول والنفوس يجب ان يغير ما بها ، وتعدّ للنهوض بالاعباء التي تواجهها . واذا بحث باحث في الصحافة السوفيتية الآن حملهُ على الدهش ما يراهُ فيها من تبدل في اللغة وأساليب التفكير . فهي تستخرج الآن من دقائق الماضي الفاظاً كانت الثورة البولشفية قد حظرتها . هو ذا كلمة « الوطن » يجب أن تظهر في كل مقال افتتاحي . « والوطنية » صفة تمجد بكل اسلوب من اساليب التمجيد . قالت الاسفستيا في ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٧ :— « الوطن ! ما اعظم ما تنطوي عليهِ هذه اللفظة البسيطة من المعاني تثيرها في نفس كل روسي . انها تعبر عن أجلّ وأعلى وأنبل شعور يجول في نفس الوطني السوفيتي . محبة المرء لبلاده ، والتباهي بقومه ، والشعور بقوته التي لا تغلب ، والاستعداد للخدمة ، والتضحية بالحياة اذا اقتضى الامر ذلك »

لقد قلّ بل ندر ما يذكر الآن في الصحف عن العمال الروس وانهم روّاد الثورة العالمية . وحلّ محلهُ القول في عظمة الشعب الروسي ومجد مآثره القومية . فالصحافة الروسية ترسخ في اذهان الشعب الروسي المباهاة بتاريخه وادبه وفنه وبعظماء ابنائه . وكتابها يعمدون الى التنقيب في التاريخ الروسي فيستخرجون منهُ صفحات المجد وينشرونها على الناس

حتى الادب الروسي غدا يستعمل وسيلة لنشر الدعوة في سبيل جمع القوى والتأهب

الدفاع . والمؤلفون الروس يُحسنون على معالجة مشكلات الدفاع عن الوطن وتمزيز حبه وروح التضحية في سبيله في نفوس القراء . وقد بُعثت الاناشيد الوطنية الحماسية التي كانت شائعة في العهد القديم ، لانها مرتبطة بكثير من الاساطير التي تمجد ابطال الدفاع عن الوطن في مختلف عصور التاريخ . بل ان النعاية الوطنية في روسيا قد اخذت تتسم بسمة الغلوّ في الوطنية . فالشاعر الروسي لوجوفسكي ، هدّد من عهد قريب بطرده من جماعة المؤلفين الروس لانهُ حاول ان يخرج طبعة جديدة لاشعاره القديمة التي يصف فيها كآبة القرية الروسية وجفاءَ الطبيعة فيها

ثم هناك تعليم التاريخ . وفي هذا الميدان نجد تبدلاً ظاهراً . فقد قال احد الرحالين الانكليز ، انهُ عند ما يزور البلدان الاجنبية يعنى عناية خاصة بمطالعة كتب التاريخ التي تدرّس في المدارس لانهُ يجد فيها أبلغ دليل على اتجاه الفكر في تلك الامة

ولا يخفى ان أنصار الثورة البولشفية في روسيا عمدوا بعد الثورة الى تغيير كتب التاريخ التي تدرس في المدارس ، فألقوا ستاراً كثيفاً على مكانة « الشخصية » في التاريخ ، مع ان إجلال شخصية لنين حينئذٍ كان قد بلغ مبلغ العبادة . وجعلوا يفسّرون كل حادث تاريخي ، بأنهُ مظهر للنزاع بين الطبقات . ولكن هذه النزعة قد أخذت تتبدل . وغدت كتب بوكروفسكي القائمة على تفسير التاريخ تفسيراً اقتصادياً بحسب مذهب ماركس — وهي كتب أثنى عليها لنين، وطبعت منها ملايين النسخ ووزعت في المدارس — غدت هذه الكتب في نظر الحكومة السوفيتية الآن مناقضة للاسلوب التاريخي السليم . كانت كتب التاريخ تعمد الى تمجيد عهد الوثنية الروسية قبل دخول المسيحية ، ولكن الكتب التي تؤلف وتدرس الآن تشير الى دخول المسيحية البلاد كعامل من عوامل الارتقاء . وبطرس الاكبر الذي كان يوصف بأنهُ طاغية مستبد بالجماهير الروسية ، غدا فيصراً حكيماً محبًّا للارتقاء ». والامثلة على هذا التحوّل في كتابة التاريخ وتدريسه كثيرة فاكتفينا منها بما تقدم

هذا السعي الى افراغ حياة الشعب الروسي العقلية ، في قالب النزعة الوطنية القومية ، يصحبهُ سعي آخر الى العودة بالحياة الاجتماعية الى حالة الاجتماع « البورجوازيّ » . فالنزعة الحرّة بادية الاثر في الدستور الجديد ، حيث يعترف بحقوق الانسان على مثال ما بسطت في الدستورين الاميركي والفرنسي

ثم هناك تحوّل عظيم الشأن في النظر الى حياة الاسرة ، يرجى منهُ أن تحوّل روسيا من بلاد « الحب الحرّ » الى بلاد الاسرة المتماسكة . وقد صدرت قوانين متعدّدة غرضها مكافحة الموقف المجرّد عن الشعور بالمسؤولية نحو الاسرة وواجباتها

فالطلاق الذي كان سهلاً جدًّا وضعت في سبيله القيود . وبعدما كان الراغب فيه الى عهد

قريب ، يكتفي بكتابة ورقة يقرر فيها هذه الرغبة ، فيمنح الطلاق ، اضحى كل طلاق جديد يقتضي من طالبه للحصول عليه ، دفع مبلغ اضافي من المال للدولة ، يزيد بزيادة عدد طلبات الطلاق . وكان الاجهاض عملاً شرعياً خلال ست عشرسنة ، اما الآن فهو محرّم لانهُ ضار حتى ما يقولون ، ومن يحاولهُ او يقم به يعاقبْ عقاباً شديداً . فالامومة اصبحت في هذه النظرة الاجتماعية الجديدة « واجباً عظيماً » والوالدات اللواتي يلدنَ ستة اولاد او اكثر تمنحهنّ الدولة اعانة خاصة على سبيل ما تفعل الحكومات الفاشستية

وما تبيّناه من اثر الاتجاه الجديد في الانظمة السياسية والاجتماعية نجده كذلك في ميدان التعليم والادب . فقد استردّ المعلمون سلطتهم على الطلاب ، وعادت الجامعات توزع الالقاب والرتب العلمية على مستحقيها . وزاد الطلب على مؤلفات الكتاب الروس العظام مما يدلُّ على ان القارىء الروسي قد أخذ ينصرف عن « الادب الاشتراكي » التي وضعت مؤلفاتهُ بامر الدولة ، الى مؤلفات الكتاب والشعراء الروس الذين احرزوا أعلى مكانة في الادب العالمي كبوشكين وتورجنيف وتولستوي وغيرهم

وقد عادت رواية « آنا كارنينا » تأليف تولستوي ، اوسع الروايات انتشاراً بعد رفع الحظر عنها . ولا يقل الطلب كذلك على مؤلفات الشعراء والادباء الاجانب كجوته وبيرون وهيني وبلزاك ، بل إن مسرحيات شكسبير ، تحسب « قمة الدراما الكلاسيكية »

ان حماسة الروس الثورية قد بلغت ، على ما يظهر ، مرتبة الخمود ورقاص الثورة الذي اندفع الى اقصى حدودهِ في ناحية قد أخذ يرتدُّ الى الناحية المقابلة . وهناك آثار إعياء وخمود بادية في جميع مسالك الحياة . فالنزعة الى مواجهة الحقائق اليومية أخذت تحلّ محلّ الحماسة الثورية

وكذلك يمكن ان يقال ان الثورة البولشفية قد بلغت المرتبة التي تلتهم فيها الثورة ابناءها — اي الافكار والمنشآت الثورية — بل ومبدعي تلك الافكار والمنشآت . وليس ذلك بالغريب . فالتحوُّل من الثورة والانحراف عن سبيل الشيوعية المستقيم الى مسالك « القومية البولشفية » ، ما كان يمكن ان يتم بغير نزاع عنيف ، عام وخاص . وقد كان شبان الشيوعيين في مقدمة الذين بعثوا بأسئلتهم الى مكاتب الصحف ، لانهم على ما قالوا عاجزون ان يفهموا مغزى الكلام على الثقافة القومية حالة انهم نشأوا ورسخ في اذهانهم تفهم واحترامهم للثقافة الخاصة بالعمال . ثم ان الانصراف عن السعي الى بث الثورة العالمية ، هال بعض اقطابها فاعترضوا عليه . وهذا يفسّر اعدامهم . أن التحول الجديد ، يقتضي ازالة النزعة الثورية من سبيله . وقد أصدر ستالين امرهُ من عهد قريب بفض جماعة البولشفيك القدماء . ومن المفارقات ما يروى الآن ، من ان ستالين وهو مكوّن الحزب الشيوعي ينوي ان يقضي على الحزب في شكله الحالي . ومما يلحق بهذه النزعة ، قنوط الحكومة

الروسية في استقبال الشيوعيين الاجانب الذين يجيئون موسكو حجاجاً او لاجئين . ان معظم هؤلاء ، يرون في روسيا الحالية ، هيكل اخلاصهم لا غير

اما اعدام المارشال توخاتشفسكي فلا يمكن ان يفسَّر تفسيراً معقولاً بما تقدم . والذين يعرفونهُ يؤكدون ان تهمة الخيانة والتواطؤ مع اعداء روسيا، وهي التهمة التي وجهت اليهِ رسميًّا عند محاكمته ، ليس لها ما تستند اليهِ . والراجح انهُ سلك سلكاً سيئاً اساءهُ عليهِ وطنيتهُ . فالجفاء بين الحكومتين الالمانية والروسية الآن لا صلة لهُ بما بين الشعبين من تنافر في الذوق والطبيعة . ومردّهُ الى عداء مفتعل بين الفاشستية والشيوعية . ومع ذلك ففي الريخسفهر ، في عهد الريخ الثالث اسوة بعهد الجمهورية ، فريق مع الاقطاب من رأيهم الاتفاق مع روسيا . وقد كان توخاتشفسكي في المنصب الذي يمكنهُ من فهم الخطر الذي يتعرض لهُ وطنهُ اذا اضطر ان يحارب دولتين عسكريتين عظيمتين في الشرق والغرب في آن واحد . ولعلهُ حاول حينئذ ان يتصل بذلك الفريق من الريخسفهر الذي يؤيد فكرة التفاهم مع روسيا ، بباعث من شعوره الوطني وادراكه للخطر الذي يحف بروسيا . وليس من المستحيل ان تكون مساعي من هذا القبيل منطوية على فكرة نزاع داخلي او مؤامرة على ستالين . والواقع ان تطور روسيا الداخلي ، الذي وصفناه في ما تقدم كان قد انشأ جوًّا صالحاً لاحداث انقلاب على يد قائد كبير . ولو وقع هذا الانقلاب وعجم لكان من شأنهِ تعزيز النزعة القومية في روسيا . ولكن ستالين علم بما يدور فضرب ضربتهُ القاضية ، وباعدام توخاتشفسكي فقد الجيش الاحمر قائداً من اعظم قواده وأعظمهم جرأة

والآن — هل يطول حكم ستالين ؟ وهل يدوم حكم هتلر ؟ وهل تخرج اوربا سليمة بوجهٍ عام من حرب عالمية اخرى ؟ وهل ثمة امل ما في اجتناب هذه الحرب ؟ انها اسئلة من صنف واحد ، وهي متصلة بعضها ببعض اوثق اتصال . ومن اليسّر ان نحاول التنبؤ بما يقع في روسيا متعذّر ، ولا سيما وهي تجتاز ازمة داخلية عنيفة وتحولاً اساسيًّا بعيد المدى . وانما يمكن ان يقال ، ان ستالين قد عزز سلطتهُ بالقوة والبطش ، وانهُ لا ريب في انحرافه رويداً رويداً الى ناحية الطريق « البولشفي القومي » ، بضغط القوى الخارجية التي تهدد روسيا . والبادي للباحثين المجردين عن الهوى الآن ، ان دكتاتورية ستالين اقل تعرضاً للسقوط الآن من ارث لنين — ارث الشيوعية الخالصة والثورة العالمية

ان مقبرة لنين الفخمة لا تزال قائمة في الميدان الاحمر بموسكو . ولكن هل ينبعث منها الآن ، كما كان ينبعث في الماضي ، نور وحي قوي وايمان راسخ ؟ لقد علمنا التاريخ ، ان الاضاب كثيراً ما تفقد تأثيرها في النفوس بانقضاء قليل او كثير من الزمن عليها !

باب التربية
والخدمة الاجتماعية

التعليم على قمة جبل
للكاتب الاميركي لويس اداميك

زكاة الثقافة والعلم والنبوغ
خطبة الاستاذ محمد المشاوي بك

تاريخ مجيد وأغراض نبيلة
للسيدة انصاف منصور فهمي بك

مدرسة نجيبة حيث يتعلم الطلاب
كيف يعيشون وكيف يفكرون

التعليم على قمة جبل

في هذا المقال الذي يلخص واقع التجربة خطيرة في ميدان التربية وضعها الكاتب الاميركي الكبير لويس اداميك في مجلة هاربرز الاميركية ونقلها عن ملخص الريدرز دايجست محمد سعد فوزي

ليست بلدة « بلاك ماونتين » — أو الجبل الاسود — إلاّ بلدة جبلية صغيرة يحيط بها الاخدود الازرق الكبير من جهة وسلاسل الجبال الشاهقة من الجهة الاخرى في ولاية كارولينا الشمالية بامبركا . وعلى منبسط من شمالها قامت « كلية الجبل الاسود » في بناء على طراز الفنادق الصيفية تملكه جمعية الشبان المسيحية ولا تزال تستعمله الى الآن في شهور الصيف كمسكر للكشافة الشبان

عندما اجتزت ردهة الكلية لم يكن في نيتي ان امكث فيها الاّ ما يقضي الزائر العادي — ربما ساعة او بعض ساعة . ولكني بقيت فيها شهرين ونصف شهر ادرس ما يمكن ان يضحى اهمّ المبتكرات التربية في تاريخ أميركا الحديث

إن بداءة كلية الجبل الاسود سنة ١٩٣٣ اتخذت شكلاً يصعب تصديقه . ولست ألمح في قولي هذا الى الدكتور جون رايس الذي كانت جامعة رولينس بفيلادلفيا قد طردته لانه كان مصدر قلق دائم فيها لما اتصفت به آراؤه في التربية والفلسفة من الجرأة والخروج على المألوف ، ولا الى ذلك الفريق من المدرسين الذين أيّدوا رايس وفقدوا بسببه وظائفهم . ولكنني لا ازال اذكر وأعجب بمنظر اولئك الشبان ، وكان عددهم خمسة وعشرين بين شاب وفتاة وهم لا يزالون في العشرين من العمر أعجب بمنظرهم وقد اقدموا على اختيارهم الى اولئك الاساتذة الثوار في مشروعهم الكبير لتأسيس كلية حين كان كلٌّ يجهل طريقة الابتداء في العمل او على أي اساس من الناحية المالية يقوم

ولقد نجح المشروع . فقد تمكن الطلبة باكتتاب عام من مساعدة اساتذتهم على جمع مبلغ يسير من المال يكفي لاستئجار المكان المذكور عدة شهور وشراء بعض اللوازم المدرسية وتخزين بعض الاطعمة لتكفيهم بضعة اشهر . واحضر كل طالب معهُ وكل مدرس كتبه الخصوصية وجمعوها في غرفة واحدة وسموها « مكتبة الكلية » واتفقوا على ان يقوموا بالاعمال اليدوية فيها بالتناوب . وعند انتهاء السنة الاولى كان كل مدرس قد سحب من « الخزينة » مبلغاً قدره

سبعة ريالات وسبعة وعشرين سنتاً في الشهر اي نحو جنيه ونصف وذلك لشراء الضروريات من ملابس وغيرها . واخذ عدد الطلبة والمدرسين يزداد تدريجاً ويمكن القول ان العدد قد يصل في بحر الثلاث السنوات القادمة الى مائة وعشرين طالباً وطالبة وثلاثين مدرساً ، وهو أقصى عدد يمكن أن تتسع له الكلية في مكانها الحالي

وليس للكلية مجلس امناء ولا مجلس ادارة ولا عميد ولا اي مدير يمكن ان يتدخل في عمل الاساتذة . ولما كان جون رايس هو الذي انشأ هذه الكلية فهو في منزلة المدير ولكن جميع القرارات الخطيرة تصدر من الجمعية التي تواها بعض المدرسين يختارهم زملاؤهم ومندوب او اكثر عن الطلبة . والكلية عبارة عن دولة صغيرة أساسها الديموقراطية والمساواة التامة فمندوبو الطلبة يقفون على قدم المساواة مع مندوبي هيئة التدريس . والمدرسون يجتمعون مع الطلبة للنظر في مسائل الكلية العامة ومشاكلها كلّ شهر مرة او عند ما تقتضي الحالة عقد هذا الاجتماع

ولقد القيت سياسة التدريس اول الامر على عاتق الدكتور رايس . وترمي طريقته الفلسفية في التعليم الى تخريج شبان ناضجين عقلاً « وعاطفة » وهو يقول في ذلك « إن مهمة المدارس هي تخريج طلبة لا يتجاوزون بمقدار ما تعلموا فقط ، ولكن بما في استطاعتهم أن يستفيدوا مما تعلموه . وكليتنا تخرج شباناً يعلمون أن الحياة ما هي الاّ سلسلة تحاون محكمة الحلقات »

وموطن جون رايس في جنوب كارولينا وهو ابن قسيس ويبلغ من العمر الآن نحو سبعة وأربعين عاماً ويتصف بكثير من النشاط الجسمي والعقلي . أما صراحتهُ وإخلاصهُ فلا يرقى اليهما الشك . وهو كثير التعصب لمهنته . ولقد استوقفت نظري شخصيته أولاً وتملكتني حماستهُ ولكني ارتبت في نظريته المتفائلة الى مشروعه الكبير . ثم استوثقت بعد الدرس والتمحيص من أن طريقتهُ التعليمية لا بد وأن تنال نجاحاً عظيماً في المستقبل القريب

والتعليم في تلك الكلية ينحصر ويتركز في شيء واحد — التجربة والاختبار . فالطالب يجد هناك بيئةً من العلوم النادية ومن بينها الموسيقى ودراسة الدراما والفنون الجميلة . وهو مضطر أن يعيش كوحدة في هيئة اجتماعية مشدود عراها . واذا استثنينا اثنين من الاساتذة يعيشان مع زوجتيهما وأولادهما في جناح خاص ، فان باقي الاساتذة يسكنون مع الطلبة في بناء واحد ويناموا في عنبر واحد ويقومون بتمريناتهم الصباحية معاً في صحن المدرسة الواسع . ويتناول الجميع الطعام في أوقاته المحددة في حجرة الطعام الكبيرة حيث ينضم اليهم الزميلان المتزوجان مع زوجتيهما والاطفال

وليس في الكلية موظفون . وإذا استثنينا الطباخ ومساعده وخادمين ورجلاً يهتم بالمدفأة

في شهور البرد القارص ، فان الأعمال اليدوية جميعها يقوم بها الطلبة والاساتذة معاً بغير فارق في أوقات الطعام يخدم الطلبة الاساتذة دوراً وهؤلاء يخدمون الطلبة دوراً آخر وهلم جرًّا . والطلبة الذين يدفعون أقل من النفقة المقرّرة للكلية أو الذين لا يدفعون شيئاً قط لا يطلب منهم القيام بأي عمل إضافي في خدمة الطلبة الآخرين . والحكمة في ذلك سامية وهي أن الطالب الذي يدفع اقل من غيره يشعر بغضاضة تجرح عزة نفسه اذا خدم طالباً آخر يعرف أنهُ يدفع أكثر منهُ ، ومن الناحية الاخرى فان الطالب الآخر قد يداخلهُ الزهو وتملأ نفسهُ النفخة الكاذبة

***

ويبلغ عدد طلبة المدرسة الآن سبعة وعشرين شابًّا واثنتين وعشرين فتاة تختلف أعمارهم من الثامنة عشرة الى الخامسة والعشرين . وليس في نظام الكلية ما يحتم قبول الطلبة في سن معينة . والكلية لا تهتم بدرجات الامتياز التي نالها الطالب في المدارس الثانوية بقدر ما تهتم شخصيتهُ ومدى استعداده لتفهم مبادىء الكلية وقبولها . أما شروط الانتظام فاثنان القدرة على الاستفادة من المعيشة في وسط كوسط الكلية ثم الذكاء النسبي ، وهم يفضلون أن يكون الطالب شجاع الرأي سامي الاخلاق محبًّا للحق مدافعاً عنهُ . وكثيراً ما تقبل الكلية انتظام بعض المصابين بنقص في عقولهم في سلك الطلبة وقصدها من ذلك هو محاولة اصلاح امرهم من جهة ومن الجهة الاخرى اتاحة الفرصة للطلبة العاديين لتعلم كيفية المعيشة والاختلاط مع من هم اقل منهم نموًّا في العقل

ولما كان المطلوب من الطالب هو ان يتعلم كيف يعيش بنفسه وكيف يقرر ما يراه صالحاً لنفسه بنفسه فان الكلية لا تفرض على الطلبة مواد معينة ولكن على الطالب أن يتقدم الى امتحانين الاول عند انتهاء سنتين من دخوله الكلية والثاني بعد أربع سنوات . أما المواد التي يختارها الطالب والطريقة التي يتبعها في اتمام ذلك فذلك راجع اليه أولاً وآخراً . وفي امكانهِ أن يدرس بنفسهِ وتحت ارشاد مدرس أو يحضر الحصص اليومية المخصصة لباقي الطلبة . ولكن المتفق عليهِ أن يواظب الطالب على حضور الحصص الدراسية في بدأ دخولهِ المدرسة . أما بعد ذلك فالعمل كلهُ يقع على عاتقهِ الشخصي

وطالب القسم الاعدادي في الكلية يجد الفرصة مناحة لتجربة عدة مواد حتى يستوثق من المادة التي يميل اليها اكثر من غيرها . والانتقال من القسم الاعدادي الى القسم العالي يتوقف على الطالب فهو الذي يقرر متى يكون ذلك . وليس معنى ذلك هو ترك الطالب وحيلهُ على غاربهِ

لان الاساتذة مستعدون دائماً لإسداء النصح الى الراغب فيه . اما الطالب الذي يعتقد انهُ أتمَّ دروسه العالية ويريد التخرج فليس عليهِ الاَّ ان يعلن الكلية بذلك في صورة التماس باعطائه الاجازة ويكون ذلك مشفوعاً بملخص وافٍ لما يعرف من المواد التي درسها . واذا رأت الكلية بعد استشارة الاساتذة ان الطالب يستحق اجازته فانها تدعو بعض المبرزين في هذه المواد من الخارج لامتحانه

أما في أيام العطلة الصيفية فيذهب الطلبة الى منازلهم وفي آذانهم يدوي صوت أساتذتهم وهم يحثونهم على زيارة المنشآت الصناعية المختلفة والامتزاج بالهيئات السياسية والاجتماعية ويطلب منهم عند رجوعهم كتابة التقارير المفصلة عما شاهدوا وتلمسوا

ولعلَّ أغرب ما شاهدتهُ في الكلية هو تعاون الاساتذة والطلبة وامحاء الفوارق بينهم امحاء تامًّا . فلقد شاهدت الاساتذة يشتركون مع الطلبة اشتراكاً فعليًّا في جميع الاعمال التي تتطلبها الحياة اليومية في الكلية من غسل الصحون ومسح الارض الى قطع الحشب واصلاح الطرق وتمهيد ملعب « التنس » وغير ذلك

ويتمتع طالب كلية « الحيل الاسود » بحرية تضاهي بها طالب آخر فله الحق كل الحق في ان ينحي على أعمال مدرسيه بالنقد كما ينقد هؤلاء أعماله . ولهُ مطلق الحرية في ان يقول ما يشاء عن أي شيء في أي وقت شاء مع تحمل العواقب بالطبع . ويحضر بعض الاساتذة — ومن بينهم جون رايس نفسه — بعض الفصول كطلبة ويجلسون مع الطلبة ولا فارق بينهم مطلقاً

ومعظم دراسات الكلية تتم خارج الفصول . وكثيراً ما رأيت الطلبة يجتمعون فرقاً فرقاً في صحن المدرسة ورايس ينتقل بينهم فهو هنا يشرح مسألة صعب فهمها وهناك تراهُ جالساً كطالب مؤدب عادي ثم هو هنالك يناقش الطلبة في مبادىء الكلية وأغراضها . او في مشكلة اجتماعية او سياسية . وأحياناً ينضم جميع الطلبة والاساتذة لمناقشة احدى المسائل العامة ويطول النقاش اثناء تناول الغداء والعشاء وكثيراً ما تمتد المناقشة الى وقت متأخر من الليل فيتفق الجميع على ارجائها الى الغد حيث يستعد كل فريق بحججه وادلته الى ان يصلوا الى القرار الاخير

وقد تكون اهم اغراض الكلية هي اعداد الطلبة لمواجهة الحياة الصحيحة بعزم وشجاعة وتخريجهم خبيرين بالطبيعة البشرية رجالاً ونساء يعتمدون على انفسهم ولا يضعون في حياتهم في اخطاء في زيجاتهم او علاقاتهم الشخصية بغيرهم او ما اشبه ذلك او تكون اخطاؤهم في ذلك أقل من اخطاء غيرهم . وبيئة الكلية تظهر نفسية الطالب تماماً فيراهُ الجميع على حقيقته كما

ترى هو قرارة نفسه في وضوح وجلاء وربما لم يكن يعرف ذلك من قبل . والطالب الذي يريد ان يخدع نفسه يجد الفرصة مؤاتية لهُ فليس هناك قوانين ولا لوائح . ولكنهُ لا يلبث طويلاً حتى يرى الفرق بين سلوكه وسلوك اخوانه الطلبة فان النقد الذي تقابل به اعماله تجعله يخجل من نفسه ، وهو نقد خال دائماً من الغرض او اللذع الاليم . والرغبة في مساعدة الغير متوافرة ودائمة وقوية ونبيلة . والطلبة القدماء يحاولون جهدهم تقويم اخلاق الزميل الجديد واصلاح اعماله

***

ومن المواد الاساسية التي يدرسها الطلبة في الكلية دراسة الدراما والروايات التمثيلية وهي ذات فائدة عظيمة كما سيجيء بعد . ويقوم الطلبة مع الاساتذة بتأليف خمس روايات تمثيلية كل سنة وتمثيلها واخراجها . وفي ذلك يقول جون رايس :

« فايتا — إذا أردتَ مثلاً — أن تظهر شاباً تملأ نفسه غريزة الطغيان في دور الطاغية حيث يرى عواقب طغيانه واضحة جلية . ونحن نخلق للفظ دوراً يناسبهُ ولكني عملاً يؤديه . ومن الناحية الاخرى فنحن نعين للطلبة أدواراً تخالف طبيعتهم كل المخالفة فالطالب الغني يقوم بدور رجل قد هدّهُ الفقر وحطمهُ . واضع الفتاة الفقيرة في مقام امرأة غنية نفسة . أما دور الشاب الخائر المتشكك فيوحي اليهِ معنى الكفاح في الحياة ولذة النصر ويريه كيف يموت المرء راضياً دفاعاً عن مبدإ إعتنقهُ . . »

وموارد الكلية محدودة وهي لا تكاد تكفي لإبهاء العام الدراسي . وربما يأمل الجميع ان يهبط عليهم ذات يوم ملاكٌ من السماء ويريهم بغتة الف جنيه فهم في اشد الحاجة الى مكتبة عصرية كاملة ومعدات كثيرة . ولكنهم في الحقيقة يخشون الغنى الفاجيء ويفضلون حالتهم الحاضرة مع ما فيها من عنت . ولا يقبل أحد منهم ان يتقدم لتمويلهم غنيٌّ ما اذا عنّ لهُ املاء شروط خاصة على إدارة الكلية

قد تكون عظمة الكلية في الوقت الحالي أنها محاولة لا تزال في المهد ولكن الفكرة فيها على كثير من السمو . ويفكر كثيرون من خريجي الكلية في انشاء فروع اخرى على غرارها في أنحاء الولايات المتحدة . والسائد إنهُ في نهاية العام الدراسي الحالي يكون لدى الكلية هيئة تدريس تصلح مع من ينضم اليهم من الطلبة القدماء كنواة لانشاء فرع جديد . وأنا اعتقد اعتقاداً جازماً ان عشرين كلية من ذلك الطراز تضم كل منها مئة وثلاثين طالباً وثلاثين مدرساً في امكانهم ان يقلبوا طرائق التعليم الحالية رأساً على عقب . وأعتقد ان الف طالب يتخرجون منها يمتد أثرهم الى جميع المرافق في حياة العالم الجديد

الخدمة الاجتماعية

افتتاح مدرسة لها في القاهرة

— ١ —

زكاة الثقافة والعلم والنبوغ

خطبة الاستاذ محمد العشماوي بك

وكيل وزارة المعارف

طالما تمنيت ان اقف مثل هذا الموقف بعيداً عن دائرة عملي الحكومي ، في ميدان حر ، ارحب بمشروع حر كهذا المشروع الذي نحتفل به اليوم . لذلك احمد الله ان هيأ لي هذه الفرصة التي اتاحت لي ان ابدي عظيم الاعجاب بهمة هؤلاء العاملين الذين اخرجوا هذه المؤسسة ، معتمدين على انفسهم وعلى الجمهور ، يستمدون منهُ نشاطهم وقوتهم ، ثم يعكسون عليهِ ما استمدوه منهُ ، فيهيئونهُ للاعمال الصالحة ، ويرشدونهُ الى انجع وسائل التربية والثقافة والاحسان

وبمثل هذه المجهودات المثمرة يهيأ الشعب للاشتراك الفعلي في الميادين الاجتماعية . وأقوم سبيل للوصول الى هذا الغرض هو ان يتولى المفكرون ارشاد الناس الى اتباعهم والاهتداء بهديهم . وأعتقد ان للمجتمع كل الحق في مطالبة هؤلاء المفكرين بتقديم جزء من تفكيرهم وثقافتهم للجمهور وهذا الجزء هو الزكاة التي يجب ان يؤدوها لمواطنيهم مما اكتسبوه من ثقافة وعلم ، وما حباهم به الله من تفكير ورأي

واني لأعلم انهم يفرضون في بعض البلاد على كل صاحب عمل منتج ان يخصص جزءاً من جهوده ، بدون مقابل ، للاعمال العامة التي تعود بالنفع على المجتمع : وهذا هو ما اسميه بزكاة الثقافة والعلم والنبوغ ، وهي لا تقل شأناً عندي عن زكاة المال

ولعل اهم هذه الجهود : وخصوصاً في مصر ، هو ما يبذل منها في سبيل اصلاح المجتمع . واول خطوة في هذا السبيل هي تنظيم الخدمة الاجتماعية

لعلَّ الكثيرين يتساءلون عن ماهية الخدمة الاجتماعية ، وافضل تعريف اطلعت عليهِ هو تعريف وضعه مؤتمر دولي عقد في السنوات الاخيرة لبحث وجوه هذه الخدمة ، فقسمها بانها هي مجموع الجهود التي يقصد بها تقديم المعونة في النواحي الآتية : —

١ — تخفيف الآلام التي تنشأ عن البؤس : وهذه الناحية يمكن ان يطلق عليها ناحية « الخدمة الملطفة »

٢ — وضع الاشخاص والاسر في ظروف ملية تلائمهم : وهذه الناحية هي ناحية « الخدمة الشافية »

٣ — منع وقوع الويلات الاجتماعية : وهذه هي ناحية « الخدمة الوقائية »

٤ — تحسين حال المجتمع ، ورفع مستوى المعيشة : وهذه هي ناحية « الخدمة الانشائية »

فتلطيف اثر المصائب ، وشفاء الاشخاص مما ينتابهم من العلل ، ووقايه المجتمع [illegible] وانشاء النظم التي تحسن حالته وترفه عنه : تلك هي اغراض الخدمة الاجتماعية

ولأضرب لحضراتكم مثلاً تظهر فيه هذه الاغراض : تصوروا الفلاح وهو عماد المجتمع المصري ، اذا اصيب بمرض خطير يقعده عن كسب الرزق له ولعياله : هنا تدخل الخدمة الاجتماعية لتقدم لاسرته الطعام والشراب والمسكن وما اليها ، وهذه هي « الخدمة المساعدة » . ثم يجب ألا يهمل علاجه ، وان يوفر له ما يحتاج اليه من دواء حتى يشفى ويستطيع ان يستأنف عمله : وهذه هي « الخدمة الشافية » . ثم اذا شفي من مرضه ، وجب ان تدر له ولأولاده معيشة صحية تقيهم شر الوقوع في الامراض مرة اخرى : وهذه هي « الخدمة الوقائية » . ثم يجب ان تهيأ لهذا الفلاح وأمثاله نظم معينة لفهم واجبهم وهدايتهم ، وان يوفر لهم ما يحتاجون اليه من ثقة وتسلية ورياضة وما الى ذلك : وهذه هي « الخدمة الانشائية »

هذا بعض ما يمكن ان تؤديه الخدمة الاجتماعية . فهلا ترون حضراتكم ان هناك في أمس الحاجة الى أيد كثيرة تقوم بهذه الخدمة في مختلف المرافق ؟

ضربت لحضراتكم مثلاً بحاجة الفلاح اليها . ولقد خطر هذا المثل ببالي لاشتراكي في بحث مشروع المجموعات القروية الذي اقترحه حضرة صاحب العزة الدكتور عبد الواحد الوكيل بك احد أعضاء مجلس ادارة الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ، التي تحتفل اليوم بافتتاح مدرستها

أخذت أفكر اثناء دراستي لهذا المشروع الجليل ، الذي قصد به تحسين حال الفلاح ، فيما يحتاج اليه من أيد عاملة ، لان نجاحه يتوقف على الجهود التي يبذلها اعضاء المجموعة التي تباشر تحسين حال القرية . ويجب ان تتضمن كل مجموعة عاملاً اجتماعيًّا ، فكم من مئات من هؤلاء الاجتماعيين تحتاج اليهم بلادنا للاشتراك في رفع مستوى القرية من الناحيتين المعنوية والمادية . وكم كنت أود لو أتيح لعدد البلاد نصيب كبير من الثقافة الاجتماعية يمكنهم من المساهمة في هذا الاصلاح

واذا تركنا الفلاحين ونظرنا الى العمال او المجرمين من احداث وكبار او الى المتشردين او الى الطبقات الفقيرة بصفة عامة ، وجدنا هم جميعاً في حاجة كبيرة الى من يلطف آلامهم ثم يشفيهم منها ويقيهم من الوقوع فيها مرة أخرى ثم ينشىء لهم نظاماً ثابتاً وحياة رغدة هانئة

وليس افراد الشعب فقط هم الذين يحتاجون وحدهم الى الخدمة الاجتماعية بل ان كثيراً من الهيئات والمرافق العامة كالمستشفيات والملاجىء والمدارس ، في مسيس الحاجة الى طائفة من الاخصائيين الاجتماعيين لينهضوا بمستواها ويحققوا لها الوصول الى الغرض الذي أنشئت من

أجله . على ان هذا العمل لا يمكن ان يؤدّى على وجهه الاكمل الاّ اذا درست أساليبه الصحيحة دراسة علمية . وهذه هي الدراسة التي من أجلها تنشأ مدارس الخدمة الاجتماعية في الامم المتمدنة

واني لأرجو ان تقوم المدرسة التي نحتفل اليوم افتتاحها الرسمي بما نؤمله فيها من تخريج اخصائيات واخصائيين في الشؤون الاجتماعية يسدون النقص الكبير الذي نشعر به الآن في الميدان الاجتماعي . وانتهز هذه الفرصة لاوجه نظر الشابات والشبان الى هذا المجال الفسيح ، ففي الاشتغال به ما يقلل البطالة ويوفر عملاً شريفاً نافعاً لطائفة كبيرة من المتعلمات والمتعلمين

ولم يفت وزارة المعارف ما للدراسات الاجتماعية من كبير شأن في المجتمع ، فأوفدت بعثة منذ سنتين الى اوربا لهذا الغرض وهي تفكر الآن في ايفاد بعثات اخرى . كما انها عملت على انشاء عيادة نفسانية (سيكولوجية) في معهد التربية لمعالجة الاطفال الشواذ بعد تبين اسباب شذوذهم وهذه ناحية هامة من نواحي الخدمة الاجتماعية المدرسية . كما انها تدرس الآن مشروع انشاء معهد خاص بالشواذ وذوي العاهات . وما كادت تعلم بتأسيس الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية وقيامها بانشاء مدرسة للخدمة الاجتماعية ، حتى رحبت بهذا المشروع الجليل كل الترحيب

ويسرني أن اعلن اليوم ان الوزارة لم تقتصر على الترحيب الادبي ، بل شفعته بتشجيع مادي ، إذ قررت منح الجمعية هذا العام مبلغ ٣٠٠ جنيه لاعانتها على القيام ببعض نفقاتها وشراء ما تحتاج اليه من كتب في الشؤون الاجتماعية . كما قررت ان تدرج لها في الميزانية مبلغاً ثابتاً يمنح لها سنويًّا . وستنظر الوزارة في تقدير « الدبلوم » التي تمنحها المدرسة ، كما ستنظر ايضاً في وضع نظام لتفضيل الطلاب الذين يتمون الدراسة بهذه المدرسة ، وتتوافر لهم المؤهلات المطلوبة في شغل وظائف الاشراف على النواحي الاجتماعية في المعاهد والملاجىء وفي تلقين الطلبة بعض الموضوعات المتصلة بالدراسات الاجتماعية . كذلك وافقت الوزارة على تمكين طلبة معهدي التربية للبنين والبنات وطالباتهما ، وبعض المدرسين والمدرسات المشتغلين بالنواحي الاجتماعية من حضور مقررات المدرسة كلها او بعضها مقابل رسم تدفعهُ الوزارة عنهم لهذه المدرسة . ولم تحط الوزارة بهذه الخطوات الاّ بعد أن تبينت حاجة البلاد الى تشجيع هذا النوع من الدراسات ، وبعد أن اطمأنت الى ما تبذلهُ هذه المدرسة مع حداثة عهدها من جهد كبير في سبيل اداء مهمتها ، وما يسودها من نظام

وانهُ ليسر الوزارة أن ترى أن الجامعة المصرية لم تبخل على هذه المدرسة بالتعضيد فقدمت لها كلية الطب مكاناً للمحاضرات والمكتبة وها نحن الساعة نرى هذا التعضيد ظاهراً في إقامة هذا الاحتفال في فناء الكلية . ولا يفوتني أن انوه في هذا المقام بما قام به حضرة صاحب المعالي احمد نجيب الهلالي بك من جهود جبارة موفقة في سبيل الاصلاح الاجتماعي في مصر

وهما هي الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ومدرسة الخدمة الاجتماعية ورابطة الاصلاح الاجتماعي وغيرها : كلها أسئلة حية ، تتطلب بعضه العميم في الميدان الاجتماعي

واني لأحيي هذه الروح الاجتماعية في معاليه وفي كل من اشترك معهُ في هذه الاعمال الجليلة ، وأرجو أن تكون المدرسة التي تفتتح اليوم نواة طيبة لامداد المجتمع المصري بايد عاملة رشيدة تعمل على اصلاحهِ وتخفيف ما ينتابه من ويلات ودوره ما قد يتعرض له من اخطار

وأنهُ لفأل حسن أن تفتتح هذه المدرسة في مستهل هذا العهد السعيد الذي تستعيد فيه البلاد شبابها اذ يتسنم عرشها مليكها الشاب المحبوب جلالة مولانا المعظم فاروق الاول حفظهُ الله ورعاه فتستمد منهُ روحاً فتية وعزماً قويًّا للسير الى الامام جعل الله عهد مليكنا المعظم عهداً مديداً سعيداً ينعم فيه المجتمع المصري بكل طبقاته بأوفر السعادة والرفاهية وتبلغ فيه حياتنا الاجتماعية اسمى درجات الكمال

—٢—

تاريخ مجمل وأغراض نبيلة

للسيدة انصاف حرم الدكتور منصور فهمي بك

لقد شرفتني الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ، فرأت أن أتحدث اليكم في افتتاح اول معهد بالقاهرة للخدمة الاجتماعية . واني انتهز هذه الفرصة لأحييكم أطيب تحية ، وأشكر لكم تلبية دعوتنا ، اذ حضرتم لهذا الحفل المبارك حرصاً على المساهمة في الاعمال النافعة التي تعود على الوطن وبنيه بالخير فجزاكم الله خير الجزاء

ايها السادة : ان الشعور بما تحتاج اليه الامم من اصلاح ، والرغبة الصادقة في القيام بالخدمات الاجتماعية ، لا يكونان الاَّ في المجتمعات الراقية التي يسودها روح التعاون والتكافل ، ولا تسود هذه الروح الاَّ حيث تتجلى الصفة الانسانية في اروع مظاهرها واجلاها . فالامم التي تروج فيها الدعوة للتعاون بين الافراد لترقية شؤونهم وتخفيف آلامهم تعتبر بحق في مصاف الامم الحية الراقية

سادتي : ان البلاد التي تحذو حذوها في ميادين التقدم قد سبقتنا الى الاهتمام بامر الخدمات الاجتماعية ، والى انشاء معاهد تعد الخبيرين بهذه الخدمات . وان لنظرة عجلى الى تاريخ الخدمة الاجتماعية تبين لنا ان النهضة تنشأ في اول امرها صغيرة تقوم على جهود نفر من الغيورين ، وتبدو كالدائرة الضيقة تتسع بمقدار ما تجد من تأييد الاعوان وانضمامهم اليها ، وبمقدار ما تنتج من صالح الاثر ، حتى يشمل محيطها الامة جميعاً

ففي البلجيك من نحو اربعة قرون شعر المصلح الاجتماعي البلجيكي جان لويس فيف بحاجة المجتمع الذي كان يعيش فيه الى المعونة ووسائل الاصلاح ، فاهتم بشأن الاسرة ووجه اول

خدماته اليها ، لانها اساس المجتمع ودعامته ، تخصص لكل حي من احياء المدينة مندوبين يتفقدون احواله ويقفون على ما يعوزه من وسائل الاصلاح ، فيحصي الفقراء وتعرف اسباب عوزهم رغبة في النهوض بالاسر ماديًّا وصحيًّا وخلقيًّا . ولقد جرت هذه البداءة وتطوراتها الى أن أنشئت في مستهل القرن العشرين مئاية معاهد للخدمة الاجتماعية يتخرج فيها الخيرون وتعتمد الحكومة شهاداتهم

وفي فرنسا من نحو ثلاثة قرون نشر الراهب الفرنسي « سان فنسان دي بول » دعوته لاعمال البر والاحسان بين سيدات الطبقة الراقية للمساهمة في تفقد شؤون البائسين ومد يد المعونة اليهم ، فانتشرت هذه الدعوة وصادفت من نفوس المتطوعات الخيرات قبولاً واقبالاً . ترتب على ذلك أن أسس هذا الراهب لنظام الجماعات المنقطعات من الراهبات اللائي وقفن حياتهن على عمل الخير والاحسان وسميت جمعياتهن العديدة المنتشرة في انحاء العالم باسم ذلك الراهب العظيم . ولم يمض بعد ذلك زمن طويل على تأسيس جمعيات الخير النسوية حتى امتدت الدعوة الى الرجال كذلك لتأسيس جمعيات شبيهة اسدت الى المجتمع خدمات مشكورة . ولما حلت الثورة الفرنسية ثبتت في فرنسا تنظيم أعمال البر حتى اصبحت لا تخلو ناحية في هذه البلاد من مؤسسة تقوم بحاجات المعوزين من أهلها ممن لا قدرة لهم على العمل ، وبحاجات الارامل واليتامى وأبناء السبيل الى غير ذلك من اعمال البر

ولقد تنبهت انجلترا في مستهل القرن التاسع عشر الى ما للخدمات الاجتماعية من طيب الاثر فسنت قوانين تبيح لفقراء كل حي ان يلجئوا الى كنيسة ذلك الحي لطلب المعونة والارشاد ثم ظهرت المصلحة الاجتماعية فلورانس نيتنجيل فحفزتها الشفقة على المرضى الى العناية بأمر اعداد المرضات والى تحسين ادارة المستشفيات ، وعلى الجملة الى تنظيم كل عمل يخفف وطأة الآلام

وقام « كانون بارنت » ومعهُ طائفة من الجامعيين المثقفين الصادقين ، فاستوطنوا أفقر أحياء لندن من طرفها الشرقي وانبثوا في غمار الشعب يهذبونهُ ويثقفونهُ في أوقات فراغه ، وذلك لكي يرفعوا مستوى الحي من جهة الاخلاق ومن جهة الصحة والآداب . وبعد ذلك أخذت حركة الخدمة الاجتماعية تخطو خطوات واسعة ، فأنشئت لها ادارة ومعاهد خاصة ، وألحقت هذه المعاهد بالجامعات . وفي أميركا قام المصلحون في بعض الولايات بانشاء المؤسسات الاجتماعية ، وكان من اظهر البارزين في تنظيمها جوزفين شولول المصلحة الكبيرة ، وتعددت هذه المؤسسات حتى بلغت المائة ثم في أوائل القرن العشرين انشئت في مدينتي نيويورك وبوستن مدارس للخدمة الاجتماعية مستكملة الدراسة . وتدل الاحصاءات على ان عدد مدارس الخدمة الاجتماعية بلغ خمساً وثلاثين مدرسة فيها نحو ٥٢٥٩ تلميذاً وتلميذة ، ومع ذلك فان عدد المتخرجين من هذه المدارس هم دون حاجة البلاد وحاجة الناس الى الخدمات

ولنكتف الآن أيها السادة بذكر ما تقدم من الشواهد خوف الاطالة والاّ فهناك بلاد أخرى كالمانيا والسويد وسويسرا وايطاليا واستراليا وكندا واليابان وغيرها مما نرجو ألاّ تكون البلاد العربية وبخاصة مصر دونها حظاً في هذه النهضة الانسانية . وان لنا نحن الشرقيين في الفاروق عمر بن الخطاب وعنايته بالفقراء والمساكين وتفقده بنفسه احوالهم أسوة حسنة وذكرى مشرفة . فان سيرة هذا الخليفة العظيم وسيرة أصحابه في اعمال المؤاساة ومقاومة الأثرة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر لما تفخر بها صفحات التاريخ في الاعمال الاجتماعية والصفات الانسانية الخالدة . وان النظم الاسلامية في تطورها قد اتخذت السنن الصالحة في سبيل الخدمات الاجتماعية ، فكان في سلف المسلمين ومن نحا نحوهم من يحبس الاموال بكرم لمؤاساة ذوي العاهات أو يقفها لانشاء المستشفيات والمطاعم أو لتسبيل الماء وتيسير الانتفاع به او للبر بالحيوان وغير ذلك مما كان يسجل في الاوقاف . ولم يسدّ كل ذلك الخدمات الاجتماعية فلها اذاً في تقاليدنا تاريخ مأثور وأثر مشكور

أيها السادة : ان اللمحة التي قدمتها في تاريخ الخدمة الاجتماعية ترينا ان كثيراً من أعمالها كان نتيجة لجهود ذوي المبادىء السامية الذين تدفعهم رغبتهم في الاصلاح الى التضحية براحتهم في سبيل تحقيق هذه المبادىء . وانهُ ليسرني أن اعلن بأن العنصر النسوي كان لهُ فضل عظيم في هذه النهضة وجديرٌ بهذا العنصر أن يواجه مستقبلاً حاجة الخدمات الاجتماعية ويتحمل أعباءها ، فليس من شيء اقرب الى قلب المرأة الصالحة من اعمال البر . وليس من شيء ادنى الى طبيعتها من العمل لمؤاساة الغير . وليس من شيء اشد تقريباً لها عند الله ، واشد تأثيراً في تدعيم السلام من امومة المرأة وعملها في تربية جيل صالح يتطبع على بذل التعاون ، ويبث روح المحبة ويعد اسباب السلام . وانهُ ليزيدني غبطة أن ارى بمصر الآن عدداً من المؤسسات الخيرية كان للمرأة في نجاحها اكبر الأثر . وها هو ذا عدد السيدات اللاتي يعملنَ الخير لمجرد الخير آخذ في الازدياد . واني وان كنت ارى ان اعمال الخدمة الاجتماعية تحتاج الى جهود مشتركة من الرجال والنساء معاً ، الاّ أن المرأة يجب ان تكون اسبق من الرجل في ميدان هذه الخدمة ، لما وهبها الله من حسن الاستعداد لذلك ، فهي التي تستطيع أن تطمئن اليها ربات المنازل ليفضينَ اليها بهمومهنّ ، وهي التي تجنح اليها الفتاة البائسة لبثها الشكوى وتدلي اليها بآلامها وأحزانها ومنازعها ، وهي التي يسهل عليها ان تتطفل في صميم الاسر لتبحث وتنقب وترشد وتدعو للاخلاق والتوفيق واشد اواصر الاسرة . واني اهيب بالسيدات المصريات ان يساهمنَ في نواحٍ من الخدمات الاجتماعية الميسورة الشريفة التي لا تضيع حق منازلهنّ في اعمال البر متسع لمن يريد العمل . واني الح في رجاء كل ام لبيت المعتنى على الباقين في نفوس اولادها منذ الصغر ، حق شيء بذلك المجتمع

جيلاً جديداً تتضاءل فيه نزعات الانانية ويسهل عليه ان يعمل للخير العام

ايها السادة : ان النهضة المصرية العامة تناولت في هذا العصر الحديث عدة نواح في الاصلاح فتضافرت جهود الموفقين من ولاة الامور وبفضل الغيورين من ابناء مصر على مصلحة البلاد . لكن مهما بلغت بلادنا من الرقي في النواحي الاقتصادية والصناعية وغيرها فان بعض النواحي الاجتماعية عندنا لا يزال في طور نشأته الاولى ، وفي مقدمتها رعاية الطفولة والامومة ، ورفع مستوى الاسرة وتوطيد اركانها وتقوية روابطها ، والعناية بذوي العاهات ، والنظر في ادوار المراهقة ومشكلاتها ، وحماية الفتيات والفتيان من المفاسد والمغريات ، وتنظيم اوقات الفراغ . وما شاكل ذلك من وجوه الاصلاح مما يحتاج الى العاملين الصادقين . على ان العمل في هذه النواحي جد خطير ، وذلك لاتصاله بالنفوس البشرية المختلفة في ادق الحالات واحرج المواقف ، فهو من الاعمال التي تتطلب خبرة وصفات خلقية سامية ، في مقدمتها ان يكون المرء صبوراً ، قادراً على ضبط نفسه ، محبًّا لاخيه الانسان مضحياً بوقته وجهده في اسعاد غيره ، وان يجد في بذل الخدمات غبطة وارتياحاً ، وبجانب هذه الاخلاق يجب ان يكون ملمًّا بنوع من الدراسات تفق وطبيعة الخدمات التي يؤديها ، كدراسة علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الصحة وطبائع الطفل وعلاج الشذوذ واسباب الاجرام والتشرد والبطالة وغير ذلك من الوسائل الفنية التي تعينهُ على اداء ما يضطلع به من الخدمة في الجماعة التي يعيش فيها

ولايجاد الاخصائيين الاجتماعيين الذين يمكن ان تستفيد بجهودهم البلاد على الوجه الصحيح فيما هو قائم الآن من المؤسسات الاجتماعية ، وفيما تأمل ان ينشأ منها في المآل ، اسست الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ، بانشاء المعهد الذي تفتتحهُ اليوم رسميًّا . ولحضرة صاحب المعالي الاستاذ احمد محيب الهلالي بك يد تذكر فتشكر على هذا المشروع الجليل بما بذله معاليه من جهود في توجيهه التوجيه الصحيح . كما اننا نسدي الشكر لمن ساهم فيه من حضرات اصحاب المعالي والسعادة والعزة المتبرعين وصاحبات العصمة المتبرعات من مصريين واجانب

اما بعد ، فاسمحوا لي ايها السادة ان اذكر الآن نبذة قصيرة عن المعهد الذي اجتمعنا اليوم لافتتاحه :

بدأت الدراسة فيه في اليوم السادس عشر من شهر اكتوبر سنة ١٩٣٧ ، وروعي في اختيار طلبتهُ ميلهم لخدمة الاجتماعية واستعدادهم لتلقي الدراسات المتصلة بها . وبالمعهد ٦٤ طالباً وطالبة من الحاصلين على شهادة الدراسة الثانوية (قسم ثان : البكالوريا) واكثرهم من الموظفين المشتغلين بقسم التعاون بوزارة الزراعة ومصلحة السجون ومن الجوالة ومن الآنسات المثقفات . وهؤلاء الطلبة وإن كانوا من بيئات مختلفة الا انهم يجتمعون على غاية واحدة

هي اعداد انفسهم للنهوض بمصر . وان الروح السائدة بين هؤلاء الطلبة الجديرة بالتشجيع ويقوم بالقاء المحاضرات اخصائيون واخصائيات في المواد التي يدرسونها ، وكثير منهم من اساتذة الجامعة ومدرسيها ومن كبار رجال التعليم بوزارة المعارف . ومن مميزات هذا المعهد أنهُ يعمل على دعوة الاخصائيين البارزين في الشؤون الاجتماعية من الزائرين الاجانب ومن المصريين لالقاء المحاضرات العامة . ولكي يتوافر لطلابه الجو العلمي الملائم والمتاحف والمعامل التي تضمن مستوى عاليًا من الثقافة والتحصيل ، رئي أن يلحق الى كلية الطب . وقد تفضل عميدها حضرة صاحب السعادة الدكتور علي ابراهيم باشا فاذن في ذلك

ويستفاد للمعهد من مكتبة كلية الطب . وتعنى باستحضاره من الكتب الاجتماعية والنفسية والنشرات الدورية المستصدرة من الخارج للفائدة الدراسية . ويعنى المعهد بالناحية العملية من الدراسة كعنايته بالناحية النظرية ، فخصصت ثلاثة شهور من العام الدراسي لتدريب الطلاب تدريباً عمليًا في المؤسسات الاجتماعية على اختلاف انواعها

بالمعهد روح قوية مستمدة من حضرة العميدة السيدة برتا كامل فهمي الاخصائية في العلوم الاجتماعية وهي لا تألو جهداً في العمل على رفع شأن هذا المعهد وتوطيد دعائمه

سيداتي . سادتي : ذكرت لكم نبذة قصيرة عن اول معهد للدراسات الاجتماعية نشأ في مصر ، ويسرني انه اول معهد من نوعه في البلاد العربية ، وان في بوادر نشأته ما يبشر بنجاحه ولربما يباح لنا ان نتطلع الى امل مشروع ، ذلك ان تهيء الحكومة ادارة قوية منظمة لرعاية الخدمة الاجتماعية اسوة بالحكومات التي اضطرتها شؤون الحياة العصرية الى تنظيم الجهود وتتبع مشاكلها . ولعل الحكومة اذا هي حققت في يوم من الايام ما نأمله وتتناه نجد في خريجي معهدنا ادوات صالحة ينتفع بها في مختلف نواحي الاصلاح كالمدارس والمعاهد الخيرية والملاجيء ومراكز رعاية الطفل والاصلاحيات ومحاكم الاحداث الى غير ذلك

ايها السادة : ان كل رعاية لشؤون المجتمع البشري هي رعاية اسمى من ان تمسها اختلافات الاجناس او العقائد او الآراء ، اذ في طبيعة الاصلاح الاجتماعي ما يربط بين الناس جميعاً ، مهما اختلفت الوانهم وتباينت اجناسهم

وهل لمنازع الخير ومذاهب الاحسان حدود في الارض تحدها او حواجز بين الناس تصدها وتردها ! لا حد للاعمال الانسانية الخيرية الا عند مرضى القلوب وصغار الاحلام ألا ان مبعث هذه الاعمال صفاء النفوس ومبدأها عظمة الهمم . ألا ان مردها واسع الرحمات ومنتهاها الى رافع السموات . اسأل الله تعالى ان يحقق آمالنا الخيرية في ظل حضرة صاحب الجلالة المرتجى لخير البلاد فاروق الاول ايده الله

باب الأخبار العلمية

عمر القمر

ومواعيد الاستقبال بزواج جلالة الملك المعظم

طالما وجدنا من ألزم اللزوميات معرفة عمر القمر في اي وقت نريد لنهتدي بوجوده في ظلمات البادية او لنذهب على ضوئه ليلاً الى كوخنا وهو «يبعث النور في الظلام دليلاً»

ومن محاسن الصدف اني وجدت طريقة مختصرة طريفة سهلة يمكن حفظها بسهولة يعرف بها عمر القمر ليس في اول السنة فقط كما هو الحال في نظام ال (Epacts*) لا بل في أي يوم من ايام السنة الافرنكية . واعترافاً بالفضل لذويه أقول انها للعالم الفلكي الانكليزي جورج فوربس (George Forbes) جاءت في كتابه The Wonder & The Glory of the Stars) وهذه الطريقة تتلخص فيما يلي:—

« أضف عدد اليوم الى عدد الشهر الى عدد السنة الى العدد واحد واقسم المجموع على ٣٠ ثلاثين الذي هو اقصى عمر القمر فالباقي يكون هو عمر القمر في التاريخ المعلوم

المراد معرفة عمر القمر فيه مع العلم ان : —

(١) عدد اليوم هو تاريخ اليوم من الشهر

(٢) عدد الشهر هو العدد الوارد ازاء اسم الشهر في الجدول الآتي : —

يناير	٠	يوليه	٤
فبراير	٣	اغسطس	٦
مارس	٠	سبتمبر	٧
أبريل	٣	اكتوبر	٨
مايو	٣	نوفمبر	٩
يونيه	٤	دسمبر	١٠

(٣) عدد السنة يستخرج هكذا :

اعتبر ان سنة ١٩١١ تساوي صفراً وكل سنة بعد ذلك يطرح منها العدد ١٩١١ ويضرب الباقي في ١١ ويقسم المجموع على ٣٠ فيكون الباقي هو عدد السنة ويستعمل طول ايام السنة

واذا اختبرنا هذه القاعدة بمضاهاة نتائجها على ما هو وارد في التقاويم السنوية وجدنا انها مضبوطة تماماً مع فرق يوم واحد في بعض الاحيان . ولنضرب لذلك مثلاً فنقول ما هو عمر القمر في يوم ٢٠

(١) ال Epacts عبارة عن عمر القمر في اول يوم من السنة الافرنكية او هو عدد الايام التي يسبق مولد القمر الجديد مبدأ السنة الافرنكي

يناير سنة ١٩٣٨ وهو اليوم الذي عينهُ حضرة صاحب الجلالة المعظم فاروق الاول لعقد زواجه على حضرة صاحبة المجد والشرف الآنسة النبيلة فريدة هانم ذو الفقار بارك الله هذا الزواج وجعله طالع سعد ويمن فالجواب على ذلك هو : —

(١) عدد اليوم ٢٠

(٢) عدد الشهر صفر

(٣) عدد السنة $\frac{(١٩٣٨-١٩١١)\times ١١}{٣٠}$ =

$\frac{١١\times ٢٧}{٣٠} = \frac{٢٩٧}{٣٠}$ = ٩ والباقي ٢٧ وهو عدد السنة

أدن $\frac{٢٠+٠+٢٧+١}{٣٠} = \frac{٤٨}{٣٠} = ١$

والباقي ١٨ وهو عمر القمر يوم ٢٠ يناير سنة ١٩٣٨

بدر رقيق ومنظم للوقت دقيق ! فسبحانك اللهم يا مبدع الكائنات ومرتب الافلاك ومنظم الكواكب وسير النجوم واننا لنفنى نواظرنا ولن تفنى ان ذرة واحدة من هذا الكون الفسيح لهي آية من الآيات البينات تنطق بعظمتك وتدرتك جل جلالك وسبحانك اللهم يا من علمتنا مالم نعلم . واليك مني ايها العلامة فوربس تحية شاكر لفضلك وعارف بجميلك

صبحي جلبي
بعموم بعثة الكلية الاميركية

جائزة نوبل الطبية
لدافيسون الاميركي وطمسن الانكليزي

أذاعت لجنة جائزة نوبل ان جائزة الطبية من سنة ١٩٣٧ منحت للباحث الاميركي الدكتور دافيسون احد علماء شركة بل التلفونية الاميركية وللعالم الانكليزي الاستاذ جورج طمسن الاستاذ بكلية العلم الامبراطورية بلندن وتجل شيخ علماء الطبيعة في هذا العصر السر جوزف طمسن مكتشف الالكترون وهو الكهرب أو الكهرب بحسب وضع مجمع اللغة العربية الملكي

والاكتشاف الذي منح هذان العالمان جائزة نوبل من أجله هو اثباتهما ان الكهربات (الالكترونات) تفعل فعل أمواج الضوء او أمواج الاشعة السينية (اشعة اكس).

فقد اثبتا كل منهما على حدته، ان البلورات تفرق الكهربات على نمط معين كما تفرق امواج الضوء . فأيد بالتجربة نظرية الميكانيكيات الموجية التي وضعها العالم الفرنسي البرنس دي برولي ونال عليها جائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩٢٩

وتبلغ قيمة جائزة نوبل هذه السنة نحو ثمانية آلاف جنيه نصفها لدافيسون ونصفها لطمسن الصغير

ان وجه الخطر في اكتشاف الحقيقة التي اكتشفاها — أي ان البلورات تفرق الكهربات على نمط معين — قائم على ان هذه الحقيقة الطبيعية الجديدة أصبحت وسيلة بارعة دقيقة من وسائل البحث الطبيعي وهي تشبه باكتشاف اشعة اكس ان تفرق هذه الاشعة عند تسديدها الى بلورات مكن علماء الطبيعة الحديثة من النفوذ الى فهم المعادن وكيف تتركب ذراتها وجزيئاتها ومن فهم البلورات وما اشكالها وكيف تجتمع فتكون منها كتل بلورية كبيرة. ثم انها تصلح لدراسة الاغشية الرقيقة جداً وقوامها من ذرات وجزيئات. وفي جميع هذه الاحوال — أي المعادن والبلورات والاغشية — لا تسدي اشعة اكس خدمة للعلم لانها تخترق هذه المواد فتحل الكهربات محلها لانها تصطدم بالذرات والجزيئات فتفرق فيعرف من تفرقها وشكله قوام المادة المخترقة. وفضل دافيسون وطمسن قائم على اكتشاف هذه الحقيقة اولاً ثم تحري اساليب استعمالها

ومن عهد قريب اقترح احد الباحثين الاحيائيين انهُ يمكن استعمال هذه الطريقة لدراسة الاغشية الحيوية الرقيقة التي تفصل خلايا الجسم الحي بعضها عن بعض ومعرفة قوامها

اكتشف هذان الباحثان — كلٌّ على حدة — هذه الحقائق سنة ١٩٢٧. وكان دافيسون يشتغل بكهربات سريعة يوجهها الى بلورة من معدن النيكل. وكان يساعده الدكتور جرمر. اما الاستاذ طمسن فكان حينئذٍ في جامعة ابردين باسكتلندا وكان قوام تجاربه كهربات بطيئة — بطأً نسبيًّا طبعاً — موجهة الى ورق رقيق جداً من الذهب الخالص

ويبلغ طمسن السنة الخامسة والثلاثين من العمر أما دافيسون ففي السادسة والاربعين. وقبل انهُ لما بلغهُ نبأ الجائزة وقابله الصحفيون لمحادثته أصرَّ على وجوب ذكر مساعده الدكتور جرمر مقروناً باسمه عند النشر

جائزة نوبل الكيماوية

وكما منحت جائزة نوبل الطبيعية لعالمين احدهما انكليزي والآخر اميركي منحت جائزة نوبل الكيماوية عن سنة ١٩٣٧ لعالمين كذلك احدهما انكليزي والآخر سويسري. اما الانكليزي فاسمهُ الاستاذ هاورث احد اساتذة جامعة برمنغهام. وأما السويسري فاسمهُ الاستاذ بول كارر أحد اساتذة جامعة زوريخ

كان مدار البحث الذي نال من أجله الاستاذ كارر هذه الجائزة التركيب الكيماوي لجزيء فيتامين A وهو المعروف بفيتامين النمو ويكثر في زيت السمك والزبدة والجزر ونحوها. ومن بدائع ما ثبت للاستاذ كارر في أثناء بحثه ان هذا الفيتامين دقيق الصلة عادة كيماوية تعرف باسم « ايونون » وهي المادة الاساسية في عطور البنفسج

ثم حوَّل الاستاذ كارر نظره بعد ذلك الى فيتامين B الثاني وهو ضرب من فيتامين B

يثير الشهية فكشف عن تركيبه الكيمياوي وقد تمكن احد بيوت العقاقير ان يصنع هذا الفيتامين بالتركيب الصناعي باشراف العالم السويسري. وتقول احدى الصحف الطبية الاميركية ان علماء أميركا أتيح لهم رؤية هذا الفيتامين المركب بالتأليف الصناعي في الاجتماع الذي عقدته الجمعية الطبية الاميركية سنة ١٩٣٥ وكان كل ما ركب منهُ ستين قمحة حينئذ

أما مدار البحث الذي أجراه الاستاذ هاورث فكان فيتامين C المانع للاسكربوط وطائفة أخرى من المواد الكيمياوية هي أساس المواد النشوية والسكرية فتفذ من بحثه هذا الى أسرار تركيب السلولوس وهو المادة الاساسية في الخشب والقطن والكتان وغيرها

جائزة نوبل الطبية

وقد سبق لنا أن اشرنا في هذا الباب الى ان جائزة نوبل الطبية عن سنة ١٩٣٧ منحت للعالم المنغاري الاستاذ البرت سانت جورجي. وقدرنا عند ما أشرنا الى هذا الموضوع ان الجائزة منحت لهُ جزاء لهُ على اكتشافه فيتامين P المعروف باسم السترين الذي يوجد في ثمار الموالح والباپريكا (وهي نوع من الفلفل) ولكن الجائزة منحت لهُ لانهُ كان اسبق العلماء الى الحصول على فيتامين C مبلوراً. وهذا الفيتامين كما لا يخفى مانع لداء الاسكربوط. وأما فيتامين P الذي اكتشفهُ الاستاذ سانت جورجي من عهد قريب فوثيق صلة القرابة به الاَّ انهُ يختلف عنهُ

*

الولايات المتحدة الاميركية
تخسر تفوقها في ميادين الطيران

كان التفوق في ارقام الطيران القياسية في سنة ١٩٣٦ لاميركا فكان لطياريها ٥٤ رقماً ولطياري فرنسا ٣٧ ولطياري ايطاليا ٣٦ ولطياري المانيا ٨ ولكل من بريطانيا وروسيا رقم قياسي واحد

اما الآن فقد اصبح المقام الاول لايطاليا فلطياريها ٤٥ رقماً قياسياً وتليها الولايات المتحدة الاميركية (٤٣) فرنسا (٣٥) روسيا (١٥) فالمانيا (١٤) فبريطانيا اربعة ارقام قياسية

ولعلَّ ارتقاء روسيا من احرازها رقماً قياسيًّا واحداً في الطيران الى احرازها ١٥ رقماً قياسياً في سنة واحدة اكثر استيفاقاً للنظر من ارتقاء ايطاليا من المكانة الثانية الى المكانة الاولى وزيادة الارقام القياسية التي احرزها طياروها من ٣٧ رقماً الى ٤٥ رقماً قياسيًّا. وقد كان التنافس على اشده بين انكلترا وايطاليا على الرقم القياسي للتحليق في الجو وهو الآن للطيار البريطاني آدم اذ حلق الى ٥٣٩٣٧ قدماً

العلم والديمقراطية

قصة عالم فرنسي شهير

يروى عن جورج كلود المهندس والمستنبط الفرنسي المشهور انهُ رغب من بضع سنوات في ان ينتخب عضواً في مجلس النواب فأعدَّ سيارة نقل كبيرة وحملها أسلاكاً ومضخات وأنابيب وتوربين وذهب الى دائرته الانتخابية ليخطب في الناس ويقنعهم بانتخابه ولما وصل الى دائرته الانتخابية وقف على السيارة وخطب قائلاً انني لا أعرف شيئاً عن السياسة ولكن من يحتاج اليهم فرنسا في مجلس النواب ليسوا سياسيين بل كيمياويين وطبيعيين ومهندسين وفنيين مدربين يعرفون ما هي الآلات التي اسبغت على حضارتنا صفتها واتجاهها انتخبوني فاسمي لاجعل فرنسا اعظم مما هي عن طريق العلم والهندسة . والآن اليكم بعض التجارب العلمية

فراقبهُ الجمهور مأخوذاً وسمعهُ مشدوهاً ولكن جورج كلود لم ينتخب عضواً في مجلس النواب الفرنسي . ولو انهُ أدرك ساعتها ان المجتمع في حالته الحاضرة اشد تأثيراً بما يثير العواطف منهُ بما يحفز العقل لتكن بشيء من البراعة والاستهواء ان يحول اخفاقه الى ظفر لان تاريخ فرنسا حافل بفريق من اكبر العلماء كانوا كذلك من أقطاب السياسة رجال كبوت السيولوجي ورنيلو الكيمياوي وبانليفه الرياضي

ليس جورج كلود من طراز الفلاسفة المثاليين الذين اراد افلاطون ان يسودهم على الدولة المثلى ولكنهُ مهندس يعرف ان الديمقراطية عاجزة عن معالجة المشكلات التي خلقها العلم ويرى ان انقاذ الديمقراطية والحكم النيابي والاحتفاظ بقواعد الحرية والمساواة لا يمكن ان يكونا الا عن طريق العلم نفسه

ذلك أن الديمقراطية صورة لنظام الحكم ورثناها من القرن الثامن عشر ولا يزال اقطابها في القرن العشرين يفكرون على الاكثر تفكير اسلافهم في القرنين الماضيين حالة أن الجماعة التي عنت للآلة ومنتجات الآلة أصبحت في الواقع خاضعة للهيئات الصناعية والاقتصادية اكثر منها للاحزاب السياسية

لان الاحزاب السياسية هيئات منظمة يعرف اقطابها كيف يستهوون الجماهير اما العلماء حتى علماء السيكولوجيا فهم ابعد ما يكونون عن معرفة اهواء الجماهير وكيفية التأثير فيها. ولكن الحكومات والشعوب التي يهمها ان تنفذ الديمقراطية للحضارة يتحتم عليها ان تبتدع اسلوباً تدخل به العلماء الى مخادع الحكام

انابيب البيرا من الزجاج

كانت أنابيب البيرا التي تمد بين مصانع البيرا ومستودعاتها في مشاربها بالمانيا تصنع من المعدن المطلي من داخله بالقصدير فأصبحت تصنع من الزجاج لان الحاجة ماسة الى القصدير في صناعة السلاح

المخلوط ملونة من الذهب

لون الذهب معروف لا يحتاج الى وصف ولكن التجارب الحديثة اثبتت انهُ اذا خلط بمعادن اخرى تتغير لونهُ فيصبح له شأن آخر في ما يستعمل له بقصد الزينة . والغالب أن يكون لون الخليط المعدني مزيجاً من ألوان المواد الداخلة في الخليط الا أن الباحث يجد احياناً ان خليطاً جديداً من مواد معينة يظهر في لون غير اللون الذي يتوقعهُ

والذهب من هذا القبيل فاذا خلطت ٢٢ جزءًا من الالومنيوم بـ ٧٨ جزءًا من الذهب كان لك خليط معدني أرجواني او في لون الياقوت الاحمر . والتريب الذي يبعث على الاسف ان هذا الخليط قصم سهل الكسر فلا يمكن سحبه اسلاكاً ولا طرقه ورقاً رقيقاً ولا يعلم الآن هل يمكن في المستقبل ان يستعمل بقصد الزينة

أما إذا خلطت الذهب بمقدار عشرة في المئة من الالومنيوم كان الخليط ابيض فاذا زاد نسبة الالومنيوم في الخليط رويداً رويداً تحول لونهُ الابيض الى وردي فالى ارجواني

***

ولا بد فرعاء المعادن خليطاً معدنيًّا آخر بهذا اللون الآ خليطاً قوامهُ ٥١ في المئة من النحاس و ٤٩ في المئة من الالمنيوم ولكن لونهُ الارجواني اقل زدعاء من لون خليط الذهب والالومنيوم

اصطراح النسل

تتمة المنشور على الصفحة ٣٩ للدكتور شريف عسيران

وكان يبلغ عدد سكان اتيكا ٩٠ الفاً من السكان الخلّص و ٤٠ الف اجنبي عن البلاد وأربعمائة الف عبد من العمال وأصحاب الحرف. وتولد النوابغ الذين مرّ ذكرهم من القسمين الف الاولى . والسبب في ذلك ان الاثينيين فتحوا الباب على مصراعيه لهجرة العناصر الجيدة وأوصدوه في وجه الفاسدة وجعلوا مدينتهم مركزاً لاولي المقدرة الفائقة والثقافة العالية بخلق وسائل لم تتوافر في غيرها من المدن . واستنتج غالتون من ذلك ان معدل مقدرة السلالة الاثينية في ذلك العصر يفوق على اقل تقدير السلالة الانكليزية الحاضرة بنسبة تفوقها على سود افريقيا . يقول غالتون : ليس هناك دليل على أن مواهب الانسان الوراثية تحسنت في الثلاثين السنة المتأخرة مع العلم بأن عاداته وعلمه تحسنت بمدى واسع . والانسان الذي اكتشف النار لا بد كان عالي الهمة شديد الذكاء . والارجح انهُ لو عاش اليوم لعرف كيف يستخرج النفط من الطباشير والماء وقوة الريح . وكذلك لم تتقدم وراثة الامة العربية وانما حصل تغير في محيطها فاصلاقا كانوا اخصب منا فلسفة وطباً وأدباً ومدنية وثقافة والمحيط مهما ارتقى لا يحسن الوراثة البيولوجية ومن الممكن تحسين وراثة النباتات والحيوانات ولكن تجارب آلاف السنوات علمتنا أن ما ينطبق عليها لا ينطبق على الانسان

مكتبة المقتطف

هندسة الكون بحسب ناموس النسبية

بقلم نقولا الحداد ١٦٨ صفحة من القطع المتوسط ٢١ × ١٤ سم. صدرته دار المقتطف وعدة نسخ من المقتطف في غير افسطس سنة ١٩٣٧ م بالقاهرة — الثمن ١٥٠ مليماً

الاديب البحاثة نقولا الحدّاد من رجالات الفكر الذين يعنون بتبسيط غامضات مباحث الفوزيقا الحديثة وخاصة ما اتصل منها بنظريات البرت اينشتين في مبدأ النسبية. والكتاب الذي نحن بصدده تبسيط لاوليات لنظرية اينشتين مسوق الى الافهام العامة. وهذا الكتاب يعتبر الاول في موضوعه في اللغة العربية، والمبحث الوحيد الذي كتب في هذا الشأن. واني وان كنت شخصياً قد وضعت دراسة مفصلة عن نظريات اينشتين في مجلدين في اكثر من خمسمائة صفحة في العربية تلخيصاً عن كتابي Die Grundlagen der Relativitaetstheorie, Leipzig. 1934 الذي ألّفته بالالمانية في ثلاثة اجزاء، الاّ أني لم أنشر من دراستي العربية غير ما سبق في مجلة « الرسالة » مسلسل على عدة مقالات، وهذا الجانب يعرض لقرارات « النسبية الخاصة » التي تقومت بجهود لورانتز وبوانكاريه واينشتين ومينقوفسكي دون « النسبية العامة ». ولما كنت قد نهجت في دراستي النهج الرياضي الصرف فقد كانت الفائدة قاصرة على الذين في مكنتهم ان يسيروا في البرهان الرياضي العالي. لهذا وحده يمكنني ان أفضل جناب ما كتبت في هذا الشأن واقرر ان كتاب البحاثة نقولا الحدّاد الاول في موضوعه بأسلوبه وسيظل فريداً في بابه بمنهجه. غير ان هذا لا يمنعني بحكم توفري الطويل على دراسة النسبية والقيام بتدريسها في وقت من الاوقات ضمن دروس الفوزيقا النظرية بمعهد الطيبات الروسي التابع لجامعة موسكو ان أوجّه نظر المؤلف الى بعض الاخطاء التي وقع فيها نتيجة الخلط بين النظر الكلاسيكي والنظرة الجديدة التي تقومت بجهود اينشتين ومينقوفسكي

ذهب المؤلف مذهب لورانتز في تفسير ظاهرة تقلص الاجسام في اتجاه سرعتها واعتبر هذا التقلص حقيقة فوزيقية. ولكن قبل كل شيء يجب ان نفرق بين ما هو داخل في نطاق الفوزيقا الثانية مما هو راجع لاعتبار آلياتي وبين ما هو ضمن الفوزيقا الاولى مما هو يعرض لعالم الطبيعة من حيث هي، لان موضوع الفوزيقا الثانية يتصل بعالم المظاهر بينما موضوع الفوزيقا الاولى يتصل بما هو واقع. إذن قلنا ان نسأل: هل ظاهرة التقلص في الاجسام في اتجاه حركتها حقيقة واقعة ام حقيقة تتصل بعالم المظاهر؟ فان كانت حقيقة تتصل بعالم المظاهر فهل يصح تفسيرها تفسيراً واقعياً؟

لقد كانت الفوزيقا القديمة ترى هذه المظاهرة حقيقة واقعة حتى ان لورانتز فسرها بنظريته في الالكترون — انظر Hendrik Antoon Lorentz Erscheinungen في Electromagnetische

in einem System, das sich beliebiger, die das Licht nicht erreichender Geschwindigkeit (Leiden 1895).

ولقد تابع المؤلف لورانتز في تفسيره ، ولكن الفوزيقا الحديثة التي تقومت بجهود اينشتين وتكملت بمباحث مينكوفسكي بينت ان ظاهرة التقلص ظاهرية بالنسبة للانسان وحقيقتها تعمل بنظام المظاهر ، حتى أن الاب مورو Moreux يرى ان الاثر الوحيد لاينشتين في النسبية الخاصة ينحصر في هذا وحده . ولقد تبسطنا في شرح هذه المسألة رياضيًّا في المقال المنشور بمجلة الرسالة العدد ١٣٨ (السنة الرابعة — ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٦) وقد جاء في ختامها :

« ومسألة تقلص الاطوال شيئاً فشيئاً كما تقرره ميكانيكة لورانتز ليست راجعة الى تقلص الاجسام في اتجاه حركتها وانما هي نتيجة لنسبية الاطوال . وليس هذا التقلص حقيقيًّا بل هو ظاهري حيث ان الراصد لا يمكنه ترتيب حدوث الحوادث كما تقع في عالم الواقع . وانما يرتبها بحسب ما تتراءى له . وتقسيم الزمان والمكان تقسيماً مطابقاً لموضوعها لا يمكن اجراؤه في صورة مستقلة بعضها عن بعض ، حيث ان سرعة اندفاع الجسم اذا بلغت سرعة انتشار النور او قاربتها بلغ التقلص انتهاءه — ولم يصبح الجسم عمق لدى النظر . لان الاجسام عند ما تبلغ من السرعة هذا الحد تلوح كصفائح رقيقة » . اذاً فاعتبار المؤلف تقلص الاجسام في اتجاه حركتها عملية واقعية ، خطأ لا يتفق وقواعد نظرية النسبية لأن هذا التقلص ظاهري بالنسبة للراصدين . والتفسير الذي قدمه المؤلف لتعليل التقلص لا يتفق ومنطق النظرية التي يشرحها

عرض المؤلف لنظرية النسبية كناموس كوني، وقرر واقعية مبادئه وغاب عنه أن النسبية نظرية تدخل في نطاق الفوزيقا الثانية ، ويعترض عليها بالشيء الكثير الذي يجعل التريث في بناء نظرة كونية استناداً اليها ، شيئاً محموداً في نظر العلم

يقرر مبدأ النسبية الكلاسيكية أن الحوادث تحدث في العالم مطلقة سيان كانت منسوبة الى كياتها الوضعية co-ordinates نسبة ثابتة أو كانت متحركة ازاءها حركة مستقيمة منتظمة . وتجربة « ميكلسون — مورلي » تثبت أن للنور سرعة ثابتة فهل في الامكان التوفيق بين مبدأ النسبية الكلاسيكي النيوتوني وبين ثبات انتشار الضوء في الفضاء ؟

إن الاجابة عن هذا السؤال بحسب منطق نظرية النسبية ترجع بنا الى مسألة التواقت التي توحي الينا أن الزمان ليس بفكرة أية a priori كما تقرر الميكانيكا الكلاسيكية ، وان مفهوم السرعة مشتق منه ، بل أن سرعة النور وثبات هذه السرعة مفهوم أولي، ومنها يشتق مفهوم الزمان

فكأننا براصد الحادثات مقيد بأنه يقرر حسبما تتراءى له الحادثات ، والزمان بالنسبة لهُ ليس شيئاً وهميًّا لدى القياس كما هو في ميكانيكية لورانتز لهُ حقيقة موضوعية

هذا الافتراض حققهُ اينشتين عن طريق ردّ مبدأي مطلقية الزمان والمكان ورجع بهما الى هيئة القياس ، أعني الى مبدأ عام ينسبهما الى الهيئة التي تقاسان بالنسبة لها . وهذه الوجهة من النظر هي قرارة نظرية اينشتين في النسبية الخاصة

ولقد خلص اينشتين الى هذا الافتراض من تحقيق رياضي عرض لهُ المؤلف في آخر القسم الثالث ، الفقرة ٥ من الفصل التاسع ص ٨٧ — ٩٠ فلتراجع هناك . غير أنهُ من المهم أن نعلق على هذا بأن هذا الافتراض خطأ من الوجهة الفيزيقية والرياضية ، أما الوجهة الفيزيقية فلأن تحقق ذلك قائم على الخلط بين نظريتين من هيئات القياس

وقد كان بودّي أن اشرح هذا الخطأ ولكن تحقيقه رياضي . والمقتطف لا يتسع لمثل هذا التحقيق ، غير أن هذا لا يمنعني ان أعلن قرائي اني أرحب بكتابتهم اليَّ بشأنه إذا أرادوا التوسع ، وكل ما يمكنني أن أقوله من باب عقلي بعيد عن الاسلوب الرياضي أنهُ في الشرح الذي قدمهُ البحاثة نقولا الحداد ص ٦٦ — ٦٩ من كتابه كان الزمن متواتراً بالنظر للراصد الذي بالنقطة (ب) ومتخلفاً بالنسبة للراصد (ن) ، وذلك لان انتشار النور سيكون ثابتاً للراصد (ب) ومتخلفاً بالنسبة للراصد (ن). والى هنا تتفق مع اينشتين ولكن نختلف معهُ في أن التخلف سيكون بالنسبة لمن ؟ بالنسبة للراصد (ب) ؟ ام بالنسبة للراصد (ن) ؟ وأن الحادثتين اذا كانتا متواقتين بالنسبة للراصد (ب) فمن الذي سيحكم بعدم تواقتهما بالنسبة للراصد (ن) ؟ ومن الذي سيقتنع بهذه الوجهة من النظر ؟ ان الذي سيقتنع والذي سيحكم بطبيعة الحال هو الراصد (ب) !

فكان بالنسبة لوجهة نظر الراصد (ب) هناك حادثتان متواقتان لهُ غير متواقتين بالنسبة لراصد (ن) !

ولتحقق هذا يجب أن نعترف بامكان معرفة الراصد (ب) وجهة نظر الراصد (ن) ، ولكن اينشتين يسوق كل نظريته وبعضي في استدلاله الرياضي دون ان يكون هنالك اثبات لهذه الدعوى فكأن ملاحظة اينشتين إذن ساقطة

لقد اغفل المؤلف الكلام عن ميكانيكة لورانتز التي هي نتيجة من نظرية النسبية ، لان استخراج معادلات التحويل اللورانتزية يستلزم قبول ميكانيكا لورانتز ، ولقد أخذ اينشتين بهذه الوجهة من النظر غير أن المؤلف اعرض عن هذا مع أنهُ في معرض الكلام عن نظرية اينشتين وكان نتيجة هذا قفزة واسعة من نطاق النسبية الخاصة الى النسبية العامة لا يتأتى ادراكها الاّ في ضوء الكلام على الميكانيكا الجديدة والديناميكا النسبية

فاذا ضربنا صفحاً عن الاخطاء الاصطلاحية وهي كثيرة في الكتاب وهي موضوع بحث

خاص فان الدراسة لم تخلص في اكثر فصولها من الخلط بين النظريتين الكلاسيكية والحديثة من ذلك ما قدمهُ الكاتب من تعليل لسبب انحراف شعاعة النور القادمة على مقربة من الشمس ص ١١٠ ، والذي يناقض اعمال العالمين الفلكيين — انظر J. W. Dyson, A. S. Eddington and C. Davidson, "A Determination of the Dflection of light by the Sun's gravitational field ...," Philosophical Transactions of The Royal Society of London Serie A. Vol 220 (1920), p. 291-333. E. F. Freundlich, Die Naturwissenschaften (1920), p. 667-670. —

كذلك عما كتبه في «تحدب الابعاد الاربعة» ص ١٣٦—١٣٨ . فاذا ضربنا عن كل هذه المآخذ وهي لا تنقص من قيمة الكتاب اذ لا يخلو من مثلها اي كتاب مبسّط في نظرية النسبية ، لا بسمنا الا ان نشكر صاحب الكتاب على ما تجشمهُ من مشقة في وضع هذا الاثر

الاسكندرية اسماعيل احمد ادهم

الصيد في البلدان العربية في العصور الوسطى

٤٤ صفحة و ١١ لوحة للدكتور زكي محمد حسن

Hunting as Practiced in Arab Countries of the Middle Ages

رسالة أنيقة في موضوع طريف كتبها باللغة الانجليزية الدكتور زكي محمد حسن أمين دار الآثار العربية في مناسبة انعقاد مؤتمر الصيد الدولي في برلين . وهي محلاة بمجموعة من الصور الفنية نقلاً عن النقوش المعدنية والخزفية والمنسوجات الاسلامية والاخشاب الاثرية المودعة في دار الآثار العربية وغيرها . في هذه الرسالة تناول الدكتور بحث الاسباب التي دعت الاعراب الى الاهتمام بالصيد قبل الاسلام وكيف ان طبيعة معيشتهم في الصحراء والدفاع عن انفسهم قد وجهتهم الى الغرام بالصيد . كما تكلم عن أسلحة العرب التي استعملوها في الصيد قبل العصر المعدني في شبه الجزيرة العربية وتطوُّرها فيما بعد اكتشاف المعادن

واستشهد الدكتور ضمن وقائع ما كتبهُ ببعض قصص الصيد المشهورة في الاسلام . ولا سيما عند ملوك السلجوقيين والغرس والتتار وسلاطين الفاطميين والايوبيين وسلاطين المماليك الذين كانوا يخلدون أعمال الصيد لضابط كبير بأسم « امير شيكار »

ولم يكن لدى خلفاء بني أمية في دمشق والاندلس او بني العباس في بغداد والطولونيين وآل إخشيد والفاطميين والايوبيين وسلاطين المماليك في مصر أعز وأحب من الخروج الى الصيد على متون جيادهم الكريمة وخيولهم الصوافن يحيط بهم رجال معيتهم يحملون أسلحة الصيد البراقة وهم في أزيائهم الملونة البديعة . والرسالة انيقة كما قلنا وطريفة الى حدّ بعيد . وقد أخرجتها المطبعة الاميرية ببولاق في ثوب قشيب

عبد الرحمن زكي

القضية الفلسطينية

لواضعه الدكتور يوسف هيكل ، في ٣٠٠ صفحة ، طبع بافا سنة ١٩٣٧

تنازع البقاء ناموس عام في عالم الاحياء . هذه هي منازعات رومة وقرطاجنة ، وبابل وأشور ، والفرس واليونان ، والصين واليابان ، وهذا ما جرى للأوربيين في قارتي أميركا . فقد أفنوا سكانها الاصليين وحلوا محلهم ، كما فعل الاتراك بالارمن . هذه سنة الكون النافذة رضينا أم لم نرضَ . والكون بحسب نظرية دارون ، وتفكير شوبنهور ، نزاعٌ في نزاعٍ

على هذه الصورة أرى امامي في مشهد كتاب هيكل ، اليهود والعرب يتنازعان . اليهود طائفة معروفة ، من ذرية ابرهيم الخليل ، طائفة مشتتة في جميع اقسام الدنيا . طائفة قديرة ، غنية ، مضطهدة متساندة ، مشهورة في كثير من البلدان . لها تقاليد دينية وجنسية تربط قلوبها بفلسطين . فحنين اليهود الى فلسطين حافزان ، هما التوراة والاضطهاد القاسي . فهبوا للسعي في العودة اليها . وألفوا الجمعية الصهيونية في أواخر القرن المتصرم لهذا المقصد . وفي واقع الامر جاء كثيرون منهم الى فلسطين في عهد عبد الحميد . واختطوا تل أبيب وزمارين وغيرهما

وشبت نار الحرب الاوربية الكبرى سنة ١٩١٤ . وهنا يقول المؤلف هيكل في صفحة ٤١ « كانت نتيجة الحرب أواثل عام ١٩١٧ غير معلومة . ووضعية الحلفاء حرجة . وكان العالم اليهودي قوةً هامة . فسمت دول الحلفاء (من جانب) ودول اوربا الوسطى (من جانب آخر) لاجتذابهم . فأظهرت المانيا رغبةً شديدة في الاحتفاظ بميل اليهود وربطهم برباط صداقة جديدة . وتوسطت لدى الباب العالي ليسمح لليهود بسكنى فلسطين . . . . وألحّت على صديقتها تركيا بالتسامح مع الصهيونيين للاحتفاظ بصداقة اليهود . . . . وفي تلك الاثناء أخذ الحلفاء يتبرون اقتراحات الصهيونيين وعملوا على ارضائهم خوفاً من انضمامهم الى الالمان . فتساهلوا معهم ، واتفقوا واياهم على « تصريح بلفور » . وص ٤٤ . كانت نتيجة الحرب متوقفة على الولايات المتحدة . اذ لم يكن للحلفاء أمل في الانتصار دون مساعدتها . . . . وتأكدوا انهُ من الصعب جداً ادخال الولايات المتحدة الحرب في صفوفهم ان لم يجتذبوا اليهم قلوب اليهود الذين فيها ، فكان تصريح بلفور »

ويذكر الكتاب في صفحة ١٧ — ٢٥ اتفاق الحسين بن علي شريف مكة يومذاك ، والحلفاء على خروجه على الترك ، والانحياز الى الحلفاء واعدين بتحرير البلاد العربية واستقلالها فلما انتهت الحرب . وفاز الحلفاء . وكثر اليهود بفلسطين وتنازعوا والعرب ، ذكّر العرب انكلترا بمواعيدها للحسين التي مفادها استقلال فلسطين عربية ، وتشبث اليهود بتصريح بلفور

« ان يكون لليهود وطن قومي بفلسطين » . فكانت انكلترا بين قوتين متضادتين تجرانها الى جهتين متقابلتين . بهذا الاعتبار يقول المؤلف في صفحة ٧٢ : وخاطبت الحكومة البريطانية زعماء الصهيونية قائلة : ليس من الصواب ، ولا من الحكمة ، ان يتابعوا الضغط على حكومة جلالته ، لتتبع سياستهم في مسألتي الهجرة والاراضي . اذ معنى عملهم هذا انهم يتجاهلون واجب الحكومة نحو سكان البلاد من غير اليهود

ثم قال المؤلف في صفحة ٩٩ « وبعد ان درست وزارة المستعمرات (الانكليزية) تقرير لجنة شو ، وتقرير سمبسون ، وضعت حكومة جلالته الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ وبه انصفت العرب بعض الانصاف » . و ص ١٠١ « وجابه العرب المشروع بتروٍّ واسمان فكر ، وأخيراً قبلته مبدئيًّا اكثريتهم . . . اما اليهود فحملوا عليه حملة شعواء » الخ . ويقول في ص ١٠٠ « وأخيراً هدَّد الصهيونيون حكومة جلالته باعلان حرب اقتصادية عليها ان قامت بتنفيذ محتويات الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ » وفي ص ١٠٢ « حاول وزير المستعمرات الدفاع عن المشروع . غير أن اعضاء المجلس (البرلمان) المتشيعين بالاهواء الصهيونية لم يجروا براهينه اذناً صاغية . فخشيت حكومة بلدوين تأنيب النواب عليها ، فصدت عن مشروع تأسيس المجلس التشريعي ، وأوعزت الى مندوبها في فلسطين أن يتمهَّل . . . فظهر للعالم بكل جلاء أن نفوذ الصهيونية دخل وتمكن في البرلمان البريطاني »

وجاء في ص ١٠٤ « ترى وللاسف أن الحكومة المنتدبة لم تتقدم خطوة واحدة في سبيل ترقية الحكم الذاتي في فلسطين . . . ليس لانها لا تريد القيام بواجباتها ، ولكن لانها عاجزة عن مقاومة الصهيونية »

يتبيَّن القارىء من هذه الاقوال وامثالها ، وهي كثيرة في الكتاب ، أن المؤلف يشهد للحكومة الانكليزية بحسن النية نحو العرب ، ولكنها غير قادرة على ان تقاوم الصهيونية ذات الحول والطول في انكلترا او اميركا . وذلك ابلغ دفاع قال به فلسطيني عن الحكومة الانكليزية

ثم أتى في صفحة ٢٤٩ على « الحل العلمي العادل » لمشكلة فلسطين ، وبعد ما مهَّد له بكلام حكيم قال في ص ٢٥٣ و ٢٥٤ ما نصهُ : « خير حل للمشكلة اليهودية هو . . . ايجاد وصية دولية خاصة باليهود . اي إن يعيش اليهود في البلاد التي هم فيها . وان يكونوا مخلصين نحو حكومتها . ويقوموا بجميع الواجبات التي يقوم بها اهل البلاد . وان تعترف لهم الدول بحقوق خاصة في ما يتعلق بدياناتهم وعاداتهم ولغتهم . وان تكون هذه الحكومات مسؤولة عن ذلك أمام مجلس دولي . . . وتكون فلسطين مركزاً روحيًّا وثقافيًّا لهم »

وهو حل بديع لو يصحّ

ولا غلط من قدر المؤلف بعض اغلاط وردت في كتابه، ارى من واجب المراجعة الاشارة اليها . قال في صفحة ٤٧ « خلف يعقوب ١٢ ولداً صغيرهم يوسف » . وهو خطأ . والصواب ان صغيرهم بنيامين . وقال في ص ٤٨ وبعد ان مضى عليهم خمسة قرون (في ارض كنعان — يعني اليهود) نقلوا الى الحضارة واختاروا شاول ملكاً عليهم » . والصواب ان عصر القضاة ، الذي كان اليهود فيه في شيء من البداوة ، لم يزد على ٢١٥ سنة يضاف اليه عصري يشوع بن نون وصموئيل ٨٠ سنة . وقال في ص ٥٠ دخلت فلسطين ضمن امبراطورية الاسكندر عام ٣٣٢ ق م . الى ان دخلت ضمن الامبراطورية الرومانية عام ٦٤ ق . م . هنا أغفل المؤلف عصر المكابيين وهو اتجد سطر في تاريخ اليهود . وقال في ص ٥٤ عدد المسيحيين اكثر من ٤٥٠ مليوناً . وهو خطأ صوابه انهم اكثر من ٧٠٠ مليون . منهم في اوربا ٤٥٠ وفي اميركا ٢٦٠ عدا من في استرالية وافريقية وآسيا وجزر البحار . اقتصر على القليل وهو عن الكثير بديل .

مشكوراً على نزاهة المؤلف وسعة اطلاعه القاهرة حنا خباز

اصول الطب البيطري

تأليف الدكتور ابرهيم نجيب محمود مدرس الطب البيطري في كلية الزراعة في الجامعة المصرية
مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر والثمن خمسون قرشاً

انهُ ليسر الباحث ان ينقد كتاباً مثل هذا الكتاب فهو كتاب مدرسي حسن التأليف والطبع فرأيت ان انقد بعض فصوله لأبين للقارىء بعض ما جاء فيه فالباب الاول في الحيوانات الاهلية كالبقر والابل والخيل ونحوها وقد زين المؤلف صفحاته بالصور المتقنة البديعة واورد فيها اجزاء الجسم في كل منها وكتب اسماءها باللغة عربية فصيحة ففي اجزاء الفرس مثلاً ما يأتي:

الرأس والجبهة والاذن والانف والعين وثقرة العين والناصية والمنخران والشفة العليا والشفة السفلى والذقن والفك والبارزة الوجنية والرقبة والسبيب اي العرف وصفحة العنق ثم الصدر ثم الجسم وفيه المحارك والظهر والقطن والجنب واللبان اي الصدر والبطن والخاصرتان والكفل يتوسطهُ الحجز والجراب داخلهُ القضيب ويقال للجراب القنب ثم الصفن داخلهُ الخصيتان ثم البارزة الحرقفية ثم القائمة الامامية وهي الكتف ومفصل الكتف والعضد والمرفق اي الكوع والساعد والزائدة القرنية والركبة والوظيف (المدفع الامامي) والزر (الرمانة) والقيد والشرابة الامامية اي الثنة والاكليل والحافر . ثم القائمة الخلفية وفيها مفصل الورك والفخذ والساق والعرقوب وبروز العرقوب والوظيفة الخلفي والزائدة القرنية الخلفية والرمانة الخلفية والشرابة الخلفية اي الثنة والقيد الخلفي والاكليل الخلفي والحافر الخلفي والذيل وشعر الذنب وفي الانثى الضرع ولهُ حلمتان اي حلمتان والحياء في أسفل الفرج . ثم أورد أجزاء البقر والابل

وكلهُ بلغة فصيحة . وقد سرني في تصنيف هذه الحيوانات قولهُ اللبونة فانها اصلح كثيراً من الثديية فليس كل لبون ثديي على ان مجمع اللغة لا يزال على ثديي او ان الموكل باختيار مصطلحات علم الاحياء لا يزال في القرن التاسع عشر او انه يرضى بالحيوانات اللبونة بعض مضي سنوات حتى ينسى من اقترح اللبونة

هذا في الفرس ثم ذكر المؤلف الحيوانات الاهلية المشهورة في مصر واورد رسومها واسماءها العربية الفصيحة في غاية الدقة والاتقان . هذا في فصل واحد من الفصول وكنت افضل ان يهمل ما هو اعجمي في بعضها فيقتصر على الوظيف مثلاً اما اضافة المدفع اليها فاعجمي لا لزوم لهُ فالمدفع انكليزي والوظيف عربي وهو يكفي وهناك مسألة اخرى احب ان اشير اليها فقولهُ الجمال والاغنام والماعز كلهُ فصيح واظن لو قال الابل فالابل تشمل الجمال وهي الذكور والنوق وهي الاناث . فالسامة تفهمها وهي ادق في التعبير واذا نقول الاغنام والنعم افضل وهي جمع وتشمل الضأن والمعز والنعم شائعة في السودان والعراق ويراد بها ذوات الصوف وذوات الشعر

اما الباب الثاني في تركيب الحيوان فانهُ ذكر فيهِ الشحم والدهن وقال إن الشحم يشبه الدهن في ذوبانه وقد بينت قبلاً في المقتطف ان الدهن مادة سائلة وان الشحم هو ما يسمى بالانكليزية Fat لا كما تزعم العامة ولا كما جاء في لجنة علوم الاحياء والمادتان هما بالانكليزية والعربية كما يأتي fat and oil

(المقتطف : في هذا الجزء من المقتطف بحث للاب انستاس ماري الكرملي في هذا الموضوع)

ثم الباب الثالث وغيره الى آخر الكتاب. فالكتاب مؤلف دقيق اورد فيهِ المؤلف الاسماء العربية الفصيحة كما تقدم فهو كتاب نفيس واني اشير بالاعتماد عليهِ لفصاحته فهو من جملة الكتب التي اختارها الله لتوحيد المصطلحات الطبية

مصر الجديدة امين المعلوف

الثورة العرابية

لانور زقلمة — واخراج مطبعة المجلة الجديدة — في ١٣٠ صفحة

في دراسة التاريخ القومي أكبر عون على الفخر بالانتساب الى وطن عظيم . ومن أجل هذا كانت عناية جميع الأمم الحية بدراسة التاريخ الوطني علماً منها بانها خير سبيل لكي يغرس في نفوس النشء روح الاعتزاز بالوطن والعمل على احياء تراث الماضي المجيد . وكانت الوسيلة التي تبنتها تلك الأمم الحية لايقاظ الشعور الوطني أنها استفادت من كل صفحة من صفحات تاريخها المضيء باستخراج ما فيها من دروس وطنية

والروح التي كتب بها الاستاذ المحامي « انور زقلمة » كتابه الاخير الثورة العرابية هي التي

محتاج اليه في معظم كتب التاريخ التي يجب ان يتداولها الطلبة في المعاهد العلمية بعد الجهل الفكري الذي اصاب معظم الكتاب والمؤرخين الذين انتدبوا رسمياً » للكتابة عن بعض صفحات تاريخية لمصر تعمدوا فيها عن قصد او غير قصد الحط من قيمة تاريخنا وذكرى ابطالنا . فكتبوا ما كتبوه من الكتب وهي خالية من ذكرى الاعمال العظيمة التي اتاها الجيش المصري في فتح البلاد الاسيوية بقيادة تحوتمس الثالث وملوك الرعامسة . وفي محاربة الصليبيين امام دمياط والمنصورة وفارسكور وفي القضاء على الجيوش العثمانية في سورية والاناضول بقيادة الجندي البطل ابراهيم . وفي القضاء على مآرب الفرنسيين في مصر وفي مقاومة الحملة الانجليزية في المئتي السنة الاخيرة تان

والتاريخ المصري الحديث حافل بحوادث الابطال المصريين — هؤلاء الابطال الذين يجب علينا ان ندرس تاريخهم بتوسع . فلا يقال عنا اننا امة تنكر الجميل وتجحد فضل ابنائها الذين ماتوا في سبيل رقيها — ومن هؤلاء الرجال . . . عرابي باشا وهو وان كان قد خاب في مساعيه الا انه يجب ان نتذكر ان خيبته لا تحط من قيمة عمله بل يجب علينا ان نكثر من درس سيرته لنعلم اسباب الاخفاق فنجتنبها واسباب الرقي فنأخذ بها

هذا البحث يقدمه الينا الاستاذ « أنور زقلمه » في كتابه « الثورة العرابية » بعد ما راجع من الكتب والمصادر النفيسة ما راجع وحلل ما ورد فيها من الآراء المتناقضة

لخص المؤلف اهم حوادث مصر منذ حكم محمد علي الى ايام اسماعيل العظيم . وتناول الكلام عن تسرب النفوذ الاجنبي الى الادارة المصرية وأسبابها البعيدة في قيام العاصفة فالثورة فالعصيان القومي وقيام عرابي يدافع عن الظلم الذي لحق بالجيش من جراء تعسف الضباط الترك وانتقل المؤلف الى الكلام عن التداخل الانجليزي بين الخديو وشعبه بحجة الدفاع عن عرش سيد البلاد. ثم وصف الحوادث التالية للثورة الى نشوب الحرب بين الجيش المصري والانجليزي . وفي الفصلين الختامين لخص اهم اسباب الثورة ونتائجها فنجده يقول : « لقد اخرجت لنا الثورة جميع زعماء النهضة الحديثة في مصر ويكفي ان الزعيم سعد زغلول كان احد الشبان الذين تخرجوا منها »

ونحن نهنىء الاستاذ زقلمه بمؤلفه النفيس ونأمل ان يكشف الستار قريباً عن صفحة تاريخية ماضية ليملأ بنورها فراغاً آخر

عبد الرحمن

فؤاد الاول

من الصفات النبيلة التي خلعها العالم على المصريين انهم كرام . ولسنا ندري ان كان مبعث ذلك طيب مناخهم ، وصفاء سمائهم ، أم انهم من سلالة أولئك العرب الذين أثبتوا عملياً انهم معدن الكرم ، فاحتفظت صفحات التاريخ بذكريات رائعة لهم ، ما زالت تسير مسير المثل وتهب هبوب العرف الشذي . ولئن كان المرحوم شاعر النيل نعى عليهم ان يتمالوا في تلك الحفلة التي

جرت عليهم في سبيل الحياة ذلك الزحام ، فان مما لا شك فيه انهُ لم يجد هو او غيره منفذاً في ذلك الخلق النبيل : خلق الوفاء الذي انتظم خاصتهم وعامتهم . وظهر ذلك جلياً في ليالي خطوبهم كما وضح في مناهج أعيادهم . ولئن كان مظهر الكرم رائعاً فيهم على الرغم من انهُ لم يعد يناسب الاوضاع الاجتماعية فان مظهر الوفاء فيهم ما زال أروع ، اذ لا مصدر لهُ إلاَّ القلب ، بخلاف الكرم فقد يكون لدواع لا تمت الى جوهره الاَّ بأوهى سبب !! نقول هذا على ذكر المؤلف الضخم الذي قام بتأليفه ثلاثة من رجال التربية في وزارة المعارف. أما الكتاب فهو « نؤاد الاول » . وأما المؤلفون فهم الاساتذة الافاضل : عبد العزيز الازهري وعلي سرحان ومحمد مجاهد . لم نكد نتصفح صفحاته التي تشارف الخمسمئة من القطع الكبير حتى راعنا حسن تنسيقه ، وجميل تبويبه ووفرة صوره هذا الى اقانين من الاسلوب السهل الممتنع ، والبحوث الدقيقة المدعومة بالارقام ، والبسط الوافي لكل ما لهُ علاقة بجلالة الملك الراحل وليداً وطالباً واميراً وزوجاً ووالداً وسلطاناً وملكاً . . . او ما له صلة بمصر الحديثة ما بين سنة ١٩١٧ التي ولي فيها حكم مصر وسنة ١٩٣٦ التي جاور فيها الرفيق الأعلى . فدعاهم هذا الى ان يستطردوا في دقة وبراعة النهضات المصرية : علمية وسياسية ودينية واجتماعية واقتصادية ... ومما نشكره لحضرات المؤلفين اهتمامهم بامر الصحف والمجلات في بحث شائق استغرق ست صفحات كاملة تحدثوا عن مبلغ نفوذها واثرها ومنزلتها كسلطة محترمة بين الهيئات التشريعية والقضائية والتنفيذية وأقدم الجرائد الاوربية والعربية وكان ذلك من حضراتهم تمهيداً لعلاقة الملك الراحل بالصحافة : أميراً وسلطاناً وملكاً

وكما أن المنطق أوحى الى المؤلفين أن يجملوا براعة الاستهلال في كتابهم أن تحدثوا عن الاسرة المحمدية العلوية وانتخاب محمد علي والياً والخديو اسماعيل وسعيه لجعل مصر دولة مستقلة فكذلك كان توفيقهم في الاختتام إذ تحدثوا في آخر اقسامه عن سلطات الغروب فتتبعوا صحة الملك الراحل في ترتيب متسق وعبارات رائعة ، وثورة من سنة ١٩٣٣ م حتى غربت شمس حياته التي طالما ملأت الشرق بهجة ونشاطاً . . . ولم يتركوا الفاجعة الحارة تنبث بالقلوب الدامية طويلاً بل واسوا تلك الجراح بما كان من تنصيب الملك الشاب المحبوب فاروق الاول على عرش الفراعنة وتنازله عن تلك مخصصاته السنوية

هذا هو الكتاب في جملته . وعندنا أن المؤلفين احسنوا التعبير عن ولائهم للذات الملكية وكان التوفيق رائدهم في كل ما بسطوه في كتابهم الحافل عن الملك الخالد وعصره الذهبي وحسبهم ان التقرير الذي رفع الى جلالة الملك فاروق عن كتابهم انصفهم وشهد لهم بمجهودهم ولكتابهم بأنهُ طيب وانهُ اوفى كتاب صدر الى الآن عن جلالة الملك الراحل طيب الله ثراه ■■

فهرس الجزء الاول

من المجلد الثاني والتسعين

١ العلم والمال

٩ الانسان المجهول : بحث العلامة الكسيس كارل . لاسماعيل مظهر

١٦ حكم انكليزية وإيابانية

١٧ معنى المثل الاعلى : لامين الريحاني

٣٠ النبات والمعدن شعور نابض

٣٣ اصلاح النسل : للدكتور شريف عسيران

٤٠ بيت الشاعر (قصيدة) : لمحمد عبد الغني حسن

٤١ تصادم عنصريتين : الصراع بين ابي جعفر المنصور وابي مسلم الخراساني : لعلي أدهم

٥٢ اوراق من الادب العالمي : لكامل محمود حبيب

٥٨ الدهن وانواعه : للاب افناس ماري الكرملي

٦٦ شدة الاحساس بأشياء ومواد معينة

٧٠ حيوانات مشهورة وصحة اسمائها : للفريق امين المعلوف

٧٣ حديقة المقتطف * رباعيات الغزالي — الحب الصوفي — الشك : نقلها خليل هنداوي

٨١ سير الزمان * الوحدة العربية : لحنا خباز . روسيا على مفترق الطرق

٩٥ باب التربية * التعليم على قمة جبل : للكاتب الاميركي لويس اداميك . زكاة الثقافة والعلم والنبوغ : للاستاذ محمد الشماوي بك . تاريخ مجيد وأغراض نبيلة : للسيدة انصاف منصور فهمي بك

١٠٨ الاخبار العلمية * عمر القمر وموعد الاحتفال بزواج جلالة الملك : لصبحي جابي. جوائز نوبل الطبية والكيماوية والطبية . الولايات المتحدة الاميركية تحسر ثروتها في ميادين الطيران . العلم والدمقراطية : قصة عالم فرنسي. انابيب البيرا من الزجاج. اخلاط ملونة من الذهب

١١٤ مكتبة المقتطف * هندسة الكون بحسب ناموس النسبية . الصيد في البلدان العربية . القضية الفلسطينية . الثورة العرابية . فؤاد الاول